نصر شمالي

الأيام التالية



رواية

الرســــوم و تـصـــميم الغـــلاف للفنـــــان « زيــــاد الفــرواتي »

نصر شمالي

الأيام التالية

دمشق - سورية

الطبعة الاولى : ١٩٧٢
الطبعة الثانية : ١٩٨٤

كلمة عن الطبعة الثانية

صدرت الطبعة الأولى من هذه الرواية في صيف عام ١٩٧٢ . ولا شك أن ظروف الحياة ، في مجملها ، قد تبدّلت تبدلاً كبيراً جداً سواء في بلدنا سورية ، أو في وطننا العربي الكبير ، أو في العالم عموماً ، بعد مرور كل تلك الأعوام . فما الفائدة ، يا ترى ، من إعادة طبع رواية تحمل عنوان «الأيام التالية» صدرت قبل أكثر من إثني عشر عاماً ؟

ولكن عدداً من الأصدقاء الأعزاء ، الذين أحترم مكانتهم الأدبية والاجتماعية ، ظلوا يقترحون عليَّ إعادة طبعها . ولقد فعلت ، ولكنني أعترف بأنني أقدمت على مضض ، إذ ثمة سؤال يلحُّ عليَّ طوال الوقت ، ويعذبني عجزي عن الإجابة عليه : هل ماتت الكلمة ؟ هل ماتت الكلمة ؟ .

على أية حال ، لقد راجعت هذه الرواية في طبعتها الأولى ، وعدت أقرأ ما كتب عنها في حينه ، وفي عدد لا بأس به من الصحف المحلية والعربية ، ورجعت إلى خلاصة الانتقادات الفنية التي تناوَلَتها ، وإلى ملاحظاتي بالذات ، غير أنني وجدت نفسي غير قادر على إجراء أي تعديل في النص ، مهما كان طفيفاً ، لا في الشكل ولا في المضمون . وها أنا أعود فأقدمها للقارىء كما هي . من يدري ؟ لعل تقديرات الأصدقاء حول جدوى هذا العمل هي الصائبة .

دمشق - ١٦ آب - ١٩٨٤

نصر شمالي



الأيام التالية

١ ـ الحلم واليقظة

انها الحرب تدور رحاها ، ولا أخالني مخطئا أبدا ، وها أنا أنتصب في قلب غمارها ثابتا هادئا بينما هدير الطائرات المقاتلة يصم أذني . كانت تمر أمام أنفي دون أن أختلج ودون أن تراودني أدنى رغبة بخفض رأسي الشامخ . أما المدافع الميدانية ، والمدافع المضادة للطائرات فقد كنت أرى اهتزازها وهي تطلق قذائفها ، ولكني لم أسمع لها صوتا . تصورت أنها لا بد مزودة بكاتمات للصوت ، أو أن هدير الطائرات غطى على دويها . كذلك كنت أرى أشباح الجنود بكامل عدة الميدان يتحركون وراء مدافعهم وحول آلياتهم ، والصمت يكتنفهم تماما كأنهم أجسام نورانية . وكانت ساحة المعركة بمجملها ملفعة بغلالة ضبابية رقيقة لا تحجب الرؤية البتة . أما الهواء فكان منعشا . امتحنت رباطة جأشي ، فوجدتها خرافية . وافتقدت قلبي ، فلم ألاحظ أي أثر لوجوده

ـ انه لا ينبض . . لكأنني بلا قلب .

من يا ترى قال كلاما بهذا المعنى ؟ . . أرجح أنه نابليون . . وكان الامبراطور يتقدم عبر الضباب الشفاف منحنيا قليلا يدقق في الارض وقد انعقد ما بين حاجبيه . هذا الجزار العالمي الآسر ، الذي لا يستطيع الرجال رغم كل شيء الا احترامه . . تساءلت : ما الذي يشغل تفكيره الى هذه الدرجة ، وأي شيء يثير اهتمامه ؟ . . قال الامبراطور :

ـ أنا في طريقي الى عكا . .

ثم أطرق قليلا ، فلاحظت بلا دهشة هيئته الرثة ، وياقة معطفه المتسخة . . . قلت :

ـ هل أطلق سراحك الحاكم العسكري البريطاني في جزيرة سانت هيلانة ؟

ابتسم ابتسامة جذابة ، ورفع قبعته المثلثة عن راسه ، وضغطها على صدره وهو يقول :

ـ يا صديقي . . ان زرائبيا على قيد الحياة ، أفضل من امبراطور توفي الى رحمة الله .

تخيلت أسوار عكا ، فخالجني شعور بالذنب سرعان ما تحول الى شعور بالقهر . . الامبراطور يستطيع دخول عكا ، أما أنا فلا . . اذن أينا يستحق الرثاء ؟

اشتد هدير الطائرات ، وحومت على مقربة ، فقال الامبراطور وهو يهز رأسه بأسى :

ـ في واترلو لم أكن أملك غطاء جويا . . أما والي عكا ، فقد كانت لديه مظلة . . اسمع . . أنقل على لسان بونابرت أن أحمد باشا الجزار كان شيوعيا .

قررت ان أزور عكا في وقت آخر لأتأكد بنفسي ، فالامبراطور لا يعقل أن يلقي الكلام جزافا .

* * *

دلفت الى حانوت قريب لأشتري حاجة ما ، وفي فناء داخلي ، وجدتني أمام مجموعة من الرجال جلسوا في الوسط هادئين ببزاتهم الانيقة ، وطالعتني بينهم وجوه باسمة ، ثم استوقفني وجه أليف يلوح من تحت شاربيه الكثين الاصفرين ظل ابتسامة ثابتة مشفقة . قلت :

ـ كنت اعتقد أنك ميت منذ وقت طويل . . منذ شاركت في تشييع جنازتك . . لا شك انك تعلم مبلغ الحزن الذي اصابني . . افتقدتك مثل أم تلاشى طفلها بغتة في جوف تمساح دامع العينين . . واضطرم صدري كالبركان حين وجدت أنك الوحيد الذي يستطيع أن يواسيني بموتك ، فهممت أن ألحق بنعشك . . بذلت كل طاقتي . . ولكنك كنت في المقدمة . . لم يكن اللحاق بك أمرا ميسورا .

لم يتكلم ، ولم تظهر على وجهه الشاحب أية دلالة تشير الى أنه سيعدل عن الصمت . قلت :

ـ هذا حسن . . الاموات الحقيقيون لا يتكلمون . . والثرثارون أموات مزيفون .

* * *

والتقيت دون دهشة بحبيبة قديمة لم أقابلها منذ فارقتها قبل سنوات طويلة ، فوثب قلبي من الفرح ، واجتاحتني غبطة عارمة . كانت تحتفظ بكل فتنتها التي خلبتني في ذلك

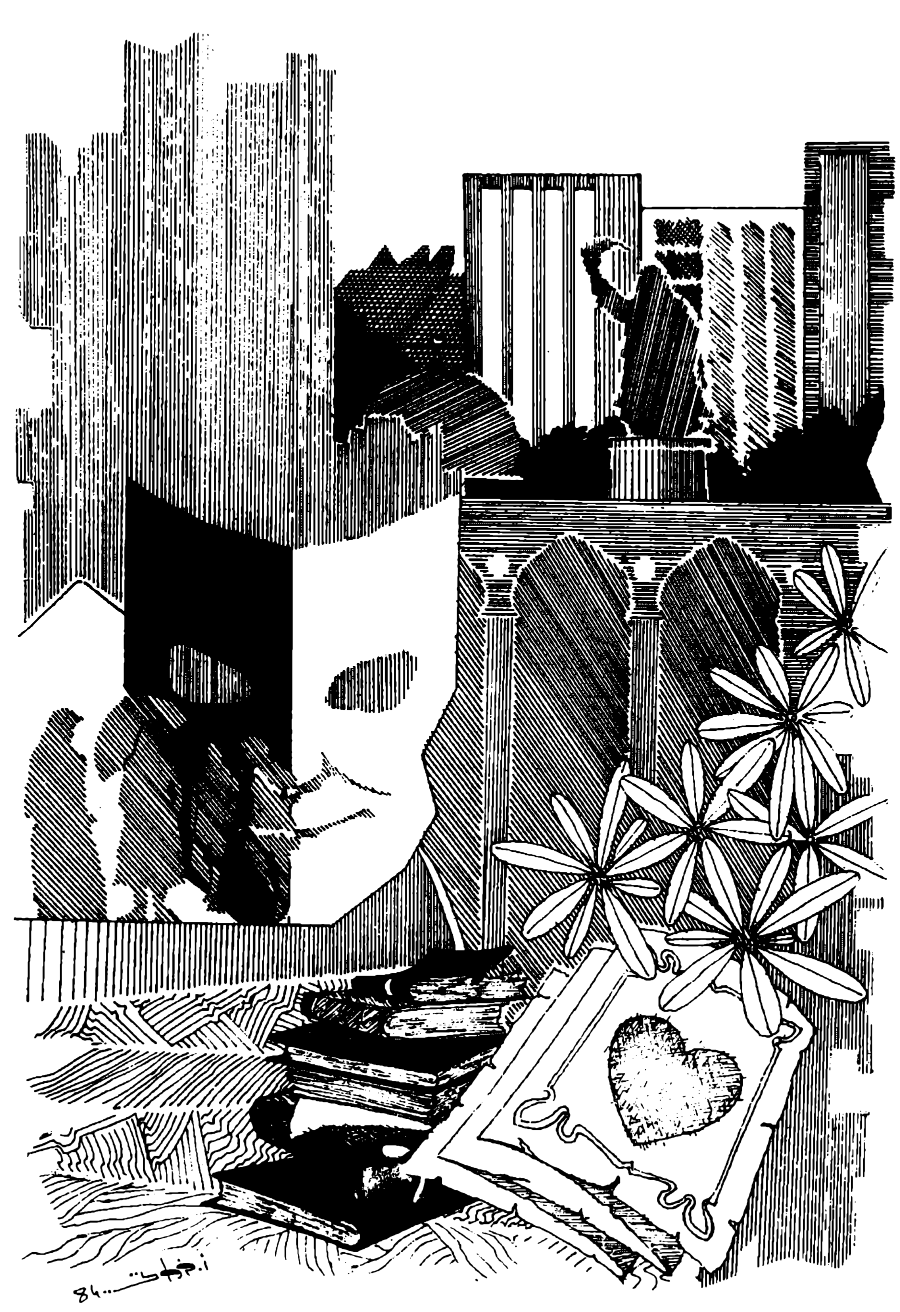
العهـد ، ولم يطـرأ على شكلهـا وهندامها أي تغيير البتة ، فكأننا افترقنا قبل دقائق قليلة .
كان تنفسي طبيعيـا ، بينـما خدر لذيـذ يسري بهدوء وبطء في كل ذرة من كياني ، فأتصور أن أمتـع ألـوان الحب هوذاك الـذي يمارسـه الـدجاج ، وأن الفولاذ ينصهر تماماً في أفران عالية الحرارة ، وأن نظام الحريم في قصور السلاطين لا يخلو من وجهة نظر منطقية . قلت :

ـ حسبت أن البحـــار السبعـة ما زالت تفصـل بيني وبينـك . . وأنـك كلما تماديت في السـير على خط مستقيم ، انبسطت أمـامـك الارض أكثـر فأكثـر واوغلت في البعـد أكثـر فأكثر . . لم أقتنع بكروية الارض رغم انني أردد بحماسة هذه الحقيقة مع المرددين كل يوم . . ولمـاذا أقتنـع ؟ . . ما مصلحتي في قنـاعـة كهـذه ؟ . . ليست لي مصلحـة الا في انبسـاط الارض ، وفي كل ما يؤكـد انفصـالي عن الـزمـان والمكـان . . الارض ليست كروية ، بل منبسطـة . . والصـور التي عاد بها رواد الفضـاء ضرب من الـدجـل والشعـوذة . . المـاضي ذكـريـات ، والمستقبـل أحـلام . . واللحظـة الـراهنـة ليست شيئـا ، لانهـا لا تعيش غير لحظة . . وأنا أكثر من يعلم بؤس ما أقول به .

تحدثت ، وتحدثت . . لكني لا أسمع لها صوتا . . وهدير الطائرات المقاتلة يتردد قويا صاخبـا . . فأتشبث بعينيهـا العـاتبتـين المعتـذرتـين ، وأتـابـع بولـه شفتيهـا المكتنـزتـين المتحركتين . . تختلج ، فيداهمني جنون الجوع . . تتسلل الى صدري ، فأعانقها بعنف ، وألتهم شفتيها بنهم لا حدود له ، وأطمئن بكف ملتاعة على كل جزء من جسدها الأثير .

***

كان حلقي جافا ، يحمل طعم الغضار ، وطعم شفتي الحبيبة القديمة . . مزيج مثير من الـواقـع والـوهم ، ومن اللذة والألم . . خليـط من الحلم واليقظة سرعان ما حسمه مرور سرب من الطائرات يقوم بتدريباته الصباحية . . تمنيت لو استمر الحلم الجميل . . وددت لو أستطيـع العـودة اليـه ، فالشمس لم تستكمل شروقها بعد . . لكن هيهات . . لقد أخذت الطـائـرات ما أعطتـه بنفس سرعتهـا التي تفـوق سرعـة الصوت ، وعادت المحيطات وعقد طويل من الزمن ، يفصلني عن حبي ، وعن صباي وأحلامي .



الأيام التالية

٢ ـ المسرح

تزجية الوقت موهبة لا يتمتع بها الجميع ، ولا تزال امامي فسحة منه رحت اقطعها بلا موهبـة . تنقلت بين الغـرف الصـامتـة عدة مرات . وقلبت نظـري في الاشياء والجدران بلا هدف ، وبدأب من يبحث عن شيء بعينه . وعبثت بلوحة جدارية لأصحح وضعها الذي لا يحتاج الى تصحيح . ثم أعددت قليلا من الشاي ، وجلست أستعين به في ازدراد قطعة محمصـة من الخبـز . وعنـدما دعاني الهاتف ، لبيت نداءه بلهفة من سقط في بئر ، وقيض له من ينتشله :

ـ صباح الخير . . هل نمت جيدا ؟

أجبت :

ـ صباح الخير . . لا ، لم أنم جيدا .

ـ هل اشتغلت طوال الليل ؟ . . هل أنجزت شيئا ؟

ـ لم أنجز شيئا . . مجرد « خربشات » .

ـ « خربشات » ؟ . . كنت أتوقع أن نبدأ الطبع مساء هذا اليوم .

ـ لا تؤاخذني . . ربما ستبدأ غداً . .

ـ غدا ؟ . . اذن عليك أن تتعهد بذلك . . عليك أن تقسم بشرفك . . هل تقسم ؟

كانت هذه طريقـة البـلاف في الحديث . . اسمه عارف البلاف . . وقد طغت كنيته على اسمه الاول ، فكنا نناديه بها دون أدنى حرج . . قلت :

ـ كفاك هذرا . . سأكون عندك في موعدنا . . لن احضر في الحال لأنني سأمر على الطبيب .

ـ الطبيب ؟ . . جميل منك أن . . . . .

دوى هدير سرب الطائرات مختتما تدريباته الصباحية ، وقطعت الاتصال الهاتفي دون

أن أسمع تعليق البلاف الى نهايته . وبينما كنت أغادر البيت وأغلق الباب ، خيل الي للحظة أنني خلفت شخصا يتنقل وحيدا ، صامتا ، سئما ، بين جدران المنزل الخالي .

* * *

حين صرت في الطريق ، لاحظت أن ذلك الصباح من أيار ينذر بظهيرة قائظة وأن الشارع يعج بمختلف أنواع وألوان الثياب ، الصيفية والشتوية ، مثل مسرح هزلي غص بالطرائف والمفارقات . وكنت ارتديت ثيابا ـ بين بين ـ تتلاءم مع الطقس المتقلب الذي تمرد على توقعات أجهزة الرصد ، ولم يعد يخضع لاية حسابات منذ وقت طويل . وخطر لي أن دمشق فقدت تماسكها الشجاع تحت ضربات معاول الجشع اللئيمة . . دمشق الواحة الوارفة الغنية ، التي صنعها الانسان ـ من لاشيء ـ عبر آلاف السنين ، فكون تربتها الخصبة ذرة فذرة ، واستثمر مياهها النادرة قطرة فقطرة ، وقدمها للعالم أعجوبة لا مثيل لها ، ورمزا حيا لارادته وابداعه . هذه الغابة المعطاء يحولها الجشع الى غابة من الاسمنت المسلح ، ويجعل مناخها المستقر اللطيف ، متقلبا نزقا نتيجة احتدام الصراع بين الجفاف المتقدم ، والرطوبة المتقهقرة .

قلت لنفسي وأنا أغذ السير : اذا لم تقطع يد الجشع السرطانية الآثمة قبل غد ، فستصبح دمشق لقمة سائغة في شدق الوحش الصحراوي . وعندئذ ، سيحصل فقراؤ ها على مساكن تؤويهم بعد طول تشرد ، وسيغطون الابواب والنوافذ بستائر يصنعونها من شعر الماعز وجلود الابل ، بدلا من الخشب المحفور المطعم ، والزجاج الملون ، الذي تكون الكائنات الفتاكة قد خلعته ونقلته بلا أدنى ريب الى مكان الاقامة الجديد في بير وت ، أو سواها . . وسيتقرر أن دمشق لم تعد أكثر من ثكنة . . ليست سوى مخفر متقدم ناء يصلح لعمليات الاستطلاع والمراقبة . . واذا هاجمها العدو ، فان فقراءها سيقاتلون في أسوأ الظروف والشروط . . الصحراء من ورائكم ، والعدو أمامكم . . واعلموا أنكم أضيع من الايتام على مأدبة اللئام . . ومن لا يعجبه الحال ، يستطيع الصعود الى سطح احدى العمارات ، والتصرف بحياته كما يشاء . . وأنا أسير وحيدا ، أرقب السماء التي بدأت فجأة تتلبد بالغيوم ، والناس الذين لم تعد تجمعهم حتى وحدة الطقس والثياب وأدمدم أن الارض

ليست كروية وأنني ذات يوم تحدثت بالهاتف مع البلاف . وقابلت نابليون بونابرت الذي كان في طريقه الى عكا . وتوقعت ظهيرة قائظة ، وسمعت عن مدينة جميلة ، قالوا لي أن اسمها دمشق . .

***

هبت ريح مشبعة برذاذ المطر ، فلجأت الى عمارة سبقني الى مدخلها آخرون . ووقفت أتابع باعة الكتب الذين انهمكوا في تأمين الحماية لبضائعهم المكدسة على أرصفة الساحة . ألقيت نظرة على عينات عرضها البائع في زاوية المدخل الذي احتميت به من المطر . . خليط مذهل من المطبوعات . . حفلة تنكرية للثقافات . وألوان وعناوين وأسماء ، تباعد بينها العقود والقرون والاهداف . . رأسمال ماركس ، وغطرسة فولبرايت . . حيوان الجاحظ ، والصمت لم يعد ممكنا ، وتحضير الارواح ، الانسان ذو البعد الواحد . . وتفسير ابن سيرين . . و . . ما هذه ؟ . . ومجموعة قصائد لشاعر محلي عنوانها « الشطآن القمرية تعشق الغيلان الترابية » ، وقد زين غلافها برسم خيل الي للوهلة الاولى أنه أحدى رافعات البضائع في الميناء . الا أنني بعد أن دققت النظر قليلا ، لاحظت أن لها ذيلا حيوانيا . . كان الذيل واضحا كل الوضوح ، ولا يدع مجالا للالتباس . لكأنه قطع توا من مؤخرة حيوان حي . . وماذا يحدث يا ترى ، لوخرج المؤلفون فجأة كل من بين دفتي كتابه ؟ . . وكيف ستتصرف روزا لكسمبورغ اذا وجدت نفسها وجها لوجه مع أرسين لوبين ؟ استرسلت في تخيلاتي الغريبة ، والبائع الذكي يتابع نظراتي خلسة ، ثم يسحب برشاقة من بين الاكوام كتابا يتحدث عن الجنس ويضعه على مرأى مني ، ويسارع مرة أخرى ، فيتناول « الشطآن القمرية تعشق . . الخ » ويقربه من وجهي :

ـ هل تريد ان تتصفحه ؟ . . تفضل . .

تلاشت الغيلان . .
الحب يسحق العظام
وقامة ممشوقة كأنها حسام
والغول لا ينام
يصارع الديدان . .

ويمتطي قرونها

ويعتلي بلا . . .

انفلتت من صدري آهة حارة . والبائع يثمنني بعين مجربة قل أن تخطىء تقدير الزبائن . .

تداعت الجبال تحت وطأة الذباب

وأثمر الجماع بين البوم والغراب

فطارت الحيتان . .

وغاصت الغيلان

وانت يا حبيبتي بلا . .

ـ هل أعجبك ؟

رحت أتأمل تمثالا ضخما في وسط الساحة . . هل هو فلاح ؟ . . هل هو اقطاعي ؟ . . وكيل الاقطاعي ؟ . . لا أدري . . انه تمثال فولكلوري يعرض طرازا معينا من الازياء التقليدية ، لكنه لا يمثل بتاتا فئة اجتماعية محددة . وكان المطر يغسل بسخاء جسم التمثال المجهول الهوية .

أرسل البائع نظرة خائبة الى وسط الساحة حيث سرح بصري ، ثم تمالك نفسه ، وقال متفلسفا :

ـ أترى المطر ؟ . . لكأننا في شهر كانون . . من الآن فصاعدا سيطول فصل الشتاء أكثر من المعتاد بكثير ، وسيصبح مناخ بلادنا أوروبيا ، وسيؤثر المناخ الجديد في المجتمع ، ويجعله أوروبيا أيضا . . وما هو السبب ؟ . . أتعرفون ما هو السبب ؟ . .

أجال بصره على بقية الاشخاص الذين كانوا بدأوا يتابعون حديثه ، فتنحنح أحدهم وتابع البائع :

ـ . . الفضل كل الفضل يعود للتفجيرات النووية التي احدثت انحرافا في موقع الارض من الشمس . .

قال الرجل الذي تنحنح قبل قليل :

ـ اذا غضب الله على قوم جعل صيفهم شتاء ، وشتاءهم صيفا . . احم . استغفر الله العظيم وأتوب اليه . .

فتضاءل البائع الذي لابد وأنه التقط ما قاله من بعض زبائنه ، ودمدم :

ـ يا لطيف . . ارحمنا يا رب .

قطعت أرجل الثعبان

نزعت ظفره المسموم

سقيته العذاب والهوان

لكي تعيش أمتي بلا . .

ـ هل أعجبك يا أستاذ ؟ . . بنصف ليرة فقط .

فوضعت الكتاب في جيبي ، ونقدت البائع نصف ليرة ، وتابعت السير .





الأيام التالية

٣ ـ الماضي يبرز فجأة !

في عيـادة الطبيب كانت تنتظـرني مفـاجأة لم يكن وقوعها ليخطر لي ببال ، تسمرت في العتبـة محملقـا بشخصين ، عجوز وشابة ، جلسا في أقصى غرفة الانتظار ، فلما وقع نظرهما علي حملقا بي أيضا ، ومرت لحظة أصبحنا خلالها عرضة لفضول الاشخاص الآخرين الذي غصت بهم الغرفة ، فأومأت برأسي محييا ، غير أن الرجل العجوز هب من مقعده ، بعد ان ألقى على ابنته الشابة نظرةً سريعة تتضمن معنى من معاني الاستئذان ، واندفع نحوي بقوة ولهفة فاتحاً ذراعيه على سعتهما . ويقينا لو أنني انسحبت من أمامه بغتة لسقط على وجهه . تراجعت خطـوتـين الى البهـو ، واستقبلتـه بين ذراعي ، فتعـانقنا عناق الوالد والولد ، بينما العينـان الشـابتان مثبتتان على وجهي من فوق كتفه ، محتفظتين برد فعل الوهلة الاولى لهذا اللقاء الغريب .

قلت وأنا لا أزال تحت تأثير المفاجأة ، والعناق الحار :

ـ كيف حالك يا عمي ؟ . . أية مصادفة سارة . . متى وصلتم دمشق ؟ .

أجاب وهو لايزال متشبثاً بذراعي :

ـ أول امس . . وكيف حالـك أنت ؟ . كيف عملك ؟ . . يشهـد الله أنني فرحت برؤ يتك كولدي تماما . .

ـ وأنا فرحت بك مثل والدي تماما .

ـ أنا دائما أسأل عنك كل من يعود الى البلد . . منذ متى لم نرك ؟ . .

ـ منذ سنوات طويلة جدا .

ـ خمس سنوات ؟ . . منذ خمس سنوات ، اليس كذلك ؟ .

ـ تقريبا .

فتنهد وقال وهو يتطلع بعيدا الى لا شيء :

ـ هذه أحوال الدنيا . . العمر يمر كلمح البصر ، والدنيا زائلة . . سيدنا نوح عليه السلام عاش ألف عام دون أن يبني بيتا يتسع لسكناه . . كان يتمدد داخل بيته ، فيبقى نصفه السفلي في ا لطريق خارج البيت . . كان نوح عليه السلام طويل القامة الى درجة يسمع معها تسبيح الملائكة في السماء . . مسخ البشر في هذا الزمان . . مسخهم الله الى هذه الاحجام . .

أشار بيده الى الناس داخل الغرفة دون أن ينظر اليهم . . ظهر على وجهه الارتباك والتفكير ، وبدأ يتلعثم في الحديث . وقد عرفت أنه ضل الطريق الى العبرة التي حاول استنباطها من رواية نوح ، وأنه أضاع العبرة نفسها ايضا ، ولكنه استرسل قائلا :

ـ مسخهم الله . . لأنهم كفروا واستكبروا . . وعصوا الرسول . . ونسوا أن الدنيا زائلة . .

تذكر دفعة واحدة غرضه من قصة نوح ، فأشرقت أساريره واسترد حيويته ، وانطلق يتابع بحماسة :

ـ . . سألوا سيدنا نوح عليه أفضل السلام : لماذا لا تستكمل بناء بيتك ؟ . . أتدري بماذا أجابهم ؟ . أتدري ؟ . .

ـ لا . . لم أعد أذكر في الواقع .

فانشرح لجهلي ، وأكمل وقد انتفخت أوداجه :

ـ أجابهم ، وهو الذي عاش ألف عام أن العمر من القصر بحيث لا يستأهل بناء بيت . . لم نرك منذ سنوات طويلة ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، منذ سنوات طويلة جدا .

ـ العمر أقصر مما تتصور يا بني . . لا تغرنك الحياة . . اياك ان تنخدع بها فهي متاع الغرور . . الحياة مثل سوق ازدحم ، ودارت فيه عمليات البيع والشراء ، ثم انفض فجأة ، وتفرق الناس ، فمنهم من باع ، ومنهم من اشترى ، ومنهم من ربح ، ومنهم من خسر . . .

تلفت حوله على حين غره كمن تذكر شيئا فقده ، وظهر الارتباك على وجهه المغضن وهو يقول :

ـ ولكن لماذا لا نجلس ؟ . . لا تؤاخذني . . كبرت وهرمت ، وبدأت انسى نفسي . . تعال . . تعال نجلس . . أف . .

وقع نظره على ابنته ، فازداد ارتباكا ، وراح يحرك يديه ورأسه بلا مبر ر ، ثم قال وهو يطلق انفاسا حرى :

ـ ألم أقل لك أنني عجوز خرف . . أخ خ . . عندما يهرم الانسان يعود طفلا كثير اللغط والسهو . . نسيت نجوى تماما . . غابت عن ذهني . . سامحني الله وأحسن خاتمتي . . انها مريضة جدا . . ألم أخبرك بذلك ؟ . .

هززت رأسي نفيا وأنا أبتسم له ابتسامة مسامحة .

ـ لم أخبرك ؟ . . ولكنني معذور يا بني . . ماذا بقي من العمر سوى أيام معددوات ؟

قلت وأنا أضع يدي على كتفه :

ـ أنت تبالغ يا عمي . . أنت اليوم أكثر شبابا وحيوية من أي وقت مضى . . أسألني أنا وقد رأيتك بعد كل السنين الطويلة . . هل تصدق ؟ . . أنا أراك أصغر سنا من ذي قبل .

كان يستمع الي مائلا نحوي قليلا ، ملقيا ذراعيه خلف ظهره ، مقطبا ما بين حاجبيه ، وباذلا جهدا ملحوظا ليحتفظ بوضعيته هذه ، وبالطريقة التي يرمقني بها . كذلك لاحظت أنه يحاول طوال الوقت خنق ابتسامة طفولية ماكرة تحاول الانفلات من عقالها ، والسيطرة على شفتيه ، فتسبب لها محاولاته ارتعاشا خفيفا ، وقد نجح اخيرا في قهرها تماما ، وعلق على كلامي ، مطوحا بيده ، مشيحا بوجهه قليلا :

ـ هذا كلام لا أكثر ولا أقل . . .

استدرك بسرعة ، وبدل لهجته :

ـ لا تؤاخذني ، فأنت مثل ولدي . . ولكنك تجاملني فحسب . . انك تواسيني . .

قرب فمه من أذني ، وهمس كمن يسأل عن حاجة ممنوعة :

ـ هل تعرف هذا الطبيب ؟ . . انه ذائع الصيت في كل البلاد . . الحقيقة أنني لا اعرف شيئا عنه ، ولا عن غيره من الاطباء . . هل تعرفه ؟

كان قد نسي ابنته مرة اخرى ، ونسي دعوته اياي للجلوس . قلت :

ـ أعرفه قليلا ، مثل جميع الناس .

ـ أنا لا أعرف الاطباء ، وما كنت أريد أن أعرفهم ، ولكن ما حيلتي . . أتريد رأيي ؟ . . انهم لا يخافون الله . . يقطعون كالمنشار على الطالع وعلى النازل . . يتخرج واحدهم البارحة فيشتري سيارة غدا ، ويبني عمارة بعد غد . .

قلت :

ـ هذا لا ينطبق على جميع الاطباء يا عمي . . ثم انهم يساعدون كثيرا في تخفيف آلام البشر ، وفي اعادة الطمأنينة والحياة والسعادة الى القلوب ، والى البيوت . .

فظهر الغضب سريعا على وجهه ، وقاطعني بعصبية :

ـ لا ، لا . . أنت تتحدث عن قلة منهم ، والعبرة ليست في القلة . . العبرة في الاكثرية . . الا ترى أنه كلما كثر الاطباء كثرت الأمراض ؟ . . أليس هذا غريبا ؟ . . ماذا حدث للناس ؟ . . أنظر . . جميعهم مرضى . . سكري ، ومعدة ، وكبد ، وأعصاب ، وأمراض أخرى ـ والعياذ بالله ـ لا أحب ذكر اسمها . . الجلطة ؟ . . احمنا يا رب . . قل لي ؟ . . ما هي هذه الجلطة ، ومن أين جاءت . .

قلت :

ـ الجلطة هي انسداد في الشريان يؤدي الى توقف القلب . . جميع الامراض كانت موجودة دائما . . وكان الناس يموتون فجأة دون أن يعرفوا السبب . . الاطباء اكتشفوا وجود هذه الامراض ، ووضعوا لمكافحتها العلاج اللازم . .

اعتراه احساس طفيف بالهزيمة زاد في انزعاجه ، وجعل لهجته اكثر حدة :

ـ من يسمعك يعتقد أنك تعمل لصالحهم . . لا . . في أيامنا لم نكن نعرف كل هذا البلاء . . لم نسمع بهذه الامراض الا في أيامكم . . كان جيلنا قوي البنية . . كان واحدنا يأكل الصوان ، وينام مع البهائم ، ويسافر سيرا على الاقدام الى آخر الدنيا . .

أطرق لحظة ، ثم عاد يقول :

ـ اذن أنت تعرف هذا الطبيب ؟ . .

ـ قليلا .

ـ قليلا ؟ . . لم يبق أحد الا وحدثني عنه ، ووصفه لي . . قالوا ان كل الناس في دمشق يعرفونه جيدا ، وانه أشهر من نار على علم . قالوا لي : عندما تصل الى دمشق ، وبمجرد نزولك من السيارة ، اسأل أقرب انسان اليك ، فيدلك على عيادته في الحال . . احم ، احم . .

أطرق ثانية ، ثم رفع رأسه ، ونظر الي بعيني طفل مذنب ، وأردف :

ـ ولكننا تعبنا . . تعبنا كثيرا حتى اهتدينا الى عيادته . . كلت أقدامنا ونحن نذهب غربا ، ثم نعود فنذهب شرقا . . أخبرني . . هل صحيح أن أهالي دمشق لا يدلون

الغريب ، ويضللونه عامدين ؟ . . هل هذا صحيح ؟ .

ـ هذا غير صحيح . . كل ما في الامر أن المدينة كبيرة جدا ، ومن الصعب على أي انسان معرفة كافة الاماكن فيها .

حانت مني التفاتة الى نجوى ، فاستقبلتني بنظراتها ، ثم تحولت الى أبيها ، وأنبته بعينين زادهما بريق الغضب جمالا وروعة . تململ العجوز واضطرب ، ثم أشار بيده نحوها ، وسار أمامي صامتا .

ـ صباح الخير .

فردت التحية بتحريك شفتيها ، وبازدياد البريق في عينيها ، وباحمرار خفيف تسرب الى وجنتيها الشاحبتين . كانت لا تزال غاضبة . وكان العجوز في تلك اللحظة متكورا في مقعده يرقبها خلسة ، وكأنه يستعد لسماع تقريعها . غير أنها كانت مضطربة ايضا . . غاضبة ، ومضطربة . . وتساءلت : ترى أي الحالتين نجمت عن الاخرى ؟ . . هل غضبت لأنها مضطربة ، أم اضطربت لأنها غاضبة ؟ . . ثم كيف اجتمعتا معا في آن واحد ؟ . . كيف ؟ . . وفي أي بلاد يلتقي الليل والنهار في الوقت نفسه . . فلا الليل ليل ، ولا النهار نهار ؟ . . في أي بلاد ؟ . وعبر الصمت الذي دام قليلا ، راح العجوز يسترد رباطة جأشه ، ويستجمع أطراف شجاعته . ثم قال بغتة كمن يفصح عن مشروع رشوة :

ـ حسنا يا نجوى . . لست وحدك ابنتي . . سعد ابني أيضا . . انه اخوك . . نعم . . نسيت نفسي والله عندما ضممته الى صدري ، فمن يلومني ؟ . . قولي ، من يلومني ؟ .

كانت قد أسدلت اهدابها الطويلة ، بينما أناملها تسرح خصلة شعر منسابة على صدرها . أما العجوز ، فقد كان في جلسته المتحفزة اشبه بملاكم صرع خصمه بالضربة القاضية . اتجهت اليه بوجه مشرق ، وقالت :

ـ لا أحد يلومك . . عندما تنسى نفسك ، فلا تلم الا نفسك .

كدت أضحك وأنا أرى كيف «باخ» موقف العجوز ، وشاركتني نجوى الابتسامة بأعرض منها ، وحرصت أن ألاحظ مشاركتها ، فشعرت أنني تحررت من حمل ثقيل ، وحدثت نفسي : انها شجاعة . . طبعا شجاعة . . والا ما عاشت الى اليوم . . لعلها تستمد الحياة من شجاعتها فحسب ، ولعلها ميتة وحية في آن واحد . . غاضبة ومضطربة في الوقت نفسه . . الليل والنهار يجتمعان معا في بلد ما . . والفارس العربي منتصبا على صهوة

جواده ، مثخنـا بالجـراح ، متكئـا على رمحه المنغرس في الرمال ، مدافعا عن أطفال عشيرته بانتصـابتـه تلك . . ثم يكتشف الغـزاة أنـه ينتصب ميتـا . . يا الهي . . ينتصب ميتـا . . يكتشفـون أنـه أسلم الـروح قبـل وقت طويل . . الاموات الشجعان يدافعون عن الاحياء القـاصـرين . . أيـة لوحـة هذه اللوحـة ؟ . . وقبل ان ينتفع الغزاة باكتشافهم المذهل تقبل الخيـل من جوف الليـل . . تنبثق من أعـماق الظلمة . . يسمع صهيلها اولا . . ثم يشاهد الشـرر يقـدح فيحـدد وقـع حوافـرها . . يشاهد الشرر فقط . . وبغتة تجد نفسك في خضم المعـركـة ، بلا مقـدمـات ، يحيـط بك المقـاتلون من كل جانب . ويترنح الفارس الميت ، ويسقط ، فقد انتهت مهمته .

قال العجوز :

ـ جاء دورنا . . انهم ينادون علينا . .

تنبه فجأة ، فاعتدل في وقفته ، وسألني :

ـ ولكنـك لم تخبر ني عن سبب مجيئـك الى هنـا . . أنت لا تعلم بوجـودنـا ، أليس كذلك ؟ . ماذا جئت تفعل اذن ؟ . .

لاحظت كيف اتسعت حدقتـا نجـوى ، وكيف تشبثت بمسنـدي المعقد ، فأسرعت أقول وأنا أبتسم لهما :

ـ جرت العـادة بين النـاس على اجـراء فحوص طبية روتينية . . جئت الى هنا على هذا الاساس لا أكثر ولا أقل .

قهقه العجوز ، وقال وهو يضرب كفا بكف :

ـ هكـذا اذن ؟ . . فحـوص روتينية من قبيل العادة ؟ . . جميل . . جميل هذا الكلام والله . . عشنـا وسمعنـا . . أمـوال المجانين تذهب حفاظا على العادة . . الآن فهمت سر ثراء الأطباء بكل هذه السرعة .

لم تأبـه نجـوى لحوارنا ، ولم تلتفت الى ضحك العجوز وصخبه أدنى التفاتة . كانت تتفرس في وجهي مثل محقق بارع لا يثق الا باستنتاجاته الشخصية . قلت وأنا أقاوم ارتباكي :

ـ الطبيب ينتظر . . أين تقيمان لأتصل بكما ؟ .

فأعطـاني العجـوز اسم الفنـدق الذي ينزلان به ، ثم انهمك في مساعدة نجوى على النهـوض ، فلما استـوت واقفـة ، ناولها عكازتين كانتا وراء المقعد ، فأحكمت وضعهما تحت ابطيها ، واتجهت بهدوء نحو غرفة الطبيب .

٤ ـ تداعيات الذاكرة

انطلقت عبر الشـوارع المـزدحمـة ساهما لا تبرح مخيلتي صورة نجوى وهي تجر جسمها باتجـاه غرفـة الطبيب ، فأتذكر المنازل العتيقة المتداخلة ، وأسطحتها الترابية المتصلة ، التي كانت مرتـع طفـولتنـا ، ومتنفس صبـانا الاول . . أتذكر تلك الفتاة الرشيقة ، ذات الثلاثة عشـر ربيعـا ، التي لا تكف عن الحـركة فتقفز من سطح الى سطح ، لا يعيقها جدار ، ولا يوقفها تباين ارتفاع الأسطحة ، فتمضي تنزلق على عمود الكهرباء بلا أدنى تردد أو حذر ، كاشفـة عن ساقـين أبيضـين كالثلج ، بينما شعرها الطويل ، الخرنوبي اللون ، يقاتل الهواء بعصبيـة مجنـونـة . والصبيـان من حولهـا يتسـابقـون لكسب ودها ، فيتقدم أكثرهم جرأة ، ويحـاول أن يتلقـاها بيديه قبل أن ترتطم بأرض الطريق ، فتتوقف فجأة عن الانزلاق متشبثة بعمـود الكهـربـاء ، وتتطلع اليـه من فوق بعينـين غاضبتـين ، وتنهـره آمرة اياه أن يبتعد من طريقهـا ، فيـتراجـع خطـوتـين الى الـوراء ، متظاهراً باللامبالاة ، يداري خاطره المكسور بابتسامة رجولية مبكرة . وتتابع الفتاة انسيابها على العمود غير آبهة له أو لسواه ، فما أن تضع قدميها على الارض حتى تنطلق راكضة بكل قوتها ، فتدخل منزلها ، وتعاود الكرة . الا أنها لا تصعـد السلم الى السطـح ، وانـما تتسلق شجرة التوت الهرمة ، ذات الثمر الحلو المشوب بالحمـوضـة . . الشجـرة التي يعـرف مذاق ثمـرهـا كل أولاد الحي ، والتي كنا نصبغ بدمها الاسـود المـائـل الى الحمـرة وجوهنا ، لنبدل ملامحنا ، ونمثل رواية من روايات الجن خلال أمسية ساحرة من أماسي الصيف .

وكنت أرقبهـا متسمـرا مشـدوهـا عن سطـح منزلنا الملاصق لمنزلهم وهي تمارس لعبتها الخطـرة . وأتأملهـا باعجـاب وهي تقفـز من الغصن الى السطـح متجـاهلة تهديـدات أمها ودعـاءاتهـا الكاذبة ، ثم تتسلل كواحدة من القطط بين الاغصان المتشابكة ، ذات الاوراق الكثيفة ، والتي تغطي جزءا من السطح .

وذات مرة ، وقعت نجوى في ورطة حقيقية . . قفزت عن الشجرة كعادتها ، فاشتبك طرف ثوبها بالغصن ، فتعلقت وهي تتأرجح بين السطح القريب وفناء المنزل المنخفض . . وقعت في المصيدة ، وأسقط في يدها ، وأدركت أن أية محاولة تبذلها لتخليص نفسها لن تكون سوى محاولة عقيمة مضحكة . وكنت أعرف أن أخطر ما في الامر بالنسبة اليها أن تغدو أضحوكة ، فقد كانت معتدة بنفسها الى أبعد الحدود ، ولم أكن أشك في أنها تفضل أن يبكيها الناس في فاجعة ، على أن يضحكوا منها في ورطة كهذه . . حسنا ، والآن ما العمل ؟ . . كان أول ما فعلته وهي تتأرجح بين السطح القريب والفناء البعيد ، أنها تلفتت حولها ، وتأكدت من خلو الأسطحة ، ومن أن أحدا لا يراها سواي . . ماذا ستفعل ؟ . . ألقت نجوى نظرة خاطفة مكابرة ، ثم حاولت أن تمد يدها لتخلص ثوبها ، ولكنها فشلت بالطبع . . لم تفشل فحسب . . وانما أدركت أيضا خطورة مثل هذه المحاولات التي قد تهوي بها سريعا الى الفناء ، فتتحطم على الاقل ، ان واتاها الحظ ولم ترتطم ارتطاما مميتا . رغم ذلك ، لم تصدر عنها أية حركة ، ولم يخرج من فمها أي صوت ، ولم تظهر على وجهها أية دلالة تشير الى الخوف . . ولكن ماذا ستفعل ؟ . . تطلعت نحوي هذه المرة بنظرة آمرة . . كانت وحيدة والديها المدللة ، وكنت في الثانية عشر ، تكبرني بعام تقريبا . . تسللت بين الاغصان حتى حاذيتها . . التقت نظراتنا ، فلفحتني أنفاسها الحارة ، وكدت أسمع وجيب قلبها ، فارتعشت ، وأحسست دبيبا يسري في دمي ، ويهز كل ذرة في كياني . ولم يكن تخليصها ممكنا الا اذا احتضنتها ، ورفعتها قليلا ، وخلصت باحدى يدي طرف ثوبها ، وهذا ما فعلته بالطبع . غير أنني كنت مبهورا ومرتبكا ، فما ان وضعتها على السطح ، حتى وجدتني أضع احدى قدمي في الفراغ ، وأكاد أهوي الى الفناء ، فأتشبث بالغصن ، وتتشبث نجوى بي .

سألتني ونحن لا نزال بين الاغصان ان كنت سأخبر أحدا بما حدث . فلم أجبها . كان سؤالها نهيا أكثر منه رجاء ، رغم رائحة المودة المكبوتة التي شممتها فيه . وقد انسحبت الى سطحنا بصمت دون أن أتلفظ بحرف واحد .

منذ ذلك اليوم صارت أحلامي الصبيانية تعدني بحادث مشابه ، وبقي هذا السر من أهم وأقدس أسرار حياتي ، ولكن هيهات ، فاللحظات الخالدة لا تصطنع اصطناعا ، ولا تتكرر أبدا ، ولكنها تستمر ذكريات عطرة تنعش النفس ، وأمنيات عذبة تشجع على مواصلة طريق الحياة .

لقد كفت نجوى بعد تلك الحادثة عن تسلق الشجرة ، وواصلت لعبتها بواسطة السلم ، انما بحماس أقل . وكنت قد أدمنت متابعتها . الا أنها هجرت ذات يوم هوايتها كليا ، وبدأت تتعود بالتدريج التزام البيت ، فقد تحدث أحد رجال الحي مع والدها ، ولفت نظره الى أنها أصبحت صبية تقف على أعتاب الزواج .

أما أنا ، فقد قيض لي من يأمرني ذات يوم بصوت عال جدا ان أبارح السطح الى غير رجعة : « أنت شاب ، فاتق الله . . عندما كنت في سنك كان لي أولاد . . انزل واترك حريم الناس يزاولن أعمالهن بحرية » .

لقد توطدت صلتي بنجوى عبر السنين التالية بحكم علاقات الجوار الحميمة بين أهلي وأهلها ، ومن خلال زياراتها لمنزلنا برفقة والدتها ، وأثناء المهمات الصغيرة التي كان والدها يكلفني بها (باعتباري مثل ولده) . وكنت أفرح أشد الفرح حين يناديني ، فأطير اليه على جناح السرعة ، وأستقبل دعاءه ورضاه بعين قريرة ، ومشاعر متأججة . وما كان يراودني أدنى شك أنني ألبي نداء نجوى عندما يناديني والدها ، لأني لم أكن أفرق بين الأب والأم والابنة ، وأعتبرهم جميعا شخصا واحدا اسمه نجوى . كذلك كنت أعتبر نفسي محظوظا باعتباري (الشاب) الوحيد الذي بقي على صلة بها دون سواه . فقد أصبحت رؤ يتها بالنسبة لأقراني متعذرة جدا ، ان لم أقل مستحيلة . بالاضافة الى أننا كنا نتبادل بعض الكتب المدرسية التي فقدت عند أحدنا لسبب اولآخر .كانت هي التي تستعير كتبي على الأغلب . وقد ضاق بي الحي من السعادة عندما أعادت الي ذات يوم كتابي وقد غلف تغليفا أنيقا ، وزينت مقدمته بصورة لباقة ورود متعددة الالوان ، بينها قرنفلة تشرئب بعنقها متباهية ، ومن يومها أصبح القرنفل زهري المفضل . ولا أود أن اخفي حقيقة اكتشفتها بعد فترة قصيرة ، وهي أن الكتاب السعيد قد أصيبت احدى دفتيه بأضرار بالغة ، ولا بد أن الاضرار التي لحقته في غربته هي التي دعت الى تغليفه ضمن عملية تجميل محكمة استهدفت اخفاء عيوبه الطارئة . الا أن هذا الاكتشاف لم يؤ ثر أبدا على سعادتي . . ألم تصرف وقتا ليس قصيرا لتجميله ، واعداده بالشكل الذي يرضيني ، ويثير اعجابي ؟ . . ولو افترضناها أعادته الي دون اصلاح ، فلن أكون الا سعيدا . . نعم . . كنتسأتأمل الجلدة المزوقة ، وأقول لنفسي أن اناملها هي التي فعلت ذلك . والخلاصة هي أن ما كان يهمني ويسعدني وقتئذ ، أن يعود الكتاب وفيه أثر منها حتى ولو كان سلبيا ، فكيف وقد عاد بحلته القشيبة ؟ . . لقد تحول في الحال الى كتاب مقدس .

غير أن كل هذه الامور التي كانت تأخذ قسطا وافرا من وقتي وذهني ، لم تتعد الحدود التي ذكـرتهـا ، اذ نادرا ما كنا نتبادل بضع كلمات تفرضها الضرورات القصوى . كأن يقرع البـاب ، فأفتحـه لأجـدهـا أمامي . . تسألني عن أمي ، فأقول أنها ليست موجودة . . أين هي ؟ . . عنــد فلانـة . . هل ستتأخـر ؟ . . لا أدري . . سلم عليهـا وقـل لها انني سألت عنها . . الله يسلمك . كان هذا كل شيء ، وكنا نستطيع أن نتحدث أكثر ، ولكننا لم نكن نفعـل . ومـا كنت أغفـر لنفسي مجرد التفكير في قول مثل هذا الكلام . هكذا ربانا أهلنا ، وتلك كانت عاداتنـا التي نتبعهـا مثلما نشـرب المـاء ، ونتنفس الهـواء . كانت لغـة القلوب والعيـون هي السـائـدة ، وهي المشـروعـة ، ولم يكن هنـاك أي ضيـر في ملاحظتها من قبل الأهل ، الا أنها تبقى على الأغلب في هذا النطاق ، ولا يفكر في ترجمتها الى كلمات سوى الشواذ الذين لم يحسن أهلهم تربيتهم .

* * *

غير أن ما حدث فيـما بعـد كان مذهـلا ، ومـروعـا ، وخـارقا للعادة . كانت نجوى بلغت السـادسـة عشـرة من عمـرهـا حين بدأت أسمـع عرضـا همسـات حول رجـل تقـدم لخطبتها ، وأن هذا الرجل ـ رغم أهميته ـ لا يستحق قلامة ظفرها . ورغم هول النبأ ، فقد تلقيته بصبر جميل ، ودون أي احساس بالمباغتة . . ماذا أقول ، وماذا أفعل أنا الذي أتوقع هذا الحدث ، ولا اطمح الى أكثر من تأخر وقوعه . . لم يخطر ببالي ، حتى ولا في أحلامي ، أننا يمكن أن نعيش معا تحت سقف واحد . . ولم تكن لي أماني ، فقد كانت أقصى أماني أن يستمر الحال على ما هو عليه ، فاستمراره يعني بالنسبة لي ان تستمر سعادتي في ذروتها . أنا الطـالب الصغـير الـذي يصغـرهـا بعام ، والذي لا يعقل أن يفكر بشريكة لحياته قبل عشر سنوات أخرى .

ما كنت أملك أيـة ذريعـة تخولني حق السؤ ال عنها ، وتتبع أخبارها مباشرة ، ولذلك فقـد اعتمـدت على المصـادفـات ، وعلى أذني المـرهفتـين واذا بي أسمع ذات مساء صوت والـدتهـا يلعلع مسمـوعا لأول مرة ، مخرجا القضية بفظاظة الى نطاق العلنية . ولا شك أن كافة سكان البيوت المجاورة ، قد سمعوا ما سمعت ، واهتموا اشد الاهتمام بما يجري في دار عبـد الغني حليمـة ، ولا بد ان النسـوة أجلن تأديـة أعمالهن المنزلية ، وان الرجال توقفوا عن

تناول طعام العشاء ، وان الاولاد كفوا عن البكاء والصراخ ، وأنهم جميعا انصرفوا بفضول ما بعده فضول ، يتتبعون أخبار نجوى . وقد لاحظت وأنا في صحن الدار رؤوس بعض النسوة اللواتي تسلقن السلالم ، واعتلين الأسطحة ، لتتبع ما يحدث بالعين المجردة . فانفطر قلبي من الألم ، وأشفقت على البيت الحبيب أن يغدو محط الانظار المتطفلة ، ومضغة الأفواه الثرثارة ، اشفاق العاجز الذي لا يملك من الأمر شيئا ، وهو يرى أعز ما لديه في متناول جميع الأعين والالسن .

كانت أم نجوى قد خرجت عن طورها ، وها هي تصرخ معلنة قضية ابنتها على رؤوس الاشهاد : . . قلت ستتزوجه . . أعطيت وعدا وسألتزم بوعدي . . منذ متى أصبحت تفهم بمثل هذه الامور يا عبد الغني ؟ . . الزم حدك ، وانصرف الى أعمالك . . لا تقاطعني . . لا تجادلني . . . اذهب واهتم بشؤونك . . ستنفذ كلمتي . . ستتزوجه . . اخرس . . اخرج من هذا البيت . . اخرج من بيتي » . نعم ، نعم هذا بعض ما سمعته في ذلك المساء الكئيب ، وقد سمع الآخرون اكثر مما قيل ، وتناقلوا قصصا مطولة مضخمة لا أساس لها من الصحة .

تتبعت وقع أقدام الرجل وهو يدب باتجاه الباب ، ثم التقطت أذناي صوت نجوى تتوسل اليه أن يعود ، فبلغ بي التأثر درجة اغرورقت معها عيناي بالدموع ، فلجأت قبل أن يلحظني أحد الى بقعة بعيدة عن دائرة الضوء ، واحتميت بها حتى تأكدت أن العم عبد الغني عدل عن الخروج . عندئذ غادرت المنزل هائما على وجهي .

* * *

ولكن من هو عبد الغني حليمة هذا ؟ . . من هو والد نجوى الذي سمعنا زوجته تطرده من بيتها بتلك الطريقة المهينة ؟ . . سأحاول الاجابة في حدود ما ترامى الى سمعي من أخباره .

لقد كان في الثامنة عشرة من عمره حين ساقوه لخوض الحرب العالمية الاولى في صفوف الجيش التركي . فلما عاد بين القلائل الذين عادوا من تلك المجزرة ، وجد أن المجاعة قد ذهبت بأسرته ، ولم تبق الا على والدته العجوز ، فصار الناس يرددون : عاد ابن حليمة . . ولد ابن حليمة من جديد . ومن يومها نسب الى أمه ، وأصبح يكنى باسمها .

بعد أن ماتت العجوز أصبح مقطوعا من شجرة على حد تعبيره ، فانخرط في سلك

الـــدرك بعـد أن باع ممتلكـاتـه البسيطـة ، ليمضي ردحـا طويـلا من الـزمن متنقلا يخدم في الاريـاف . وكـان قد تزوج بفتـاة يروي هو نفسـه عن جمالها وشجاعتها ما يجعلها أقرب الى الاسطورة ، فأنجبت له طفلا يقول أنه يفوقها جمالا . وقبل أن يتجاوز الطفل عامه الاول ، حلت بالأسـرة الصغـيرة فاجعـة مروعة أودت بحياة الأم وطفلها ، فعاد وحيدا مرة أخرى . وقد تضاربت الروايات حول طبيعة تلك الفاجعة ، الا أن أكثرها شيوعا هي تلك التي تقول أن اللصـوص أغـاروا على بيتـه أثنـاء سفره ، فتناولت امرأته البندقية ، ودافعت عن البيت دفـاع الـرجـال الشجعـان . ويروى ان اللصوص ظلوا طوال الوقت يعتقدون أنهم يتبادلون اطـلاق النـار مع زوجهـا ، وحتى بعـد أن أردوها وطفلها مضرجين بالدماء ، ظلوا يعتقدون أنهم قتلوه هو . فلما عاد ، وجد بيته سليما لم ينقص « قشة » واحدة ، فتوجه الى المقبرة وقد هده الحزن ، وحطمت قلبه اللوعة .

لا أدري مقدار صحة هذه الرواية ودقتها ، فقد كان العم عبد الغني يتجنب الخوض في هذا الموضوع ، فاعتاد الناس تجنبه ايضا .

وعلى أثر تلك الحادثة ، استقال من وظيفته وتنقل بين اعمال عديدة ، الى أن استقر به المطـاف عنـد جد نجـوى لأمهـا فعمـل لديـه ـ كاتبـا ووكيـلا ـ في القـريـة الصغيرة التي يملكهـا . وكـان قد عزف عن الـزواج ، الا أنه بعد سنوات من الحياة المشتركة في بيت رب عمله ، اقـترن بابنتـه الـوحيـدة ، التي كانت تجاوزت سن الزواج لأسباب لم يعرف منها الا القليل القليل . وهكذا أصبح فردا من أفراد الأسرة ، له ما لها وعليه ما عليها .

غير أن أزمة مالية داهمت الجد ، فذهبت بثروته وبالجزء الاكبر من أرضه ، ثم أودت به الى القـبر . ويـروى ان الجـد المسكين ذهب ضحية لعبة قذرة خطط لها ونفذها أحد كبار الاقطاعيين الطامعين بالارض . ومهما يكن من أمر ، فان العم عبد الغني ، بما عرف عنه من استقـامـة ودأب ، قد نجـح في مجابهـة ذيـول الكارثة ، فاستغل ما تبقى من الارض أحسن استغلال ، وعمل الى جانب ذلك بتجارة المحاصيل الزراعية ، فاستطاع ـ بشكل عام ـ أن يكفل للاسرة الصغيرة حياة مستقرة لائقة .

غير أن العم عبد الغني لم يكن يملك شيئاً باسمه ، لا في الارض الصغيرة ، ولا في العقـارين المؤجـرين ، ولا في غيرهما من الممتلكـات التي لا تدانيهما في القيمة ، فقد كانت جميعها ملكا لزوجته .

* * *

ان أحدا من أهالي الحي لم يخطىء ستنتاج السبب الذي جعل العم عبد الغني يبتلع اهانة زوجته ، ويرضخ لارادتها ، فجمبعهم يعرفون مبلغ حبه لابنته ، ومدى تعلقه بها . والحقيقة ان العطف الواسع كان الى جانبه ، فهو ابن الحي البار الذي يعطف على الصغار ويداعبهم ، ويحترم الكبار ويجاملهم ، ويقوم بواجباته خير قيام ازاء الجميع ، دون استثناء ، وفي الافراح والاتراح . كذلك كان مواظبا على تأدية فروضه الدينية بلا تزمت ، متسامحا جدا في الحدود التي لا تمس كرامته ، وبالاجمال ، كان رجلا صالحا لا غبار عليه .

أما زوجته ، فقد بقيت ابنة الملاك المتعجرفة المتعالية ، واحتفظت بعلاقاتها القديمة مع عائلات الحي السابق الذي هجرته مكرهة تحت ضغط الظروف المادية ، وأجرت بيتها فيه . استمرت تتبادل الزيارات مع العائلات الثرية ، الا انها كانت تزورهم أكثر مما يزورونها ، فالتردد على فردوسها المفقود يروقها ويرضي كبرياءها ، أما استقبال ضيوفها في حينا ، فانه على العكس ، يشعرها بالمهانة والوضاعة ، ويترك في قلبها المدمى مزيدا من الجراح . كانت لا تجد أي حرج في اعلان ضيقها ، وتبرمها وخجلها من الحي ومن أهل الحي ، فتندب حظها العاثر الذي ألقى بها على هذه « المزبلة » بين هؤلاء « النَّور » . وكانت الجارات الطيبات اللواتي شتمتهن ، فوصفتهن بالنَّور ، وشبهت حيهن بالمزبلة ، يستمعن اليها متأثرات لحالها ، ويواسينها بكلمات بريئة تقطر رقة وطيبة ، ويسألن الله ـ أمامها ـ أن يخلصها منهن ، ومن حيهن وأن يعيد اليها مكانتها وعزتها ، وقصرها وقريتها . كن صادقات في مواساتهن لها ، ودعواتهن من أجلها ، الا أنها لم تكن لتزداد الا تبرما وضيقا ، فيزددن بدورهن حرجا على حرج ، ويصمتن مبهوتات كأنهن مسؤولات عن النكبة التي حلت بها .

* * *

انني أستحضر في ذاكرتي هذه التفاصيل ، فأجدها شديدة الوضوح ، نابضة بالحياة ، وكأنها آخر وأهم ما تعلق في ذهني ، فأشعر بالدهشة ، ولكن دهشتي تتضاءل الى حد كبير حين أفكر بخلو ذهني في تلك الايام الغابرة ، الامر الذي يجعل مثل هذه التفاصيل تحتل بسهولة وقوة حيزا امينا ثابتا في الدماغ ، فالذكريات الاولى مثل الخمرة المعتقة ، تزداد توهجا وحضورا كلما مضى عليها الزمن .

لقد بدا أن مشروع الزواج ولد عبر زيارات الأم للحي القديم . تلك الزيارات التي اكثـرت منهـا في الآونـة الاخيرة ، واصطحبت معها نجوى مرة أومرتين . أما التفاصيل التي بدأ النـاس يتنـاقلونهـا ، فلم تكن بمعظمهـا تستند الى مرجع . كانت دائما تستهل باحدى كلمتين . . قيل ، أو يقال .

وقد قيل ـ والله أعلم ـ أن الأم زارت مؤخرا منزل الاقطاعي الذي سلبهم الارض ، وتسبب في موت الجـد . وأن تلك الـزيـارة تحققت عرضا دون سابق تصميم او تعمد ، فقد كانت أم نجـوى عنـد احـدى صديقـاتهـا القـديمات ، ثم توجهتا معا ـ لا ندري لماذا ـ الى البيت ايـاه ، بنـاء على اقـتراح الصـديقـة . وهنـاك التقت ـ مصـادفة ايضا ـ بسيد البيت شخصيا ، فرحب بها أجمل وارق ترحيب ، وأطنب في امتداح شخصها ومنبتها ، وأثنى ثناء عاطـرا على أبيهـا «تغمـده الله برحمتـه ورضـوانه» ثم أشار بمنتهى اللباقة والادب الى «سوء التفاهم» الذي وقع فيما مضى ، الذي أدى الى نتائج مؤسفة لم يكن يرغب وقوعها اطلاقا ، واعترف انه ظل فترة طويلة يتحين فرصة ملائمة لاصلاح ما فسد ، الا أن أباها فوت عليه الفرصة أكثر من مرة «رغم انه كان بمنزلة والده» .

بعـد ذلـك كثـرت الـزيـارات واللقـاءات بالسيـد الكبير ، الذي سألها ذات مرة عن نجـوى أسئلة دقيقـة تتجلى فيهـا روح المودة والحنان الأبوي . وبعد أن استمع الى أجوبتها بمنتهى الاهتمام ، عبرت ملامحه عن الارتياح والرضى ، وقال انه يعتقد بأن «عدالة السماء» قد منحته فرصة أخرى يحقق من خلالها أمنية غالية ، ويعيد المياه الى مجاريها الطبيعية . ثم باغتهـا بطلب يد ابنتهـا الشـابـة لابنـه الشـاب ، قائـلا انـه يكـون بذلـك قد قام بواجبه ، و« تشرّف » بمصاهرة الأسرة النبيلة .

عنـدمـا طارت الأم الى ابنتهـا تزف البشـرى السعيـدة المثـيرة ، فوجئت بها تتضرج بحمرة الغضب لا الخجل . قالت نجوى وقد هالتها حماسة أمها :

ـ أمي . . أليس هو الذي «قتل» جدي ، وسلبه أرضه ؟ .

ولكن من يصدق أن الأم كادت ان تلقي بالتبعة على الجد العجوز ، وهي منهمكة في الـدفـاع عن السيـد الكبـير ، مرددة الأعـذار التي سمعتها منه ؟ . . بل انها ذهبت أبعد من ذلك بكثير :

ـ هو جدك . . ولكنـه أبي قبـل أن يكـون جدك . . هل تحبينه أكثر مني ؟ . . ثم انني وريثتـه . . نعم ، أنـا وريثته الوحيدة ، وأنا وحدي المتضررة بما حدث . . ولكن . . ولكن

ذلـك حدث منـذ وقت بعيـد وانتهى الأمـر . . ثم ما يدريك أنت بمشاكل البيع والشراء ، وتعقيدات ومداخلات القروض والرهونات ؟ . . ماذا تفهمين في مثل هذه الأمور ؟ . .

ـ أمي . .

ـ لا تقـاطعيني . . ما الـذي تريـدين قولـه؟ . . لنفترض انه ارتكب بحقنا اثما فرضته ملابسـات العمـل . . بل لنفـترض انه ارتكبه عامدا متعمدا لخدمة مصالحه . . وجاء اليوم يعتذر . . جاء يكفر عن خطيئته ، ويعرض توبته . . هل نغلق الباب في وجهه ؟ . . ولكن الله نفسه يقبل التوبة ، ولا يغلق باب رحمته في وجه أحد .

ـ الله يقبل التوبة ، ولكنه لا يعيد جدي الى الحياة ، ولا يعيد الأرض الينا . .

جن جنون المرأة الشقية . . خرجت عن طورها، وراحت ترغي وتزبد :

ـ جدك مات لأن أجـله انـتهى . . مات على فراشــه بعــد أن عاش حيــاتــه طولا وعـرضـا . . كان من الممكن ان يمـوت في أيـة لحظـة دون سبب . . هل أطلق عليـه أحـد النـار ؟ . . هل ذبحـه أحـد بسكـين ؟ . . ثم انـه أبي ، وأرضه أرضي . . أظنني قلت لك ذلك . . ما وقع لنا في الماضي هو ارادة الله . . امتحننا لسبب لا يدركه أحد سواه ، وأوصلنا الى مانحن فيـه الآن ، وهـو نفسـه ـ جل جلالـه ـ يتـدخـل اليـوم ليرد اعتبـارنـا ، ويعيـد مكـانتنـا . . فهـل نركل نعمته بقدمنا ؟ . . أخبريني . . من المستفيد بهذا الزواج ؟ . . هل هو ثروت بك الـذي يستطيـع أن يأتي لابنـه بزوجة من أي مكان ، أم أنت التي ستصبحين سيدة القصر والأرض ؟ . . يا ربي . . صحيح أن ذيل السعادة أملس .

* * *

أيـة زوبعـة مجنـونـة عصفت برأس الأم ، وأية هواجس هستيرية أقضت مضجعها ، وأضـرمت النـار في جوفهـا ، فأحـالتهـا الى امرأة هوجاء مدمرة ؟ . كانت مندفعة وراء حلم استعـادة مركـزهـا الضـائـع بقـوة عميـاء يصعب فهمها ، وتستحيل مقاومتها . وقد راحت الألسن تغـزل قصصـا كثـيرة تفسر من خلالها غرابة سلوك الأم . فقيل انها واقعة تحت تأثير شيطـان ملعـون سلطـوه عليهـا بواسطـة السحـر . . وقيل أن روح الجد تقف وراء الموضوع برمته ، وأن أحدا لا يستطيع أن يتكهن بالذي تريده الروح بالضبط . . وقيلت اشياء كثيرة

تتناسب مع غرابة المسألة . . غير أن أقربها الى المنطق ، تلك الرواية الرصينة التي أشارت الى أن الأم ليست سيدة غنية سابقة فحسب ، وانما عاشقة سابقة أيضا ، وأنها كانت ستصبح ذات يوم مضى زوجة لثروت بك نفسه . ولكن الرواية أوضحت أن موضوع الزواج لم يطرق بتاتا من قبل أي كان ، رغم أن الناس تحدثوا به على نطاق واسع . هل فاتحها السيد بالزواج بينه وبينها ؟ . . ام أوحى به ايحاء ؟ . . لا أحد يدري . غير أن المرء لا يستطيع أن يتصور حبا قويا بمعزل عن تأثيرات الطرف الآخر . . همسة رقيقة . . ابتسامة جذابة واعدة . . نظرة حلوة غامضة على الأقل ، اذ لا بد أن المرأة البائسة وقعت تحت تأثير سحر ما ، جعلها تعزف عن الزواج ، وتنتظر سنين طويلة ، واثقة من حتمية النهاية السعيدة ، حتى كاد يفوتها القطار .

اذا صحت هذه الرواية ، فان هوس الأم في تنفيذ مشروع الزواج المثير ، وسلوكها الغريب ازاء زوجها وابنتها ، يصبح مفهوما الى حد كبير . سيدة غنية سابقة ، وعاشقة سابقة في آن واحد ، تأكل الحسرة قلبها ، ويسمم اليأس حياتها ، وفجأة ، على أبواب شتاء العمر ، تجد نفسها وجها لوجه أمام كل ما عشقته وأضاعته . . السيد ، والقصر ، والأرض . . والفرصة تناديها لتدارك ما فاتها بطريقة ما . . لم تحقق حلم حياتها ، وتتزوج فارس أحلامها ، اذن فلتنعم بقربه ، وبمشاهدته وسماع صوته على الأقل . لم تدخل قصر أمانيها العريضة ، اذن فلتدخله الى جانب ابنتها على الأقل . . انها تريد أن تلازم ابنتها كظلها ، وأن تعوض عمرها الضائع من خلال شباب نجوى . . وهل يعيش الانسان مرتين ؟ . . هل يعيش سوى مرة واحدة ؟ . . واذا خسر حياته الواحدة ، فأي بؤس يا الهي ؟ . . أي بؤس ؟ .

استحال بينهما التفاهم ، فقد وجدت نجوى نفسها حيال امرأة لا تعرفها ، فراحت تراقب اندفاعها الأهوج المدمر واجمة قانطة ، مدركة أنها حيال عاصفة تهدد الأسرة الصغيرة بالدمار . وكانت ترنو الى أبيها مشفقة ، يعتصر قلبها الألم ، فتفكر أن الخطر الغامض الذي ذهب بجدها ، قد ظهر اليوم يهدد أباها . وكلما أمعنت في التفكير ، وجدت نفسها مسوقة الى تضحية تخفف من أهوال الشر المستطير ، وتنقذ رأس أبيها .

عندما حان موعد الزفاف ، كانت نجوى ناحلة شاحبة شحوب الموتى ، ولم يكن العم عبد الغني أحسن حالا ، وعندما أزفت ساعة الرحيل ضمها الى صدره ، وبكى بكاء مرا كأنه يودعها الى الأبد . أما الأم فقد كانت تنظر اليه بازدراء من طرف عينها ، وهي منهمكة

في استكمال زينتها ، وانتقاء ابهى حللها . كانت المبتهجة الوحيدة ، غير ان ابتهاجها بدا بوضوح مرضيا ، يثير الاشمئزاز ويبعث القلق ، وينذر بأوخم العواقب .

* * *

انتقلت نجوى الى قصر ثروت الانكشاري ، وأصبحت زوجة لابنه تركي .. أخذها الانكشارية غنيمة سهلة باردة . ويقينا ، لو أن أي رجل رقيق الحال أسعده الحظ بالزواج منها ، لأنفق في ذلك اليوم أكثر مما أنفقوا ، ولاحتفل أكثر مما احتفلوا . فالزواج عند أمثال هؤلاء الأثرياء لا يعدو في حقيقته أحد أمرين ، فهو اما أن يكون مصلحة ، وأما أن يكون بغاء . عندما يفشلون في تحقيق مصلحة ما حيوية .. عندما تمتنع عليهم امرأة ما ، ويفشلون في نيلها ، والاستمتاع بها كسلعة ، عندئذ يلجؤون الى عقد الزواج «الشرعي» ، يموهون به مصالحهم وبغاءهم . أما حجم الانفاق في مثل هذه المناسبات ، فتحدده أسعار « البورصة » .. وكمية العرض .. ونسبة الربح .

أي الحالتين يا ترى كانت تنطبق على نجوى ؟.. هل اعتبروها سلعة ترفيهية ؟.. أم سلعة انتاجية ؟. بما أنها لم تكن من ذلك الصنف المثير للغرائز الشهوانية ، ولا تتوفر فيها مواصفات السلعة اللذيذة الدافئة ، التي لا يستغني السادة عنها في الليالي الطويلة الباردة ، فلا شك أنها تدخل في عداد الصنف الآخر .

ولكن ما هي المصلحة التي يسعى الانكشارية لتحقيقها من خلال العقد «الشرعي» الذي أبرموه «واقتنوا» بموجبه نجوى ؟.. كانت قطعة الأرض المتبقية في حوزة الأسرة الشقية هي الهدف .. لم تكن نجوى أكثر من طعم وضعوه ـ الآن ـ في الشص ليجتذبوا به طريدتهم . وما كانت قطعة الأرض الصغيرة لتستحق كل هذه «التضحية» وكل هذا العناء ، لولا انها أصبحت فجأة ـ بحكم موقعها داخل أراضيهم ـ عائقا منيعا يحول تماما دون تنفيذ مشروع زراعي بالغ الأهمية . لقد درسوا المشكلة فيما بينهم وقلبوها على كافة وجوهها ، فوجدوا أن الحصول على الأرض بالطرق العادية أمر مستحيل بحكم القطيعة المستحكمة بينهم وبين أسرة نجوى . ورأوا أن الوسيلة الوحيدة هي ابرام عقد الزواج ، ومن ثم ابرام عقد الشراء أو التنازل .

ـ ستتزوج يا تركي ابنة عبد الغني حليمة .

بهذه الجملة اختتم ثروت الانكشاري الاجتماع العائلي الذي كان واحداً في سلسلة اجتماعات عقدت للتباحث حول المشروع الزراعي ، وقطعة الأرض الصغيرة التي تحول دون تنفيذه . أما تركي ، الشاب الماجن المستهتر ، الذي كان قد ارتكب حتى ذلك الحين جريمتي قتل (دهس طفلا بسيارته ، وأطلق النار على فلاح لسبب تافه) واغتصب ثلاث فتيات (واحدة منهن ذبحها أخوها حين ظهرت عليها علائم الحمل) . . أما تركي هذا ، فقد استمع الى دوره في الصفقة وعلى شفتيه ابتسامة ذئبية تقطر شهوة وخسة . . ان أحدا لا يعرف بالضبط عدد الصفقات المشابهة التي لعب فيها تركي الانكشاري الدور ذاته ، قبل أن يغرب شبابه .

* * *

سارت الخطة في طريقها المرسوم ، واستطاع كبير الانكشارية اقناع أم نجوى بالمشروع الزراعي دون عناء يذكر ، ودون أن يثير ريبتها ومخاوفها . ألمح اليه كفكرة واتته في الحال ، ثم راح يضحك من الفكرة الخيالية ، ويؤكد استحالة تنفيذها . ولكنه استمر في عرض فوائدها الجمة ، وأشار الى الامكانيات الهائلة التي تسمح بتحقيقها . وعاد فتظاهر باللامبالاة ، وبصرف النظر عنها .

زين لها المشروع تزيينا رائعا ، وجعلها تشعر بعذوبة المشاركة في بحث قضية هامة كهذه ، مع رجل مهم مثله ، فانطلقت تجاريه في تصوراته ، وتزين له بدورها امكانية تنفيذ المشروع بنفس العبارات والاوصاف التي استعملها :

ـ هل أنت جادة يا أم نجوى ؟ . . انها فكرة مستحيلة ، وكنت أحدثك بها من باب التمني العابر ليس الا . .

ـ ولكن ما هي أوجه الاستحالة يا ثروت بك ؟ . . لماذا هي مستحيلة يا ثروت بك ؟ . . انه مشروع سهل على رجل مثلك . . أمد الله في عمرك ، وفاض عليك من نعمه .

فأطرق الرجل مليا بوقار قاض يستعد لاصدار حكم هام ، ثم رفع رأسه وقال :

ـ اذن سأفكر جديا بالأمر . سأفكر . أعدك بذلك يا أم نجوى . . من يدري . . لعلك مصيبة في اقتراحك . . ولعل الله هو الذي ألهمك وانطقك . . اياك يا أم نجوى ان

تخطئي فتتصوري الخبرة كل شيء . . اوأن المال كل شيء . . أبدا . . الهام الله هو الاساس ، وما أكثر الذين تخونهم خبراتهم وأموالهم ، فينقذهم الهام الله . .

دخل في روع المرأة أنها صاحبة الفكرة ، وأن المشروع اذا ما قدرت له رؤية النور فسيكون الفضل ـ بالدرجة الاولى ـ لجهودها في اقناع الانكشاري . فبعد أن استحوذت عليها تطلعات لا عقلانية ، غدا مجمل تفكيرها وسلوكها لا عقلانيا . كانت تتوهم أنها استردت اعتبارها ومكانتها ، وقد أسهمت أحاديث ونوادر السيد الكبير اسهاما كبيرا في تغذية أوهامها . وعندما أبلغها - فيما بعد ـ اقتناعه ، وتصميمه على تنفيذ المشروع ، طاش صوابها زهوا وسعادة وتأثرا ، وانتابتها مشاعر من حقق حلم حياته ، ونال أقصى مآربه .

* * *

لقد تتالت الأحداث مسرعة فيما بعد . . سمعنا أن الوالدة تنازلت لابنتها عن ملكية قطعة الأرض الصغيرة ، ولكننا لم نعرف كيف حدث ذلك . ثم سمعنا ان نجوى انتقلت الى منزل ريفي ، وأنها أصبحت تعيش هناك ، وبدأت تتوارد أخبار شتى عن حياتها ، وأنها تسام صنوف العذاب والهوان . وتناقل الناس قصصا مفادها ان الانكشاري الصغير يمارس ضروب المجون والفجور ، فيحضر الراقصات والمغنيات من حلب وبيروت ، ويقيم الليالي الحمراء في ذلك المنزل الريفي ، بينما نجوى سجينة طوال الوقت في غرفة جانبية حقيرة . وقيل انه صار يضربها في المدة الاخيرة ضربا مبرحا ، وأن هناك خطة لقتلها ، ومن ثم اظهار الحادث وكأنه وقع قضاء وقدرا . كذلك قيل أن أمها منعت من رؤيتها ، وأنها لم تعد تقابل السيد الكبير أيضا ، وتتعرض لمضايقات مهينة من الخدم . وبالفعل فقد رأيناها تعود ذات يوم الى حيّنا ذليلة محطمة ، فتنزوي في بيتها ، وتلزم فراشها أقل من شهر ، ثم تموت صامتة ، معتلة الصحة ، دامعة العين ، وفي فترة مرضها القصيرة ، تناوبت نسوة الحي على خدمتها على أكمل وجه ، وعندما أسلمت الروح بكينها بصدق وسخاء .

أما العم عبد الغني ، فقد انصرف بعد ذلك الى تتبع أخبار ابنته بهمة ونشاط ، وبقي زمنا طويلا يروح ويجيء صامتا ، دون أن يشرك احدا في جهوده وهمومه . ولكنه ناداني ذات مساء ، وطلب الي مرافقته لاحضار نجوى ، وأبلغني باختصار أنه حصل على طلاقها «وباعهم» قطعة الأرض . ولم أفهم ضرورة مرافقتي أياه الا حين أخبرني بصوت متهدج تخنقه العبرات : «انها مريضة يا بني . . مريضة جدا» وقد تصورت مسبقا أن أجدها في أسوأ حالات المرض ، الا أنني لم أتصور مطلقا رؤيتها مشلولة الساقين مقعدة .



الأيام التالية

٥ ـ لقاء بلا شهود ؟

وصلت الى مركز عملي وأنا لا أزال تحت التأثير الصاعق للقاء العيادة . تأخرت قليلا عن الموعد ، فوجدت الجميع في انتظاري . واستلمني البلاف قبل أن ألقي بالتحية :

ـ استعدوا . . وصل مارشال السلاح المدرع سعد أمين .

صافحت الرجلين ، وتوجهت الى أحد المقاعد ، فجلس البلاف الى جانبي ، ووضع ذراعه على كتفي ، واستمر يتحدث ويضحك :

ـ أتدرون ؟ . . كل الناس يهربون الى الجيش . أما مارشالنا العظيم فقد هرب من الجيش . . أليس المعروف أن الضباط يطردون طردا ؟ . . هذا هو ما نعرفه ونسمع به . . اذن فاعلموا أن صاحبنا استقال استقالة . . ألا تصدقون ؟ . . اقسم بشرفي أن هذا ما فعله . . وهو لا يحب الوساطة . . أنا أشهد له بذلك . . لكنه توسط شخصية كبيرة ليضمن قبول استقالته . .

همست في أذنه :

ـ هذا يكفي . . لا تكن سخيفا .

فضغط على عنقي بذراعه ، وقال هامسا بدوره :

ـ سخيفا ؟ . . يا ثعلب الصحراء . . يا ذئب . . قل لي . . ماذا تفعل من وراء ظهري ؟ . . أجب ؟ . . سألت عنك قبل قليل فتاة رائعة النبرات ، فمن هي ؟ . . اعترف . . هل هي جميلة ، ورائعة مثل نبراتها ؟ . .

عدت أقول له همسا :

ـ أنت سخيف ، ومخبول .

ـ مخبول ؟ . .

رفع صوته متحدثا الى الرجلين :

ـ كنت أقول له كلما التقينا : ارم سعد . . ارم سعد فداك أبي وأمي ، واذا به يرتمي خارج الجيش . . فاجأني وقد انتهى كل شيء ، فتبخرت أحلامي عن قادسية جديدة .

ابتسم كل من الـرجلين ابتسـامـة متحفظـة مجاملة ، واستقـرت نظراتهما علي تتوقعان جوابا او تعليقا ، فلما شاهدا عدم اكترائي ، تبادلا نظرتين سريعتين ثم بدأ أحدهما الحديث وهو يطفىء لفافته :

ـ اذا سمحتم لي أن أعلق عل الموضوع ـ واعترف أنه موضوع مثير ـ فانني أقول بأن خطوة الاستاذ سعد تنم عن ذكاء وبعد نظر . . .

توقف لحظة ريثما أشعل لفافة جديدة ، وبعد أن تأملني قليلا ، تابع موجها حديثه الي :

ـ كنت معجبا بكم من بعيد . . من خلال تتبعي لكتاباتكم . . أما الآن . . أما بعد أن استمعت الى ما رواه الاستـاذ عارف من اخبـاركم – وأعترف مرة ثانية أنها أخبار مثيرة ـ فقد ازددت بكم اعجابا : .

عاد فتوقف عن الحديث ، وألقى برماد لفافته في المنفضة متأنيا ، ثم راح يراقب وقع كلماته في وجهي ، وبعد ذلك أردف ببطء وكأنه يجد الكلمات بصعوبة :

ـ أنـا شخصيـا ـ اذا سمحتم لي أن أعطي رأيي ـ لا أحب القيـود . . لا الجيش ولا سواه . . أنا مع العمل الحر ، وضد أي التزام محدد . . هذا رأي شخصي على أية حال ، ويبقى لكل مزاجه .

نفث دخـان لفـافتـه بعيـدا ، ثم استدار نحوي . كان بلا عنق ، وأنى توجه بنظراته تتجه جثته الضخمة كلها ، كقطعة واحدة بلا مفاصل .

قلت وأنا أتأمل أزرار قميصه الذهبية :

ـ ولكنك ملتزم بما ذكرت على أية حال .

أجاب غانم ذهب الارض بسرعة وهو يبتسم :

ـ ملتـزم بشكـل عام ، وحـر . . أنا لم أقل أنني ضد الالتزام من حيث المبدأ . . قلت أنني ضد أي التزام محدد .

رحت أتأمـل الـرجـل «الملتـزم بشكـل عام ، وحر» . . غانم ذهب الارض . . أحد الجنـود المتطـوعـين في الجيش النـازي ابـان المذبحة العالمية الثانية . . عمل الى جانب هتلر كمحارب ، وكجاسوس ايضا . . نعم . . لقد تسنى لي أن اعرف عنه الكثير خلال وجودي

في الجيش . . كان يتنقل في عداد القوات النازية بين المانيا وتشيكوسلوفاكيا واليونان . . وكان والده يتآمر على الحركة الوطنية في سورية ولبنان ، لحساب الفرنسيين تارة ، ولحساب الانكليز تارة أخرى ، غير أن هذا لم يمنعه من اللحاق بركب الاستقلال فيما بعد . . أما غانم ، فقد انتقل الى القوات الاميركية ، وخاض الحرب الكورية الى جانبها ، كمراسل حربي لاحدى الصحف التي تصدر في واشنطن . . انتقل من خدمة كروب الى خدمة روكفلر . . واستقر به المطاف أخيراً بين دمشق وبيروت ، كوكيل اقليمي لاحدى الشركات العالمية . . أي نعم . . ولم الدهشة ؟ . . هل هناك من يعتقد أن العرب كانوا دائما على الهامش ؟ . . وان لورانس شخص فريد لا تجود بمثله سوى بريطانيا ؟ . . كلا . . كان منا دائما مقاتلون في كافة أنحاء العالم . . مع من كانوا يقاتلون ، وضد من ؟ . . لا أعتقد أن من اللياقة توجيه مثل هذا السؤال الى رجال عرضوا حياتهم للخطر . . يجب علينا أن نقدس البطولة بحد ذاتها فحسب .

قلت له وأنا أفكر بالمصادفة التي جمعتني به ، وأشير الى صهره الذي يجلس بجانبه صامتا :

ـ ولكن ما رأيك بالموضوعات التي ينشرها الدكتور حول الثورة والاقتصاد السياسي ؟ . . هل أنت ملتزم بها ، أم لا ؟ .

فاستمر لحظة في حالة الاستماع التي كان عليها ، ثم وضع يده على كتف صهره الدكتور نبيل صادق ، الذي هم بالكلام ، وعاجله بنظرة ظاهرها الاعجاب الأبوي ، وبعد أن نفث دخان لفافته بعيدا كعادته ، وبحركة تنم عن ذوق رفيع قال :

ـ لا أكتمك القول أنني لا أؤمن بما يقول به . . لنقل بأكثر ما يقول به ، فهذا أدق وأصح . . ولكني لا أؤمن بمنعه من ابداء رأيه ، ولا يمكن أن أحاربه بسبب قناعاته . . أنا رجل ديمقراطي . . وهكذا ، فأنت ترانا معا مثل السمن والعسل ، وليس هناك من هما أكثر منا انسجاما . . ليس لأنه صهري وولدي . . أبدا . . يخطىء من يتصور أن انسجامنا عائلي فحسب . . . السبب هو أنني ديمقراطي رحب الصدر ، أحترم الحوار والاقناع ، وأؤمن من أن وجهة النظر ـ اية وجهة نظر ـ قادرة عن طريق الحوار والاقناع أن تحتل المكانة التي تستحقها . . .

كان مفتونا ببلاغته وديمقراطيته ، وبحسن عرضه لوجهة نظره . وكانت النشوة قد أكسبت وجهه حمرة قانية ، وعينيه اتقادا براقا . . غانم ذهب الارض . . ياله من اسم . .

وما ذكرته عن ماضيه ليس سوى معلومات قديمة جدا تذكرها حتى الآن قلة قليلة من الناس وتطرحها من قبيل التندر والتسلية . لقد تطور كثيرا ، ولم يعد ذلك الجندي المرتزق الذي قاتل في الجيش الألماني والجيش الأميركي . لقد أصبح أحد الشخصيات التجارية المرموقة ، وأحد الوجوه الاجتماعية اللامعة التي تتناقل أخبارها صحف بيروت . وهو كذلك أحد أبرز المساهمين في الجمعيات الخيرية ، وفي تشجيع الحركات الوطنية أيضا . لقد أغناه الله عن الارتزاق والمخاطرة بحياته في الحروب ، فرزقه ما لا يحصى من الأموال ، بالاضافة الى مجموعة أنيقة من العمارات . انفتحت في وجهه أبواب التجارة على مصاريعها ـ وهي مهنة مباركة ـ فراح يغرف منها دون أن ينسى لحظة واحدة حمد الله وشكره على نعمه ، وعلى الرزق الذي يهبه لمن يشاء بغير حساب .

هناك مصادر أخرى لأرباح غانم ذهب الأرض ، تقتضيني الأمانة أن أشير اليها انما بتحفظ شديد . وأنا أسارع سلفا فأقول أنني أجهل مدى مشروعية هذه الأرباح ، باعتباري لست فقيها . لقد تناقلت الصحف البيروتية أخبارا مفادها أن بعض الأجانب يحضرون الى بيروت ، ويشترون بواسطة بعض السماسرة بطاقات وكالة الغوث من اللاجئين الفلسطينيين ، ويدفعون بها أسعارا عالية ، وقد ورد اسم ذهب الأرض مرة واحدة في عداد هؤلاء السماسرة ، ويتوجب علي أن أضيف بأن الصحيفة التي نشرت الاسم ، اعتذرت فيما بعد ، وقالت أنه ورد خطأ . كذلك ألمحت الأخبار الى أن الأجانب اياهم يشترون ـ عن طريق الوسطاء أنفسهم ـ تنازلات عن عقارات مسلوبة ، وأراض محتلة . وأشارت الأخبار كذلك الى أجانب آخرين يدفعون بسخاء من أجل ايواء اللاجئين الفلسطينيين المشردين ، وايجاد اوطان جديدة لهم في أوستراليا ، أوكندا ، أوبلدان أميركا اللاتينية . ولما كان الفلسطينيون يجهلون مصلحتهم بحكم تخلفهم ، فيرفضون بعناد غبي مثل هذه النعم ، فان دور السماسرة في اقناعهم بلغة عربية سليمة ، يغدو عملا انسانيا لا يقدر بثمن ، والدال على الخير مثل فاعله . لقد ورد اسم ذهب الأرض أيضا ، في عداد هؤلاء الرجال الأخيار .

كان لا يزال يتحدث الي ، وقد سمعته يقول :

ـ . . أنت مثلا . . أنت صاحب وجهة نظر سعدت بالاطلاع عليها ، وأعجبت بك من خلالها . . نعم ، أعجبت بك . . قلتها لك من قبل ، وأقولها لك الآن . غير أني لست مقتنعا بها ، وهذا شأن آخر ، فالاعجاب ليس دائما وليد الاقتناع . .

لقـد سمعت منـذ فترة أن السيـد ذهب الأرض وسـع أعـاله لتشمل سوق الصحافة والكتب ولا أظن مثـل هذا الاتجـاه غريبـا على رجـل مارس الصحـافـة في ساحة الحرب ، وعرض نفسه للموت في أدغال كوريا ، حباً بالكلمة ، وولعا بالخبر ، والسبق الصحفي .

انتبهت اليه وهو يقول مواصلا حديثه :

ـ . . . أعجبتني شجـاعتـك . . أعجبني حسن دفـاعـك عن وجهـة نظرك ، فقد كان دفاعا محكما والحق يقال . وقلت لنفسي في الحال : اذا التقيت بهذا الشاب ، فسأقترح عليه قبـول ما أستطيـع تقـديمـه من مسـاعدة تمكنه من عرض وجهة نظره بأفضل وسيلة ، وعلى أوسـع نطـاق ممكن . . انني أكـون بذلـك قد انسجمت مع ذاتي ، وبـرهنت عن تعلقي بمبادئي . ولذلك تراني جئتك زائرا هنا .

لقد فوجئت بغانم ذهب الأرض مؤخرا في عداد المستمعين الى احدى المحاضرات . أقول فوجئت ، لأني لم أكن أتوقع بالفعل ، هذ التواضع الكبير من الرجل الكبير . وما كان أعظم دهشتي حين جاءت فرصـة مواتيـة ، فقـدم لي نفسـه بأدب جم ، وامتـدح بعض الكتـابـات التي نشـرتهـا هنـا وهنـاك ، وألح على مقابلتي بغرض التباحث في بعض الأعمال الأدبيـة والصحفيـة ، ومن أجـل مزيد من التعارف بين رجلين يخدمان نفس القضية «قضية الكلمـة والفكـر» هكـذا أسماها . وكنت أهم بالاعتذار حين تدخل البلاف الذي كان يقف معنا ، وحدد موعدا للقاء ، وانتهى الأمر . وها هو الآن أمامي بلحمه وشحمه ، والى جانبه زوج ابنتـه ، خريـج احـدى الجـامعات الأميركية الذي يدبج المقالات بدأب واستمرار عن الثورة ، وعن الاقتصاد السياسي .

حاول الـدكتـور نبيـل صادق أن يضيف شيئـا ، ولكن ذهب الأرض وضـع يده على كتفـه ، وعـاجله بنظـرة أبـويـة أخـرى ، لجمتـه تمامـا ، وجعلتـه يتهالك بائسا مستسلما في مقعده ، ثم التفت الي مبتسما ، متصنعا أرقى حالات الانتباه والانصات .

كنت أرى الموقف أمـامي واضحـا كل الـوضـوح . لكنـه لم يطـرح شيئا محددا حتى الآن . واذا كان قد أشـار في حديثـه الى رغبتـه في تقديم ما يستطيع من مساعدة ، فان هذه الاشـارة بقيت في نطـاق المجـاملات التي يتقنها الرجال المهذبون ، دون أن ترتب عليهم أي التزام ، مادي أو معنوي . انك لا تستطيع أن تلزم أمثال هؤلاء الناس بشيء ، عن طريق الحـوار الـذي يؤمنـون به ، ولذلك هم يعشقونه ويقدسونه : «دعنا نتحدث بهدوء . . دعنا نتحـاور برويـة . . . وسنسفـك دمنـا لكي نمكنك من ابداء رأيك» . هكذا يقولون لك ،

فبماذا تجيبهم ؟ . اذا كنت غرا بريئاً فسيتقرر مصيرك كمصير الفراشات . . ستجد نفسك مسلوب الارادة ، تلبي نداء جنيات البحر حتى الدمار فاما أن ينتهي بك الحوار الديمقراطي الى توقيع عقد عمل ذهبي ، واما الى مدمن حفلات وحوارات ، وصالونات . . رجل في جوقة . . رقم في قائمة . . . صورة طريفة على جدار فير وزي اللون . . تتسول كلمة مجاملة توهمك باعتبارك ، وسواء سلكت طريق العقد الذهبي ، أم الجدار الفير وزي والقدح الفضي ، فانك ستكون بسلوكك قد ضمنت مستقبلك وأصبحت قوادا كبيرا في ميدان العهر السياسي والفكري ، أو بوابا حقيرا يحني رأسه للداخل والخارج .

وكان البلاف في حالة نادرة من حالات الانتباه . وقد رأيت في جديته وصمته الدليل القاطع على أهمية اللقاء في نظره . واذا كان البلاف يجيد صناعة الحديث الهازل ، فانه أيضا ، وبنفس القدر من البراعة ، يتقن صناعة الصمت الجاد المستوعب . وها هو الآن يتابع الموقف حابسا أنفاسه ، مؤملا أن تجري الرياح كما تشتهي سفنه ، رغم نذر العاصفة التي تتجمع في سماء الغرفة .

تحولت الى غانم ذهب الارض ، وقلت :

ـ أجدني ملزما أن أشكرك على تلطفك بزيارتنا . .

أحنى رأسه مبتسماً ، فتابعت :

ـ . . ويسعدني أن أحظى باعجابك ، وباهتمامك الذي لم أكن أتصوره ميسورا الى هذه الدرجة . . ولا أكتمك أن اهتمامك أدهشني ، بقدرما اسعدني ، رغم أني أفهم تماما شغفك بالديمقراطية . .

زم عينيه ، وغضن جبينه للحظة واحدة فقط ، ثم عاد كل شيء الى حالته الطبيعية . وعدت أقول :

ـ أظنك المحت في حديثك الى رغبتك بمساعدتي ، وسواء . .

فرفع يده معترضا ، وقاطعني بسرعة قائلا :

ـ لم ألمح الى شيء ، ولم اقدم عرضا . . عبرت عن المشاعر التي راودتني وأنا أقرأ كتاباتك . .

قلت :

ـ حسنا . . انها اذن مجرد مشاعر .

فلم يأبه لكلماتي ، واسترسل في حديثه :

ـ كنت وقتئـذ مأخـوذا بطـريقتـك ، واعترف ، نعم اعترف فأنا رجل صريح ، أنك اسرتني بعض الوقت ، ولكني لست مقتنعا بكل أفكارك . . أظنني قلت هذا قبل قليل . . ولماذا المواربة ؟ . . أنا رجل صريح ومستقيم ، ولدي من الجرأة ما يكفي لأعبر عن رأيي . . انني يا صاحبي ـ مع احترامي العميق لشخصكَ ـ ضد أكثر أفكارك . .

أجـال بصـره فينـا جميعا مستطلعا آثار صراحته ، ثم تابع كلامه بسرعة كي لا يعطيني فرصة مواصلة حديثي :

ـ نعم ، أنـا ضد أكثـر أفكـارك ، ولذلك أرى أن من الأفضل توضيح موقفي سلفا ، تجنبـا للتأويـلات الخـاطئـة . . أنـا شخصيـا ، لا أسمح لوجهة نظري أن تقودني الى حلبة الصراع الدموي . . بل ولا حتى الى حلبة ملاكمة . . أنا أقول لك ولغيرك : دعنا نتعايش يا صديقي ، ونتجنب المجازر التي تتنافى مع روح العصر . . ان على أصحاب الأفكار جميعا أن يتفقـوا ، وأن يدعـوا الديمقراطية تحسم فيما بينهم . . ان أفكارنا لا تعيش ولا تنمو بدون بعضها البعض . . ما رأيك ؟ . . أليس هذا منطقا علميا ؟ . . أليس هذا منطقا دياليكتيكيا ؟ . .

قهقه بشدة وفظاظة ، وأردف بصعوبة وهو يضع يده على موقع قلبه :

ـ أعذرني لمقاطعتك . . . . تفضل . أكمل حديثك أرجوك . .

قلت متابعا من حيث قاطعني ، متعمدا تجاهل كل ما قاله :

ـ . . وسـواء أكـانت رغبتـك بالمسـاعدة لا تعدو شعورا عفويا تبخر بعد قراءة المقال او كانت تصميما لا يزال قائما ـ وهذا ما نفيته ـ فان هذه الرغبة تنضح بالاثارة ، رغم أنها مفهومة تماما بالنسبة لي ، ورغم أنني أدرك دوافعها بعمق . .

ـ دوافعها؟ . .

اضطرب قليلا ، ثم استرد هدوءه ، وعقد ذراعيه فوق صدره ، وسألني :

ـ حسنا . . هات أخبرنا ما هي دوافعها ؟

قلت :

ـ عرضت دوافعهـا بنفسـك ، انـما بطـريقة الحديث التي تفضلها . أما أنا فأتصورها بشكل آخر . . أنت ـ بلا أدنى ريب ـ تتمتع بموهبة تثمين الأشياء والأفكار . .

ـ والأشخاص أيضا . . أنت رجل يثير الاعجاب .

ـ هذا لطف منك . . فأنت لا يسترعي انتباهك الا ما يستحق الانتباه فعلا ، وهذه

الموهبة ترقى عندك احيانا الى درجة التنبوء .

ـ جميـل جدا ، ولكنـك أخجلتني بهذا الاطراء ، وحبذا لو أعطيتنا مثلا يجعل مديحك أكثر من مجرد مجاملة . . سأعتز كثيرا بشهادة رجل مثلك . .

ـ أنـا لا أجـاملك في الـواقـع . . وسأعطيـك مثـالا يؤ كـد ذلك فيما لو منحتني فرصة استكمال حديثي دون مقاطعة . . أنت تقرأ مقالا ما ، فتقول لنفسك أن هذه شرارة . . ان هذا مشروع حريق هائل . وكيف يتصرف أي امرء ازاء مشروع حريق ؟ . . ان أول ما يفكر به هو محاصرة النيران وعزلها ، ومن ثم اخمادها . .

ـ هذا تحليل صحيح بالفعل ، وهو ينطبق على مصنع ، أو متجر ، أو بيت . . أليس كذلك ؟ .

ـ وينطبق على المجتمع أيضا . . ولكن اسمح لي أن أتابع وصف الحريق أولا . . . ان اخماد النيران بعد تطويقها يصبح ضربا من التسلية العنيفة . . فالنيران المحاصرة لم تعد تسبب أي هاجس ، ولم تعـد تشكـل أي خطـر . غير أنني أود أن أؤ كـد ضحـالـة مثل هذا التفكـير ، عنـدمـا يتعلق الأمـر بالحـرائق الاجتـماعيـة . . أنتم هنـا تحاصـرون الشـرارة ، وتتصـورونهـا جهـود أفـراد ، وتعتقـدون أن هؤ لاء الأفـراد هم خصـومكم ، وأن تطويقهم واخمـادهم يحل المشكلة . . ها هنـا تبر ز الضحالة ، ويتجلى الوهم فهؤ لاء ليسوا أكثر من مقـدمـة لثـورة بركـان . . تستطيعـون بالتأكيـد محاصـرة واخمـاد مثل هذه الشظايا الملتهبة ، ولكنكم لا تكونون بعملكم هذا أرقى ذهنا من النعامة . .

التفت الى البلاف ، وسأله متهكما ، وعلى شفتيه ظل ابتسامة صفراء :

ـ ما هذا ؟ . . هل هي أحجية ؟ . . أنا لم أفهم شيئاً من هذه الحكاية .

كان البـلاف حزينـا بكـل ما في الكلمـة من معنى ، وقـد لمحته أكثر من مرة ينظر الي متوسلا ، وعندما وجه اليه غانم ذهب الأرض الحديث ، تجاهله ، وتشاغل بيديه . أما أنا فقد كنت مصمما على متابعة حديثي الى نهايته . قلت :

ـ لا ، انهـا ليست أحجيـة . . انهـا تفسـير حديثـك ودوافعك . . لقد قلت أن على أصحـاب الفكـر جميعـا أن يتعـايشـوا ، وأن يتفقـوا ، وأؤ كـد لك ـ يا صديقي ـ أن اتفـاق أصحاب الفكر لن يبدل في واقع الحال شيئا . . اتفاقي معك قولا أو عملا لن يفيدك ، فأنا لا شيء بدون أهلي ، ولا أكون شيئا الا اذا كنت جزءا منهم ، فاما أن أربط مصيري بك ، واما أن أربطـه بمصـيرهم . . أنـا لا أستطيـع أن أفعـل من أجلك شيئـا . . هذا ما أود

تأكيـده . . وحتى لورغبت في الانصـراف لخدمتـك ـ ومن يدري فقـد أفعل ـ فاني أكون قد راهنت على قضية أعلم مسبقا أنها خاسرة . .

قاطعني بلهجة عدائية ، حاول ان يخفيها بالضحك :

ـ خاسرة بالطبع . . حتمية التاريخ تجعلها خاسرة . . أليس كذلك ؟

وحـاول الـدكتـور نبيـل صادق أن يقول شيئا ، فأرداه هذه المرة بنظرة مسمومة تنضح بالاحتقار . لقد بدأ يكشف شخصيته كمحارب في الجيشين ، النازي والأميركي . . استفز المحارب القديم ، وها هو يحرك ذراعيه كقاتل محترف يتفقد سلاحه ، ويحرك قدميه كمرتزق يهم أن يدوس في بطن أسير فيتنامي . تابعت دون أن أعير ملاحظته وحركاته اهتماما :

ـ أنت تكـره حلبـات الصـراع الـدمـوي ، وتريد أن تتجنبها . . أليس كذلك ؟ . . ولكن الـدمـاء تسفـك الآن . . تسفـك كل يوم ، وفي كل مكـان . . الا ترى أن الأمـة بمجمـوعهـا تنـزف دمـا ؟ . . اذن كيف نتجنب مأسـاة قائمة ؟ . . أليس الصحيح أن علينا ايقاف سفك الدماء ، ووضع لحد للسكاكين التي تعمل في جسم الأمة تشويها وتقطيعا ؟ . . أم أن الدماء موجودة في القصور ، وخارجها لا يوجد غير الماء ؟ . .

صاح وهو يتلفت حوله ، كمن يتوقع تأييدا من الجميع :

ـ أيـة مبـالغـات هذه ، وأي تهويـل هذا ؟ . . سكـاكين ، ودماء ، وبراكين . . أين تخيلت كل هذه الأشياء ؟ . .

خفف من حدة صوته ، وأردف :

ـ لا تؤاخذني اذا قلت أني أتعرف فيك الآن على خصلة جديدة ما كنت أتوقعها . . أنت خصب المخيلة . .

دخل صبي يحمل الينا القهوة ، فصمت لحظة متشاغلا بالنظر اليه ، ثم استعاد دماثته وابتسامته فجأة ، واضاف وهو يتناول فنجانه :

ـ ولكن خصـوبـة المخيلة صفـة بارزة من صفـات الأديب النـاجح . . انها علامة في صالحك على أية حال . .

ابتسم باشـراق ، وراح يرتشف قهـوتـه بهدوء وصمت . كان دخول الصبي قد منحه فرصـة تغيـير الجـو ، وتبـديل مجرى الحديث ، وأدركت انه لا يريد أن ينتهي بنا المطاف الى طرق مسدودة ، وأنه يستطيع ابتلاع أية اهانة طالما بقيت لدى خصمه الرغبة بمتابعة الحوار في لقـاء لا شهـود عليـه ، فعندما تغيب الملائكة يخلو الجو للشياطين ، ولأن الماء لا يوضع في

السلال ، والهواء لا يقيم في القرب المثقوبة ، والاهانة ليست اهانة في نظر السيد ذهب الأرض اذا كانت بلا شهود ، وداخل غرفة ضيقة أحكم اغلاق بابها . وكنت أعرف أنني مرغم على الحوار في لقاء غريب يجب أن لا ينتهي الى أية نتيجة ، ولذلك فقد قررت أن يكون الأول والأخير ، ومن يتخذ مثل هذا القرار لا يطرح موضوعات لها بقية تأتي . ولكن المسألة لم تكن على هذا القدر من البساطة . لقد أدركت كم هي صعبة ومعقدة وأنا أرى البلاف يتمسح بالضيف الكبير ، ويلاطفه ويتودد اليه في محاولة واضحة ومبتذلة يهدف من ورائها الى غسل ذنوبي الصبيانية . كان البلاف قد أخذ على عاتقه تبديد الجو المتوتر الذي خلفته الفاظي الجارحة ، فاستنجد بأخبار الأدباء ، وراح يروي قصصا طريفة عن مبالغاتهم وخصوبة مخيلاتهم . وقال أخيرا وهو يضحك :

- تلك هي حالهم يا غانم بك .

فأمن الضيف على كلامه بوقار :

- أجل ، من يعاشرهم يتوجب عليه احتمال قارص كلامهم ، وغرابة أطوارهم .

صحيح أنني لم أكن معنيا مباشرة بالحديث ، وأنهما لم يشيرا أبدا الى ما دار بيننا من حوار ، ولكن الغمز من قناتي كان جليا ، ولعل البلاف لم يتعمد الاساءة الي ، وانساق دونما قصد في هذا الاتجاه . أما غانم ذهب الأرض ، فقد كانت قسمات وجهه تعبر عن رضاه واستيعابه لحقيقة الموقف . ولم تكن الاساءة - بالنسبة لي - كامنة في التلميح الى شذوذي كأديب كبير ، كلا ، وانما كانت تكمن في مقارنتي بالأدباء الكبار ، وفيما تتضمنه مثل هذه المقارنة من استهزاء وسخرية لا حدود لها . ومن حسن الحظ أن البلاف توقف فجأة عن سرد نوادره ، وكأنه انتبه الى أن ضيفنا يستثمرها بخبث ولؤم . وقد لاحظ غانم دهب الأرض توقفه المفاجيء هذا ، فتبدلت سحنته ، واعتراه اضطراب خفيف . لعله فكر في أنه أوشك أن يخطيء في تقدير قيمتنا ، وفيما كان سيترتب على استرساله في الخطأ من نتائج تؤدي الى طرق مسدودة .

لاذ البلاف بالصمت متشاغلا ببعض الأوراق . كان محتاجا - على الارجح - للحظة من الصمت . أما أنا . فقد كنت أراقب الرجلين بهدوء وأناة ، وأفكر بأن البلاف لا يعقل أن يتخلى عن فرصته التي جاءت بها هذه الزيارة الهامة ، ولكنه يريدها فرصة حقيقية وثمينة ، وليس من شك في أن ذلك يقتضيه الظهور بشكل لائق أمام الزائر المهم ، فالصفقة الكبيرة يعقدها رجال كبار ، وأعتقد أن هذا ما جعله ينتبه الى خطورة الانسياق وراء نوادره

الطريفة . وخيل الي أن غانم دهب الأرض يعاني احساس من هزم بغتة وهو يظن أنه أحرز النصر ، فتزايدت رغبتي في تقويض الشرك اللزج قبل أن يستكمل بناء ذاته ، وعولت على غفلتـه التي رأيتهـا مقتـلا منـاسبـا ، أصـوب اليـه سهمي قبـل أن يتحرك الوحش ، ويغير وضعيتـه ، فيفلت مني ، وتضيـع الفرصة ربما الى الابد . ولكنه سبقني الى الحديث ، فقد قال وهو يضع الفنجان فارغا على المنضدة :

ـ انها قهوة جيدة . . لا أستطيـع احصـاء عدد الفنـاجين التي أتناولها يوميا ، ولكني استمتع كل مرة بمذاقها على نحو مختلف . . ما رأيكم ؟ . .

أشعـل عود ثقـاب ، وتـركـه يحترق دون أن يشعـل اللفافة التي وضعها بين شفتيه ، وبقي هكذا يتطلع الي مبتسما ، وينتظر تعليقي . قلت :

ـ أنت مدخن من الطراز الاول ، ولا استطيع أن أحكم مثلك على مذاق القهوة .

فقال بعد أن أشعل لفافته :

ـ صحيح . . أنا أحرق يوميا عددا كبيرا من اللفافات . .

ثم أردف على الفور ضاحكا :

ـ أنا أعترف بوقوع هذه الحرائق فحسب .

توجـه بجملتـه هذه الى البـلاف . واذن ، فهـو يريـد استعـادة حديث النـوادر والطرائف . ولكن البلاف لم يستجب لمحاولته ، واكتفى بابتسامة مهذبة مجاملة ، لم يكن لها أي وقـع حسن ـ كما لاحظت ـ في نفس الضيف العـزيـز . أما أنا فقد تمسكت بهذه الذريعة الواهية ، وقررت أن أنطلق منها الى ما أريد . قلت بلهجة عادية مهذبة ، الا أنها خالية من المودة .

ـ الكرنتينا ؟

ـ نعم ، ألا تعرفها ؟ . . أنا أعرف أوضاع الديمقراطيات الغربية ، ولكني أعرف أوضاع الكرنتينا أيضا .

ـ وماذا يعني ذلك ؟

ـ عجبا ، هل ما أقوله الآن أحجية ايضا ؟ . . دعنا من الحرائق الرمزية الاجتماعية ، فلعلها مجرد نتاج مخيلة خصبة . . ولكن ما رأيك بحرائق الكرنتينا ؟ .

ـ انهـا مؤلـمة . . ولكني لست مسؤولا عنهـا ، في حدود معلوماتي . . ولم أدع الى اية

محكمة حتى الآن بتهمة اشعال حريق .

- ولم لا تكون مسؤولا عنها ؟ . . أم أنك لا تعترف بغير شارع الحمراء ؟ . . تعال نتحاور قليلا بالطريقة التي تفضلها وتحبها ، وتؤمن بها . . الا ترى معي في البداية ، أن تلك الحرائق مفتعلة ؟ . . أجبني أرجوك .

- يعتقد الكثيرون انها مفتعلة .

- أريد رأيك شخصيا . . .

فتململ قليلا ، ثم قال وهو يتصنع الابتسام واللامبالاة :

- يبدو أنها مفتعلة .

فقلت مشددا عليه الحصار :

- لماذا لا تريد أن تقطع برأي ؟ . . لقد أوردت الصحف من الوقائع ما يؤكد افتعالها .

- انها مفتعلة يا سيدي . . وماذا بعد ذلك ؟

- بعد ذلك ، سنحاول أن نتعرف معا على المسؤول . . وسنبدا بأصحاب الأكواخ المحترقة في الكرنتينا . . هل تعتقد أن لهؤلاء الفقراء مصلحة ما في احراق اكواخهم بين يوم وآخر ؟ .

فازداد تململا ، وقال بنفاذ صبر :

- كلا ، ليست لهم مصلحة في احراق بيوتهم . .

قلت :

- الفاعل اذن يجب أن تكون له مصلحة من وراء فعلته . . فمن هو في رأيك ؟

أجاب متهكما :

- وما أدراني ؟ . . لماذا لا تعرض وجهة نظرك دفعة واحدة ؟ .

- أعذرني اذا قلت لك أنك تجعلني أشك في حقيقة ايمانك بالحوار والاقناع الديمقراطي . . أنت من جهة تتجاهل تماما ما روته الصحف حول أصحاب المصلحة في تلك الحرائق . . أولئك الذين يطمعون بالارض بعد اخلائها . . وأنت ثانيا تبدو وكأنك لا تريد أن نكتشف الحقيقة بهدوء عن طريق الاستقراء المنطقي للوقائع .

حدق بي قليلا ، ثم اغتصب ابتسامة ، وقال وهو يتظاهر بالارتياح :

- أنا آسف اذا كنت ظهرت كما ذكرت . . حسنا . . الطامعون بالارض هم أصحاب

المصلحة . . تفضل ، أكمل حديثك .

ـ ولكني لا أعتقد أنهم وحدهم أصحاب المصلحة في ارتكاب تلك الجرائم .

أحسست انني أمسك بخناقه ، وأنه لن يفلت من يدي قبل أن ألقيه بعيداً خارج نطاق حياتي . وقد سألني بشيء من الحدة :

ـ ومن هم الآخرون اذن ، لو تكرمت ؟

قلت :

ـ سنحاول أن نتعرف معا عليهم . . هذا يقتضينا قليلا من التدقيق في تتبع الوقائع . . تنشب الحرائق المنظمة المتقنة بين وقت وآخر ، وفي كل مرة تلتهم عشرات الاكواخ المصنوعة من الخشب والقنب والورق ، وتشرد مئات الاطفال والنساء . . لندع الرجال جانبا ، ونتحدث قليلا عن جموع الاطفال والنساء . . الى أين سيتوجه هذا الزحف البائس في رأيك ؟

ـ الى أين ؟ . . الى كل مكان . . الى أي مكان .

ـ ولكن لماذا لا نحاول تحديد خط سيرهم ؟ . . أنا أرى ذلك ممكنا الى حد كبير . . مثلا . . الحاجة الى الخدم في البيوت ملحة ومتزايدة . . ولذلك سرعان ما تتلقف الايدي البيضاء أكثر الصغيرات المشردات . والحاجة الى ماسحي الاحذية كبيرة أيضا ، وما أسرع ما يملك كل صبي صندوقا يقبع خلفه في زاوية من زوايا ساحة الشهداء . . ثم هناك الحي الغربي المجاور لساحة الشهداء . . هذا الحي يتكفل بايواء النساء الصالحات للعمل ، ويرفد بدمائهن الجديدة البيوتات ذات الاسماء المكهربة . . وهكذا تتكفل الحرائق بارسال سيل لا ينقطع من الساقطات الصغيرات ، بالاضافة الى الخادمات وماسحي الاحذية . ولذلك فأنا أرى أن لكافة الباحثين عن اللذة وعن الخدم مصلحة في الحريق ، واعتبرهم مسؤولين بشكل أو بآخر .

ظل يحدق بي طوال الوقت ، ولكني لاحظت أنه يفكر أكثر مما ينصت . وعندما بدأ يتحدث ، وجدتني أستمع قليلاً ، وأفكر كثيرا بالكوخ الذي يحترق فلا يعود أبدا ، وبالمرأة التي تسقط فلا تنهض أبدا . . ضحية الحريق الصغيرة تلك ، التي يمارسون الحب بين فخذيها ، ويمضغونها كثمرة من ثمار نيرانهم . . ضحية لذيذة وكريمة ، لا تعرف الا العطاء . . تمنحهم الارض ، وتعيد اليهم شبابهم .

قال البلاف :

ـ القضية أكبر وأخطر من ذلك بكثير ، على أية حال . . التشرد لا يبدأ باحراق الأكواخ .

ورغب الدكتور نبيل صادق بالكلام ، ولكن غانم دهب الارض سبقه ، وقال :

ـ بالفعل ، انها مشكلة وطنية عامة

فقلت على الفور :

ـ المشكلة عامة ، ولكن المسؤولية محددة .

وعقب البلاف :

ـ محددة تحديدا عاما ، أليس كذلك ؟

فابتسم دهب الارض ، وتساءلت :

ـ ترى كيف تحدد المسؤولية تحديدا عاما ؟

فأجاب البلاف :

ـ بإلقاء التبعة على الأمبريالية .

اتسعت ابتسامة ضيفنا الكبير ، فقلت :

ـ أتدرون ؟ . . نحن لا نطلب وطنا مثل كوبا ، ولا مثل سويسرا . . ولكني كثيرا ما أتساءل عما اذا كان المتنفعون بالحرائق هم سادة الوطن حقا . . حبذا لو كان الوطن ملكهم ، ونحن مجرد أقنان . . أحيانا أفكر لو أنهم ملكوا هذا الوطن ، وبنوه على هواهم ، واستثمروه وحدهم . ولكني سرعان ما أكتشف أنهم لا يستطيعون ، فهم مجرد وكلاء وسماسرة للاجانب .

سألني البلاف :

ـ أتعتقد ذلك حقاً ؟

قلت :

ـ أنا أعرف تمام المعرفة كيف جمعوا ثرواتهم ، وبنوا عماراتهم . . أنا أؤمن أن البورجوازية العربية ليست بورجوازية . . جماعتنا مجرد وكلاء وسماسرة للبورجوازيات العالمية . . انهم يتنفسون من رئتها ، ويعيشون على فتات موائدها .

وتساءل البلاف مازحا :

ـ اذا كان هذا كله الفتات ، فكيف تكون الموائد اذن ؟ .

نهض غانم دهب الارض وهو يدقق في ساعته ، ودون أن يعقب بأية كلمة . كان

مكفهرا بعض الشيء ، ولكنه سرعان ما استرد ابتسامته بعد أن أخذ نفسنا عميقا ، وتقدم نحوي ، وحرك كتفيه بلا مبرر ، ثم قال :

ـ أسعدني التعرف اليك . . هل تعتقد أننا سنلتقي ثانية ؟

قلت :

ـ من يدري .

فصافحني بحرارة ، ثم صافح البلاف ، واستدار خارجا بخطوات محارب قديم ، يتبعه صهره الدكتور صادق .

* * *

تسللت أشعة الشمس قوية من النافذة ، فأشاعت الحرارة في الغرفة التي سادها الصمت . كان البلاف قد بدل سحنته ، وتحرك استعدادا لانجاز بعض الأعمال المتراكمة . وقال وهو يعلق معطفه على المشجب ، ويشمر عن ساعديه .

ـ انها ظهيرة قائظة . . لكأننا في شهر آب .

ثم غرق في أوراقه ، فاغتنمتها فرصة خلوت بها الى نفسي ، والى بعض أوراقي أيضا .





الأيام التالية

٦ ـ مناورات ذكية

سرعـان ما أفسـد رنـين الهاتف خلوتي ، وأعادني الى البلاف الذي أحكم وضع كفه على لاقط الصوت ، وانطلق يثرثر على هواه :

ـ أنت . . أنت هنـاك . . ألا تسمعني يا ثعلب الصحـراء ؟ . . أوزة تنتظـرك على الهـاتف . . الأوزة ذات النـبرات الـرائعـة ، التي سألت عنـك صبـاحـا . . الا تريـد محادثتها ؟ . . هل أبلغها أنك فقدت شهيتك ؟ . .

انتزعت الهاتف من يده ، وبدأت أتحدث ، ولكنه استمر يثرثر :

ـ أي رجـل هذا ؟ . . ومن أين له كل هذا الحـظ مع النسـاء ؟ . . ومـاذا يعجبهن فيـه ؟ . . أنظـروا بأيـة لهجـة يتحـدث اليهـا . . يا رجـل . . انهـا قمـر السماء ، لا ذهب الارض . . أهكذا يخاطب القمر ؟ . .

حاولت اسكاته دون جدوى ، وكنت أعرف ـ بحكم خبرتي بطباعه ـ أن سكوته غدا مستحيلا . وقلت لمحدثتي وأنا أتجنب تشويشه بشتى الوسائل :

ـ أين ؟ . . نلتقي في ميامي ؟ . . هل يوجد مكان بهذا الاسم ؟ . . اسمعي . . لماذا لا نلتقي في المقهى القريب من مقبرة الدحداح ؟ . .

ضحكت بصوت عال ، سمعه البلاف ، فكف لحظة عن الثرثرة وأصاخ بسمعه . وتابعت :

ـ ألا يعجبـك ؟ . . ألا تعـرفينه ؟ . . اذن نلتقي في مقهى الساطور في الربوة . . لماذا تضحكـين ؟ . . نعم ، السـاطـور . . أليس الاسم غامضـا وغـريبـا بما فيـه الكفـاية ؟ . . حسنا ، كما تريدين . . سأكتشف ميامي ، وأكون هناك في التاسعة صباحا . . الى اللقاء .

وكان البلاف يقول :

ـ ما أغرب النساء . . انها تضحك لكلام سخيف يصدر عن رجل مخضرم . . رجل يتحدث بلغة الأجداد ، ويعتنق مبادئهم ، ويختفي وراء مظهر عصري . . أقسم بالله أنك لم تكن تمزح . . اعترف . . قل الحقيقة . الا تفضل مقابلتها في مقهى الساطور ، أو قرب مقبرة الدحداح ؟ . . بل لعلك تفضل مقابلتها داخل المقبرة بالذات ، والمسكينة تضحك ، وتتصور أنك تمازحها ، وتجهل أنك لم تسمع بشيء يدعى المزاح ، وأنك واحد من سكان الدحداح تأخر دفنه . . وأنك مخادع كبير . . وذئب . .

قاطعته مداعبا :

ـ وحضرتك أحيانا لا تطاق ، ولا تختلف عن أي مجنون في مستشفى ابن سينا .

ـ سينا ؟ . . صحيح . . قد أكون مجنونا أحيانا . . لماذا ؟ . . لأن تصرفاتك تسبب الجنون دائما . . انطق . . فسر لي ما يجري حولي ، وما يتم من وراء ظهري ، وسأكف عن الجنون . . قل لي . . من هي هذه الأوزة التي تسأل عنك بطريقة ما ، وبنبرة ما . . لنقل بحنان ما ، وبرقة ما . . وتضحك ضحكة ما ، لا تخطىء فهم كنهها أذني هذه . .

وراح يشد احدى أذنيه ، فضحكنا معا طويلا . ثم سادت لحظات من الصمت ، غاب عني خلالها قليلا ، ثم عاد يقول بملامح جديدة ، وبلهجة جديدة ايضا :

ـ سعد . . أريد أن أتحدث اليك جادا . . ماذا قال لك الطبيب ؟ .

ـ قال أن العلة في الكبد لا في القلب كما توهمت .

* * *

عرضت له جانبا من لقاء العيادة ، فقد كنت أشعر برغبة قوية في محادثة أحد عن نجوى . فأنصت بتفهم واهتمام ، واستفسرني عن بعض جوانب الموضوع ، ثم سألني عما اذا كانت اصابة قلبها خطيرة . فأخبرته أنني لا أعرف شيئا عن هذا المرض الجديد الذي أصيبت به ، وأتصور أنها جاءت الى دمشق بناء عل نصيحة أحد الاطباء ، وفي هذه الحالة لابد وأن يكون الامر على جانب من الخطورة ، والا ما تكبدت مشاق السفر الطويل . فتظاهر أنه لا يشاركني مخاوفي ، ونصحني أن لا أستبق الامور ، وأطلق لخيالي العنان ، طالما أن باستطاعتي التأكد مباشرة . وكان قد لاحظ قلقي الذي حاولت جاهدا اخفاءه . وحين أخبرته انني سأزورها هذا المساء في الفندق ، هز رأسه مستحسنا .

* * *

انتقل الى موضوع آخر ، فسألني ان كنت مستاء بسبب زيارة دهب الارض ، خاصة وأنه يعتبر نفسه مسؤولا عنها . فأجبته أني لست مستاء طالما أنها مرت بسلام ، وأن مثل هذه اللقاءات لا يمكن تجنبها دائما ، وأنها مفيدة أحيانا بشكل ما . .

سألني بلهجة جادة :

ـ وكيف تكون مفيدة في رأيك ؟ .

أجبت ضاحكا :

ـ عندما تجري على الطريقة الانكليزية مثلا . . الانكليز يتحاورون ليروضوا عقولهم ، لا ليبدلوا قناعاتهم . . رياضة للذهن لا أكثر ولا أقل .

فلم تنتقل اليه عدوى الضحك ، وقال وهو يمعن نظره بي :

ـ أتريد يا سعد أن أقول لك الحقيقة ؟ . . أتريد أن تطلع على حقيقة رأيي ؟ . .

أومأت برأسي موافقا ، فلم يتابع حديثه على الفور ، وبعد أن أطرق برهة ، رفع رأسه ، فلاحظت طيف تردد في نظراته . قال وهو يزدرد لعابه :

ـ ولكني أشترط عليك سلفا أن لا تغضب .

قلت بلا فضول ، مشجعا اياه :

ـ لن أغضب مهما قلت .

ـ وأشترط عليك أيضا أن تسمعني برحابة صدر ، وأن لا تطلق لظنونك وخيالك العنان ، فأنا أعلم أنك كثير الظنون ، وأنك تثق بمخيلتك ، وتعتمد عليها في بعض الأحيان .

لم افاجأ باشتراطاته ، ولم أقم لها أي وزن . قلت له :

ـ والآن ابدأ حديثك .

ـ سأقول لك رأيي الآن . . أنا أختلف معك . . لماذا تنظر الي بهذه الطريقة ؟

كانت نظرتي عادية جدا ، فلم آبه لسؤاله ، وبقيت في حالة الاستماع التي أنا عليها . قال :

ـ استمع الى وجهة نظري قبل أن تتسرع وتصنفني الى جانب غانم دهب الأرض . .

ضرب جبهته بكفه ، وأضاف :

ـ ها أنا ، مثل أي مغفل ، حشاش ، أبدأ حديثي من نهايته . .

كنت أعرف انه لم يخطيء ، وانما تعمد أن يبدأ الحديث من آخره . فتلك طريقته المفضلة ، وهو يحب باستمرار أن يبدأ أحاديثه الهامة من أخطر نقطة فيها ، فيطرح منذ البداية النتيجة التي سيسعى للحصول عليها ، وبعد ذلك يغدو أكثر حيوية وانطلاقا بما لا يقاس . قال وهو يطابق أصابعه ، ويتأملها :

ـ لكني لا اخشى بأسا طالما انك تعرفني حق المعرفة . . أنت تعرف أني لا أطيق أمثال دهب الارض . . أنا ـ على الأقل ـ أستثقل دمهم ، ولا أحتمل ظلهم ، ناهيك عن الخلاف المذهبي . . اذن بماذا أختلف معك ؟ . . ذهب الارض قال انه ضد افكارك . . طبعا أنا لست ضد افكارك . . أنا ضد أسلوبك . . هل تذكر كيف أعرب دهب الارض عن اعجابه بأسلوبك ؟ . . وهكذا تراني اخالفه على طول الخط ، فهو يكره افكارك وأنا أحبها ، وهو معجب باسلوبك وأنا ضده . .

لم يعد هناك ما يعيق لسانه ، ويربك حركاته ، بعد ان أعلن هدفه ، وها هو يسترد روحه المرحة شيئا فشيئا ، فتبرز في حركاته التي لم تكن تخلو من لون مسرحي . لكنه احتفظ بلهجته جادة الى حد كبير ، فغدا مرح الحركات ، جاد الكلمات . اضاف بلهجة هامسة :

ـ أعترف بأن هذه المقارنة واتتني في الحال ، ولكني أراها مقارنة موفقة . . ما رأيك ؟

ـ موفقة جدا .

قال متصنعا الغضب ، مهددا بقبضته :

ـ لا تسخر مني . .

ـ أنا لا أسخر منك . . اراها موفقة من خلال زاوية معينة .

ـ من زاوية الحبكة اللفظية ؟ . . اليس كذلك ؟ . .

ـ لم تخطر ببالي هذه الناحية ، ولكني الآن أراها موفقة من حيث الحبكة اللفظية أيضا .

جلس على حافة المقعد ، ثم اتكأ على ركبتيه ، وسألني :

ـ هل تخيلت نفسك تهبط على سطح المريخ ؟

أجبته :

ـ في الحقيقة ، تخيلت نفسي أهبط على سطح كوكب آخر غير المريخ .

ـ ولماذا غير المريخ ؟

ـ لانه بعيد جدا .

ـ ولكن فكرة من هذا القبيل لا تعني أن خيالك أخرق ، حتى ولو كان الكوكب بعيدا بعدا خياليا . . هل توافقني ؟

ـ أوافقك .

ـ اذن متى تكون أحمق كبيرا ، وذا خيال أخرق ؟ . . متى ؟ . . عندما تتصرف كأحد رواد الفضاء . . كأن المريخ في متناول يدك ، وكأنك عائد منه لتوك . . عندما تتحدث مع الناس وكأنك مواطن مريخي . . ما رأيك ؟

ـ هذا كلام رجل عاقل . . تابع .

ـ حسنا . . أريد أن أقول ان الفكرة في حد ذاتها لا غبار عليها ولكن الاعتراض سينصب على السلوك . . أريد أن أقول أن رؤيتي لغانم ذهب الأرض عبر الافق التاريخي ، منفصلة عن رؤيتي له عبر تفاصيل الحياة اليومية . . انه جزء أساسي من تفاصيل الحياة اليومية ، ولا يستطيع أحد ايقاف عجلة الحياة . . هل تراني ما زلت أتحدث كرجل عاقل ، أم أنك غضبت ؟

نهضت بلا سبب ، فقادتني قدماي الى رف رصت عليه كمية من الكتب . تناولت واحدا لا على التعيين ، ورحت اقلب صفحاته . كان كتابا مصورا عن الحرب العالمية الثانية ، ووجدتني أدقق في الصور بعفوية ، باحثا بين الجنود عن وجه شرقي يضع على رأسه خوذة رجال الصاعقة الالمان . ولكني لم استطع ان أميز بينها أي وجه ، فقلت لنفسي : «الناس أبناء النظام قبل كل شيء» . وسمعت البلاف يقول خلفي :

ـ لا أكتمك أني كنت اتوقع وأرغب ، أن تكون زيارة غانم دهب الارض مفيدة جدا . . تصورتها فرصة العمر التي ستخرج أعمالنا من نطاقها الضيق المحدود الى نطاق اوسع وأرحب . .

ووقع نظري على صورة ضاحكة للجنرال أيزنهاور . لقد انتهت الحرب بهزيمة المانيا الهتلرية ، ولكن غانم دهب الارض لايهزم ، ولن أستغرب أبد اذا وقع عليه نظري بين هؤلاء الجنود الاميركيين ، فقد وضع الاميركيون يدهم فورا على سجلات الغستابو ورئاسة الاركان الالمانية ، وورثوا جميع الكفاءات العالمية التي وجدوها في تلك السجلات . . غانم دهب الارض لايميز بين الناس ، والفرق في نظره بين هتلر وأيزنهاور هو الفرق بين المنتصر والمنهزم لا أكثر ولاأقل . . وسألني البلاف :

ـ اتريد أن أتوقف عن الحديث ؟ .

قلت دون أن التفت اليه :

ـ ولماذا تتوقف ؟ . . انني أسمعك جيدا .

كنت أعـرف انـه مرتاح لوقفتي تلك ، وانه يفضل أن يحدثني من وراء ظهري ، وانني أمنحه بوضعيتي جرعة قوية وكبيرة من اكسير الشجاعة . أما من جهتي ، فلم يكن لدي أي مانع يجعلني أعترض سبيله ، فأنا اعرفه حق المعرفة وأدرك ان القضية التي استحوذت على ذهنه لا تخضع للمناقشة والاقتناع ، وأنه سيمضي في الشوط الى نهايته . وقد عدت اسمعه يقول :

ـ وأي ضير في ان يتصـور الـرجـل نفسـه داعيـا للفكـر ؟ . . ليتصـور نفسـه ما يشاء وليحقق لي ما أشاء . أما حكاية حرائقك وبراكينك فأنا لست مقتنعا بها . كل مافي الأمر ان ذهب الأرض يريـد ان يجاري التطـور ، وأن يحتفـظ بنظـامـه العتيق في الـوقت نفسـه . قد تنطوي محاولته على كل مافي العالم من خبث ، غير انه خبث غبي سيورده موارد التهلكة ، لأن تناقضات هذا الرجل كفيلة به .

أعـدت الكتـاب الى مكـانـه ، ورجعت الى مقعـدي ، فتـوقف عن الحـديث ريثما جلست ، ثم أضاف :

ـ طالمـا ان الـرجـل موجود ، ويشغل حيزا هاما ومؤثرا في الحياة الاجتماعية ، فان علي أن لا أتجـاهله ، وأن لا أنكـر وجـوده . . هل أصبحت وجهة نظري واضحة .

ولكنه سألني دون أن ينتظر مني جواباً :

ـ هل تعرف كيف يصطادون الفيلة ؟

ـ لم أعد أذكر بالضبط . هناك عدة طرق لصيدها ، أليس كذلك ؟ . .

فأومأ بسرعة موافقا ، ثم قال بحماس :

ـ يصنـع الصيـادون ممرا اجبـاريـا ، فيتقـدم الفيـل عبره ، ويصبح سقوطه في الحفرة المعدة في آخر الممر أمرا حتميا لا مفر منه . . ولكن نهايته المحتمة سلفا لا تلغي خطورته . . الصيادون لا يطمئنون اليه قبل أن تزين أنيابه العاجية المناضد والجدران .

قلت مبتسما :

ـ انك تقدم باستمرار أمثلة رائعة .

فقال :

ـ أفضـل أن تقـول انهـا صحيحـة ومنـاسبـة . . سعد . . يا صديقي . . الافراد لا

يصنعـون التطـور . . الأجيـال هي التي تصنـع التطـور ، وتبعـا لذلـك فهـوليس مسؤولية فرديـة . . انـه مسؤوليـة جماعيـة . . محصلة تراكم حضـارات المجتمعات . . لا تكن أحمق وتتصدى وحدك لصنع التاريخ . . اياك ان تلعب هذه اللعبة ، فهي مضحكة جدا ومبكية جدا في آن واحد . . هل تريد ان أتحدث اليك بكلام أكثر وضوحا وتحديدا ؟ .

قلت بلهجة مداعبة :

ـ ألم تفعل بعد اذن ؟ . . فليأخذك الشيطان . . خسبتك تجاوزت كل تحديد ووضوح منذ بداية حديثك . . تفضل ، ماذا تنتظر ؟ .

فلم يعـر كلماتي أي انتبـاه ، وان كان قد سمعهـا واستوعبها حسب معرفتي به ، وقال وهو يحدق بين قدميه امعانا منه في التركيز :

ـ مأسـاة الانسـان المعاصر لا تدانيها مأساة أي انسان في العصور السالفة . . تلاشى بالامس البطل الجذاب عن مسرح الاحداث ، وفشلت كل محاولات الاحتفاظ به ، وحلت مرحلة العمليـات الجماعيـة ، الكاملة والشاملة . . كيف تتصرف وانت تعرف ان خصمك يتـوقـع تصـرفـك ، ويفهمـه ، ويتتبعه ؟ . . في هذا السؤال تكمن مأساة الانسان المعاصر الذي يشعر انه دودة حقيرة بين قدمي عملاق هائل يراقبها وهو مستلق على مقعده الوثير . . هل أنا واضح ؟ . . هل تفهمني ؟ .

فنهضت ، ومددت يدي لاصافحه مودعا ، وقلت :

ـ أنت واضح وأنا أفهمك .

فقال وهو يتشبث بكفي ، ويحول بيني وبين الباب :

ـ تريـد ان تتجنب منـاقشتي . . أنـا أعـرف ما يدور في رأسـك . . تقـول بينك وبين نفسـك : هذا الـرجـل لا يريـد ان يعطي حلا ، وبهـذه الطـريقـة يجعـل نفسـه في حل من المسؤولية . . أجبني . . أليس هذا ما تفكر به ؟

قلت :

ـ كلا ، لم أفكر بالمسألة على هذا النحو .

ـ وكيف فكرت بها اذن ؟

ـ في حدود اضيق مما ذكرت بكثير . . في حدود العمل تقريبا .

ففكر قليلا ، الا انه اكتفى باجابتي ، ولم يحثني على مزيد من الايضاح ثم قال :

ـ أنـا أرى العـالم بوضـوح . . صغـيرا كالكـرة ، ومحمـولا على قرني ثور . . أشهـد

بعبقرية الانسان الذي واتته هذه الفكرة . . ألا تراه محمولا على قرنين يتقاذفانه ؟
قلت له وأنا أهم بالانصراف :
ـ لن أخدعك . . أنا لا أراه كذلك .
فبقي متشبثا بكفي ، وقال دون أن يفسح لي طريقا للخروج :
ـ على كل حال ، ليس معنى هذا أني لا أتصور حلا . . اسمع . . سأروي لك مثالا واقعيا ، اذا كنت لا أضايقك . . هل أضايقك ؟
ـ حدثني ، فأنا أحب سماع أمثلتك .
ـ هذا المثال شاهدته بنفسي . . كنت مرة على شاطىء البحر ، وكانت الطيور تحوم فوق الماء ، فينقض أحدها بغتة ، ثم يحلق وفي منقاره سمكة تتلوى ، ولكن سرعان ما كان يهاجمه طير آخر ، ويحاول أن يخلصه الفريسة ، فتسقط السمكة في الماء بينما هما يتعاركان . . هل تصدق ؟ . . أكثر من عشر سمكات رأيتها تنجو وتعود الى الماء سالمة ، ولم تذهب الطيور سوى بسمكتين اثنتين ، حتى خيل الي أن الأسماك كانت تتسلى وتستمتع بتعريض نفسها لمناقير الطيور ، وقلت لنفسي ما معنى هذا ؟ . . ومن يومها وأنا أحلم بحرب كبيرة طاحنة وشاملة تنشب بين العمالقة . .
قاطعته ضاحكا :
ـ الآن أخطأت . . أخطأت في فهم ما رأيت . . ما شاهدته كان غزلا وليس صراعا ، فبعض الطيور تتزاوج بهذه الطريقة . . يحمل الذكر سمكة في منقاره ، فاذا قبلت الأنثى أن تأخذها منه تكون قد قبلت به زوجا . . هما لا يأبهان للسمكة بعد أن تتم مراسم الزواج ، فيتركانها تعود الى الماء ويتعانقان في الفضاء . .
فحدق برهة في وجهي ، ثم سألني :
– هما عاشقان اذن ؟ . . هل أنت متأكد ؟
– متأكد .
– وأنا أظنهما يتصارعان ، بينما هما يتعانقان ؟
– للأسف ، هذه هي الحقيقة . .
فكر مليا ، ثم برقت عيناه فجأة ، وعاد يقول بحيوية :
– ومع ذلك فالنتيجة واحدة . . ما يهمني هو انشغالهما عن السمكات .
قلت :

- كلا ، ليست النتيجة واحدة ، فموسم التزاوج قصير . . أما بقية أيام السنة ، فان السمكة لا تعود الى الماء أبدا .

فقال متضجرا :

- دعنا من هذه الحكاية الملعونة . . ما أريد قوله هو أني لا أحب العمالقة بمختلف أشكالهم وألوانهم ، وأشعر بالغثيان طوال الوقت ، لأني أتنشق رائحتهم مع الهواء طوال الوقت . . لا يمكنك أن تتصور مدى تلهفي لرؤيتهم يتبادلون قذائفهم النووية . . أنا على يقين أن العالم سينعم عندئذ بحضارة جديدة أكثر انسانية ، ولكنهم أوغاد ، يعرفون هذه الحقيقة فيتجنبونها ، وتتكرر مأساة كومونة باريس كل عام . . قل لي يا سعد . . ألا تشعر بالحزن العميق عندما تفكر بمأساة باريس تلك ؟ . . وأية تعزية وجدت في كل ماكيل لها من مديح ؟ .

قلت وأنا أشد على كفه مرة اخرى ، وأنسحب خارجا :

- لولا كومونة باريس ، لما كانت ثورة اكتوبر .

فصاح وهو يتبعني الى الباب :

- أكتوبر ؟ . . هذا غير صحيح . . لولا الحرب العالمية الأولى لما كانت ثورة أكتوبر .





الأيام التالية

٧ - سهرة لاتنسى

ليست تلك هي المـرة الأولى التي صارحني فيهـا البـلاف بوجهـة نظـره لكنها على أية حال واحدة من مصارحات قليلة لا تتعدى أصابع الكف . أما الأسباب التي دعت اليها ، فقد كانت أسبابا مادية دائما . كان يتحدث بتلك الطريقة امامي محاولا اقناعي عندما يكون بصدد صفقة متوقعة ، أومعاتبا اياي عندما تضيع من بين يديه فرصة ذهبية ، وأكون السبب في ضيـاعهـا بشكـل أوبآخـر . الا انـه لايـذكر الاسباب الحقيقية مباشرة . . قد يأتي عليها تلميحاً عبر حديثـه ، وقـد لايفعـل ذلـك ابـداً ، لامن قريب ولا من بعيـد فهـو يحرص كل الحـرص أن يخاطبـك من موقعـك نفسـه ، ولا يقبل بتاتاً أن يفعل ذلك من موقع أدنى . . ان كنت عالماً في الرياضيات ، فسيقدم لك قضيته الصغيرة مغلفة بعرض شيق لنظرية النسبية . واذا كنت شاعـرا ، قدمهـا ضمن دراسـة أدبية رائعة . ولوكنت . . في أى مجال كنت ، فان بلاغته ، والمامه الواسع سيكفلان له اقناعك بحقوقه ، وبعدالة ومشروعية قضيته ، دون أن يعرض هيبته ، وبريق شخصيته العلمية والأدبية لخطر الارتياب والاستخفاف . انه لا يقبل على نفسـه أنْ يجادلـك بمشكلته الشخصية الصغيرة ، ويأبى أن يحسمها الا ضمناً . . الا من خلال حسم مشكلة عامـة كبـيرة . . فاذا اتفقت معـه - مثلا - أن زوال مأساة الانسان المعـاصـر مرهـون بعـراك العـمالقـة ، ويتبـادل القصف النووي ، أصبح لزاما عليك أن تقر سلوكه ، وعلاقاته ، وصفقاته ، دون أية اشارة اليها . . المبادىء جميلة ومقدسة ، لكنها لا تطعم خبـزا . . نستطيـع أن نعلق المبـادىء . . أن نؤجلهـا بعض الـوقت . . ولكننـا لا نستطيـع أن نفعـل ذلـك مع الخبـز . . لا يجوز نهائيـا الخلط بين المبـادىء والخبز . تلك هي وجهة نظره التي يطوف بك العالم من أجلها ، ويغوص معك في أعماق التاريخ ، وفي بطون المؤلفات . أما أنا فقد كنت أعرفها مباشرة ، وكان يعرف أنني أعرفها ، دون أن يؤثر ذلك

أدنى تأثير على رصانته فيستمر يتحدث الي منتقيا العبارات بعناية ، معطيا الأمثلة بحماسة ، معتبرا اياي جاهلا غرضه ، دون أن تطرف له عين .

* * *

عرفت البلاف لأول مرة قبل سنوات طويلة . كنت وقتئذ ضابطا صغيرا عاملا في الجيش ، أما هو ، فقد كان ضابطا في الاحتياط . وقد استقلت فيها بعد لأسباب تتعلق بقابليتي وبتكويني الشخصي . لقد وصفها البعض بأنها أسباب مزاجية ، وأنا لا أعترض على هذا الوصف ، خاصة وأنني خلفت ورائي صداقات حميمة وطدتها أخوة السلاح ، وأنا أعترف بأن أخوة السلاح أمتن وأقوى من أخوة الدم . لقد اعتصرت اللوعة قلبي ردحا من الزمن ، وشعرت أنني خسرت خسارة لاتعوض .

عندما صادفت البلاف في الحياة المدنية ، أحسست على الفور أن ذلك اللقاء لن يكون الأخير ، وبالفعل ، فاننا لم نفترق بعد ذلك ابدا . لقد جمعنا عمل مشترك يعود الفضل اليه في تمويله ، وجعله يقف على قدميه . ولا أنكر عجزي عن التقدم بمفردي خطوة واحدة . لقد أعد البلاف المكتب المناسب ، وسرعان ما عقد اتفاقا مع احدى الصحف العربية التي تهتم بالشؤون السياسية والاقتصادية ، أصبحنا بموجبه نمثلها في كافة القضايا المالية والفكرية . وبالاضافة الى ذلك ، أوجد للمكتب عملا آخر في ميدان الترجمة ، وسرعان ما تطور عملنا في هذا المضمار من ترجمة بعض الوثائق والمراسلات والمطبوعات البسيطة ، الى اعطاء دروس خاصة باللغتين الفرنسية والانكليزية ، ثم الى ترجمة المؤلفات العالمية تمهيدا لنشرها بالطرق الممكنة . ولم يقف طموح البلاف عند هذا الحد ، فقد بدأ يجرب عزمه وحظه في النشر لحسابنا الخاص ، ويتطلع بشجاعة تدعو للاعجاب فعلا ، الى مؤلفات محلية ، مغامرا برأسمالنا المتواضع . لقد انصرف بالجزء الأكبر من طاقته الى ادارة مكتبنا الصغير بنجاح ، وترك لي هموم الفكر والحبر والورق

* * *

قال لي ذات مرة :

- سأروي لك قصة حياتي . . .

ثم راح يضحك عاليا ، وأردف :

- من يدري ؟ . . فقد تجد فيها مادة لرواية مثيرة تدر علينا ذهبا .

قلت له :

- دعك من الكلام الفارغ ، انني أرغب حقيقة في سماع قصتك ، وهذا أمر تفرضه طبيعة العلاقة التي تربط بيننا .

فتأملني مليا محاولا أن ينفذ الى أعماقي ، ثم قال :

- أرى أنك على حق ، ولكني لن أروي حكايتي الا على مائدة شراب عامرة . . هل تقبل بهذا الشرط ؟ . . أنت لا تحب موائد الشراب ، سواء أكانت عامرة ، أم غير عامرة . . فهل تقبل بشرطي ؟ . . هل تقبل ؟ . .

وعاد يضحك بصخب . لقد حدث هذا منذ سنوات في الحقيقة ، ولكن تفاصيله ما زالت حية في ذهني . قلت له يومها :

- اني أقبل .

كف حالا عن الضحك ، وعاد يتأملني محملقا صامتا ، وبعد هنيهة قال :

- اذن ، اتفقنا .

* * *

جمعتنا المائدة الموعودة ذات مساء في مكان عام لم أعد أذكر اسمه ، فقد كانت تلك أول وآخر مرة دخلته فيها . غير أنها لم تجمعنا وحدنا فحسب ، وانما استقطبت أيضا عددا من الفتيان والفتيات ، فقد كانت - بالفعل - مائدة عامرة تبهج الأنظار .

همست في أذن البلاف ، وأنا أتطلع الى الضيوف ، مذكرا اياه باتفاقنا . فقال وهو يداعب ذقن فتاة جلست الى جانبه :

ـ لا عليك . . سأحدثك بكل شيء . . لن أكف عن الحديث حتى أفقد القدرة على النطق .

ثم مد يده الى زجاجة العرق الكبيرة ، وبعد أن رفع سدادتها بأصابع معتادة ، سكب الخمر برشاقة في كأسين كبيرتين حتى نصفهما ثم مزج محتوياتهما بالماء ، وأضاف قطع الثلج ، حتى بلغ السائل الذي غدا لبني اللون حافتيهما ، وقدم لي احداهما مع ابتسامة مشجعة لا تخلو من خبث . أما ضيوفه من الجنسين فقد قدم لهم الويسكي خصيصا . وبعد

ان قرع كأسه بكؤوس الجميع ، ورشف ربع محتوياتها دفعة واحدة ، التفت الي ، وقال دون تحفظ وهو يشير الى ضيوفه :

ـ مساطيل . . يفضلون هذا الماء الآسن على حليب السباع ! . . من يفضل الويسكي على العرق غير المساطيل ؟ .

فلم يأبه أحد لانتقاداته ، وعزفت على مقربة موسيقى صاخبة ، فتقاطر الراقصون والراقصات الى الحلبة بمن فيهم ضيوفه . وقد اغتنمتها فرصة ، فقلت له :

ـ اسمع يا بلاف . . اذا كنا سنقضي الوقت على هذا المنوال ، فاني سأضطر بعد قليل للانسحاب .

كان يتابع الحلبة بعينيه ، وبعد أن تبادل الابتسامات والايماءات مع ضيوفه المنهمكين في الرقص ، التفت الي ، وقال وهو يجرع آخر ما تبقى في قعر كأسه :

ـ للانسحاب ؟ . . ولماذا جئنا اذن طالما أننا سنضطر للانسحاب بعد قليل ؟ . . لماذا ؟ . . ألا تفهم أنني أستعد لحديث يرسخ في ذاكرتك الى الأبد ؟ . . ألا تفهم ذلك ؟ . . ولم أنت في عجلة الى هذه الدرجة ؟ . . أنظر حولك . . استمتع . . اشرب . . دعنا نفعل ذلك معا ليحلو الحديث . . أم أنك جئت بي الى هنا موقوفا ، وتنوي أن تجري معي تحقيقا ؟ . . لا ياصاحبي . . أتظن نفسك في مخفر ؟ . . هل أنت شرطي ، وأنا موقوف ؟ . . دعني أخدمك أيها الكاتب العظيم . . دعني أقول لك أن الناس لا يكاشفونك بصدق نزولا عند رغبتك . . انهم يفعلون ذلك عندما تتوفر لديهم الرغبة . . بأسلوبك البوليسي لا تحصل الا على الكذب . . لا تحصل الا على كلام رخيص ومبتذل وملفق . . فما رأيك ؟ . . هل تريد تلفيقا وتزويرا . . أم تريد قصة صادقة شيقة ؟ . .

حانت منه التفاتة الى حلبة الرقص ، هب على أثرها واقفا ، وسار بخطوات واسعة ، وسرعان ما احتضن احدى الراقصات ، وتلاشى في الزحام ، الا أنني بقيت أرى صلعته تومض فوق الرؤوس وعندما عاد بعد قليل متخاصرا مع رفيقته ، كان وجهه محمرا يرشح عرقا ، ويفيض بشرا ورضى . وحين أصبح أمامي ، حدق في وجهي ، وابتسم كأنه يكتشف وجودي لأول مرة ، وقال وهو يحاول السيطرة على لهاثه :

ـ أنت هنا يابني ؟ لا بد أن أمك العجوز تفتش عنك الآن باكية في كافة مخافر البلد ، ولكنها ستهتدي حتما الى هذا المخفر ، وتعود بك الى البيت مسحوبا من أذنك .

جلس على مقعده وهو يقهقه ، ويثرثر :

ـ يا للمخلوق البائس الضائع . . ان رؤيتك تبعث على الشفقة ، وتستدر دموع الضباع ، وتفتت أكباد الافاعي .

ثم زمجر متصنعا الغضب :

ـ ولم كل هذا الحزن يابني ؟ . . أفهمني لم كل هذا الحزن ؟ . . هل ضربك أحد ؟ . . لا تحزن . . سأشتري لك الدراجة التي تطلبها . . هل تريدها بثلاث عجلات ؟ . .

استمر يقهقه ، وعزفت الموسيقا مجددا ، فقال ساخرا ، وهو يشير الى رفيقته :

ـ انهض . . خذ هذه الدمية يا بني ، والعب بها قليلا . . لكن اياك أن تمزق ثيابها . . اني أحذرك .

كان يضحك ضحكا مدويا ، وكانت رفيقته مائلة نحوي تنتظر أن أصطحبها الى حلبة الرقص . . أما البلاف ، فكان يرقبني وقد أصبح يضحك بحذر ، ثم همس وهو يلكزني بمرفقه بلطف :

ـ كن جنتلمان وانهض .

قبلت التحدي مرغما ، فنهضت ، ودعوت الفتاة الى الرقص كأي جنتلمان يتقن عن ظهر قلب كافة المجاملات الاجتماعية . وعندما صرنا في قلب المعمعة ، تطلعت الى البلاف ، فوجدته يراقبني مفكرا بشيء من الدهشة ، وحين التقت نظراتنا ، أبرقت له شاكرا ومعترفا بالجميل ، عبر ابتسامة عريضة ، فأحنى رأسه بكل تهذيب ووقار .

بدأت الفتاة مراقصتي بريبة وحذر ، لكنها سرعان ما انطلقت مطمئنة بعد أن اقتنعت أنها لم تقع ضحية أفاق جاهل .

بعد قليل ، سألتني وهي ترامقني ؛ وتحاصرني بساقيها :

ـ بردون . . هل أنت من دمشق ؟

أجبت على الفور .

ـ أنا من جمهورية اللجاة المتحدة .

ـ ماذا قلت ؟ . . من أين ؟

ـ من اللجاة . .

ففكرت قليلا ، وظهر الضيق على جهها ، ثم قالت وهي تهز رأسها نفيا :

ـ آسفة . . لا أعرف بلدكم . . لم أسمع به .

قلت :

ـ أنت معذورة . . هو بلد حديث . . حصل على استقلاله الذاتي مؤخرا .
فراحت تقدح زناد فكرها ، وتسائل نفسها :
ـ النجاة . . النجاة . ال . . . .
قاطعتها بلهجة جادة ، ليس فيها أي أثر للمزاح :
ـ اسمه اللجاة
ـ اللجاة . .
ـ نعم ، ويقع بين الجمهورية الأردنية ، والجمهورية السورية .
فعبرت ملامحها عن نوع من الاحساس بالذنب ، وقالت :
ـ صحيح ؟ . . اني آسفة جدا .
قلت متسامحا :
ـ لا عليك ، فليس الذنب ذنبك .
ـ اسمه غريب وجميل ، ولا بد أنه كذلك . . حدثني عنه أرجوك .
فانطلقت احدثها دون تردد ، وبمنتهى الطلاقة :
ـ انه جميل وغريب بالفعل . . تصوري أننا لا نستخدم الطرق ولا السيارات ، ولا أي شيء من هذا القبيل . . نحن نتنقل بواسطة التلفريك . . والناس عندنا لا يتزوجون أبدا . . والأغرب من ذلك أنهم لا يطلقون أيضا . . تخيلي مجتمعاً لا طلاق فيه . . فالناس يستطيعون أن لا يتزوجوا . . أما أن لا يطلقوا ، فهذا أمر صعب ومحزن . . ألا توافقينني ؟
أجابت بتأثر :
ـ أوافقك .
استرسلت بلا أدنى وجل :
ـ هذه المشكلة هي عيبنا الوحيد ، أما ما عداها ، فكل شيء على ما يرام ، ويفرح القلب .
سألتني بعد لحظة صمت :
ـ وأين تعرفت بالاستاذ بلاف ؟ .
أجبتها بهدوء :
ـ كان يزورنا فيما مضى للحصول على فراء الدببة البيضاء . . ألم أخبرك أننا نمتهن صيد الدببة ؟

فهتفت بحرارة :

ـ أوه . . هذا عجيب . . لم يحدثنا الاستاذ بلاف عن ذلك ابدا .

توقفت الموسيقا عن العزف ، وتبعثر الراقصون بين الموائد ، وبعد أن أجلست رفيقتي على مقعدها ، واخذت مكاني ، رفعت الكأس الى أعلى ، ودعوتها لشرب نخبها ، فابتسمت ابتسامة عريضة ليس فيها أي أثر للجاذبية ، وقالت :

ـ نخب بلدكم الجميل . . اللجاة ؟ . . اسمه اللجاة ؟ .

ضحكت بانشراح ، وتابعت بعد أن جرعت ما تبقى في كأسها :

ـ ولكن لماذا لم يحدثنا الاستاذ بلاف عن بلدك ؟ .

التفتت الى البلاف ، وسألته :

ـ لماذا لم تحدثنا عن بلد الاستاذ ؟ .

كانت زجاجة العرق الكبيرة قد أشرفت على نهايتها ، وكان البلاف يحملق بعينين اصطبغتا بلون الدم ، وينقل بصره بيني وبين الفتاة . وأخيرا خاطبها قائلا :

ـ الأستاذ ؟ . . ماذا قال لك هذا الثعلب الذي يجيد التظاهر بالموت ؟ . . تجدينه جيفة منتفخة . . ثم ينتفض فجأة كالشيطان الرجيم ، ويأكلك . . لا تصدقي هذا الجيفة يا دجاجتي الطيبة . . انه ثعلب ، وذئب ، وكذاب . .

ـ حدثتها عن بلدي . . عن جمهورية اللجاة المتحدة . . وأخبرتها أنك تاجر فراء .

فحملق بي ، وهتف بينما الابتسامة تتأرجح عل شفتيه :

ـ فراء ؟ . . تاجر فراء ؟ .

أجبت وأنا أبالغ في التظاهر بالجد :

ـ نعم ، فراء الدببة البيضاء . . هل فقدت ذاكرتك ؟ .

فاستلقى على مسند مقعده من الضحك ، ثم استوى من جديد ، وقال وهو يمسح دموعه بظهر كفه :

ـ ذاكرتك ؟ . . اذن فقد أفشيت السر . . وكيف أفشيته دون اذن مني ؟ . . هل أطلعتها على أسرار أخرى ؟ . .

تذكرت قليلا ، ثم هززت رأسي نفيا . فقالت الفتاة متحفزة مبهورة :

ـ هل هناك سر يا أستاذ بلاف ؟ . . كنت أظنني أعرف عنك كل شيء

ـ كل شيء ؟ انك لا تعرفين عن عمك البلاف الا القليل القليل (كان في الخامسة

والثلاثين من عمره) لا تظنيني أضن عليك بأخباري ، كلا ، أنا أشفق عليك منها . . انها۔ يا صغيرتي ـ أخبار مخيفة تنخلع لهولها القلوب . . أقسى القلوب . . فكيف بقلبك الرقيق ، الذي لا يحتمل روايات شارلي شابلن ؟ .

ازدادت الفتاة تحفزا ، وانبهارا ، وقالت بلهجة مضحكة :

ـ أنت مخطىء يا أستاذ بلاف . . أنا لا أخاف أبدا ، وأقول لك بالمناسبة ، اني شاهدت كافة روايات هيتشكوك .

فقال البلاف بنبرة اعجاب :

ـ هيتشكوك ؟ . . عظيم جدا . . اذن هل احدثك بواحد من أخباري ؟ .

ـ نعم .

ـ حسنا . . سأختار ألطفها وقعا . . لقد حدث ما سأرويه لك منذ زمن بعيد . . لنقل منذ خمسين عاما . . وفي بلد غريب عجيب . . قولي أنه بلد هذا اللجاتي الذي يجلس أمامك الآن . . كنت شابا في مقتبل العمر ، أتفجر حيوية ونشاطا ، وقد أقمت فترة طويلة في ذلك البلد الذي اتفقنا أنه اللجاة ، لأغراض تجارية . . تتعلق بالفراء ، وما أشبه ذلك . فاستأجرت منزلا منعزلا ، واكتريت خادما يقوم بحاجات البيت ، ويعد لي طعامي . ذات يوم ، وأنا راجع الى منزلي ، شاهدت الخادم خارجا ، فقلت له : ماذا طبخت ؟. قال : باميه . فأعطيته نقودا ، وقلت له : أحضر فجلا وليمونا . كان قد ترك باب المنزل مفتوحا ، فلما ذهب لاحضار الفجل والليمون ، وغاب عن نظري ، شاهدت سيدة ترتدي ملابس نساء الاتراك تمر من خلفي ، ثم نظرت الي مليا ، وتوجهت الى باب منزلي المفتوح ، ونظرت الي مرة اخرى ، ودخلت المنزل . في هذه الاثناء عاد خادمي أحمد فقلت له : أدخل وقل للسيدة أن البيت خال من النساء ، فلا بد أنها دخلت خطأ . فدخل الخادم ، ثم عاد ، وقال لي : لا يوجد أحد . لا يوجد أحد ؟ . . كيف ؟ . . دخلت بنفسي ، واحكمت اغلاق الباب ، وفتشت كل مكان حتى السطح دون أن أجد أحدا ، فعلمت أنها من عوارض الجن . وقلت للخادم بعد الحاحه في السؤال : قد تكون خرجت دون أن ألاحظها . والحقيقة أنني داريت الخادم لئلا يخاف ويتركني وحدي ، فقد كنت متأكدا من وجودها داخل البيت . .

توقف البلاف فجأة عن سرد قصته العجيبة ، وبعد أن ألقى نظره على الحلبة ، قال للفتاة :

ـ ألا نقوم الى الرقص ؟ .

فهتفت باستعطاف :

ـ ليس قبل أن تكمل قصتك . . تابع أرجوك . . ثم ماذا حدث ؟

فتململ في جلسته ، وأشاح بوجهه بعيدا ، وزفر بقوة ، ثم عاد اليها مستسلما ، وتابع قصته :

ـ ماذا حدث ؟ . . بعد الغداء حاولت النوم فجافاني بسبب انشغال فكري . كان الوقت صيفا ، ولم يكن الخروج الى الطريق ممكنا بسبب الحرارة الشديدة ، ورغم ذلك جاءني خادمي أحمد عبد الوهاب ، وهذا اسمه الكامل ، يستأذنني ملحا بالذهاب لاحضار جلابية جديدة ، فقلت له : لا تذهب حتى أخرج من البيت ، فاستمر يلح على الذهاب حالا ، وأنا أرفض خشية من تلك التي دخلت واختفت . ثم أذنت له على مضض ، بعد أن أدركت أنه سيذهب ولو بغير اذني ، وأن الجنية هي التي توسوس له بذلك كي يخلو لها الجو معي . وبعد أن خرج أحمد ببضع دقائق ، شاهدت شبحاً أبيض يسقط من السقف أمامي ، واذا هي السيدة التي شاهدتها عند الباب .

حاولت أن أساعده في انهاء هذه الحكاية الطويلة ، فقلت وأنا أتظاهر بالخوف :

ـ هذا يكفي أرجوك . . دع هذه الليلة تمر بسلام واصمت ، والا زارتنا صاحبتك في الحلم ، وحرمتنا لذة النوم .

فاشرقت أساريره ، وقال مبتهجا بمبادرتي :

- النوم ؟ . . نعم ، هذا يكفي .

التفت الى رفيقته وقال لها :

- هيا بنا الآن الى الرقص .

حدجتني الفتاة بنظرة غاضبة ، ثم قالت له بحزم :

ـ كلا ، لن أنهض قبل أن تنتهي الحكاية . . أكمل أرجوك .

فأسقط في يده ، وتهالك على المائدة ، لكنه سرعان ما استرد حيويته ومرحه ، وتوجه الى فتاته مكملا القصة :

ـ وجدت تلك السيدة أمامي تقول بصوت رفيع : السلام عليكم . فأخذتني الحمية العربية ، وذهب خوفي ، وصممت على النضال . قلت لها بلهجة جافة : من أذن لك بالدخول ؟ . . من أنت . . ولماذا حضرت ؟ . فقالت : استأذنت منك مرتين حينما نظرت

اليك عند الباب ، فلم تمنعني ، ودخلت بعلمك . وقد حضرت لأعاتبك على مابدر منك أمس بحقي وبحق ضيوفي . قلت : وماذا بدر مني امس ؟ . قالت : خلعت ثيابك ، ونزلت الى النهر لتستحم عاريا كما ولدتك أمك ، فأفسدت علينا نزهتنا ، وخالفت الشرع الشريف الذي يمنع كشف العورة في الاستحمام حتى ولو لم يوجد أحد من بني آدم ، لاحتمال وجود مخلوقات روحانية أخرى في نفس المكان . ألم تعلم بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستحم في قميصه لهذا السبب ؟ . فعرفت عندئذ أنها جنية مؤمنة ، واستأنست بها ، وسألتها عن اسمها وعن قبيلتها ، فقالت : اسمي وارديار بنت الملك الابيض ، وأنا من دمشق الشام ، ومن عادتنا أن نأتي الى هنا في فصل الصيف . فأخبرتها فرحا أننا أبناء مدينة واحدة . .

صمت لحظة ، وقد عاوده الفتور ، فهتفت الفتاة :

ـ وبعد ذلك ؟ . . ماذا حدث بعد ذلك ؟ .

قال وهو يتنهد بحرقة :

ـ بعد ذلك ، بدأت تزورني كل يوم . وعرضت علي الزواج فلم أقبل ، لانني كنت خاطبا . وبلغ من حبها لي أن ذهبت الى دمشق ، وأحضرت منديل خطيبتي الذي اشتريته لها من سوق الحميدية . فلمتها ، وكلفتها بارجاعه دون ازعاج الخطيبة ، ففعلت ذلك خلال نصف ساعة من الزمن فقط ، لأن الجن كما تعلمون يطيرون على أجنحة الأثير . كانت تظهر أمامي بكل الصور التي أحبها . . بصورة خطيبتي . . وبصورة أية امرأة من الفاتنات المشهورات . . .

كان البلاف يتحدث وكأنه يقرأ في كتاب . والحقيقة أنني أعرف الكتاب الذي اقتبس منه هذه الحكاية ، التي أكد المؤلف ـ وهو سكرتير نيابة سابق ـ أنها حدثت معه شخصيا . كانت الموسيقى تعزف في تلك اللحظة مقطوعة كازاتشوك الروسية ، والحلبة تغص بالراقصين . أما الفتاة فقد كانت لا تزال متسمرة بمقعدها ، غائبة عن كل ما حولها مشدودة الى شفتي البلاف ، تحثه بعينيها على مواصلة الحديث فلما أبطأ عليها ، عادت تهتف به :

ـ هيه . . أكمل . . ثم ماذا حدث ؟

فألقى نظرة متحسرة على حلبة الرقص ، وتململ ضجرا ، ثم قال :

ـ ماذا حدث ؟ . . ماذا حدث بعد ذلك ؟ . . لقد ضاجعتها ، نعم ، هذا ما فعلته . . ضاجعت في شخصها كل فاتنات العالم الشهيرات . . ولو لم أفعل ذلك لكنت

مجنونـا بالتأكيـد . . ولا استبعـد ان تكون قد رزقت مني طفلا . . لا أستبعد أن يكون الآن شابا طويلا عريضا . . من يدري . . لعله الآن منهمك بالرقص . . لعله أحد هؤلاء الشبان . .

وأشار بيده الى الحلبة ، فتابعت الفتاة حركته بانفعال ، ثم تحولت الي ، وثبتت نظرها على وجهي ، فاغتنم البـلاف الفـرصـة ، وحمـل المشهـد معنى لا أظن الفتـاة قصـدته . . ضحك بصخب حتى لم يعد يقوى على الجلوس ، وصرخ وهو يحاول عبثا التقاط أنفاسه :

- لا تنظـري اليـه هكـذا . . انـه ليس هو . . انـه ليس هو . . ألا تلاحظين أنه أكبر مني ؟ . . ألا تلاحظين ذلك ؟ .

التفت الي ، وقال وهو يكتم ضحكه بصعوبة :

- عندما كنت صغيرا ، لا يتجاوز طولي . . ارتفاع هذه المائدة ، كنت لا أخاف شيئا في الدنيا سوى الجن ووالدي . ولا أدري أيهما كنت أخافه أكثر من الآخر . . أحيانا أهرب من الظلام ، وأرتمي تحت ضربات عصا أبي المقطوعة من شجرة الرمان ، وأحيانا أهرب الى الظـلام مفضـلا الجن عليهـا ، ومعتبرا اياهم أقل خطرا وشرا . كنت واحدا من خمسة أخوة أنجبتهم أم واحدة . أما مجموع اخوتي من كافة الأمهات . فقد كان ستة عشر بينهم ثلاث أنـاث ، ولكن لم يبق منـا على قيـد الحيـاة حتى الآن سوى النصف . كان أبي تاجرا واسع الرزق ، مهول المنظر ، لا يشبع من مباهج الدنيا ولا يرتوي ، دون أن تفارق السبحة كفه لحظة واحدة ، ودون أن يفوته فرض واحد من فروض الصلاة . وقد أكدت والدتي لنا دائما أنه تزوج باثنتين من بنات الجن أيضا ، ومع ذلك كان يطمع طمعا شديدا بحوريات الجنة وولـدانهـا ، فلا يكف عن ذكـرهم في قيامه وقعوده أثناء الليل وأطراف النهار ، وكنت أعتقد اعتقـادا راسخـا أنـه سيـدخـل الجنـة ، ويحصـل كعـادتـه عل كل ما يريد ويتمنى . . ومن يمنعه ؟ . . من يجرؤ على الوقوف في طريقه ؟ . . ولذلك قررت بحزم أن أذهب الى جهنم طالمـا أنـه ليس هنـاك من مكـان آخـر يبعـدني عنـه وعن عصاه . . وعندما أصبح طولي . . ضعف ارتفـاع هذه المـائـدة تقـريبـا انطلقت على هواي ، ولم أعـد آبـه للضرب . . أصبح الضـرب جزءا لا يتجـزأ من حيـاتي اليـوميـة ، مثل الطعام والشراب . . اعتدته الى درجة أصبحت معها أفتقده اذا ما سافر المغفور له والدي عدة أيام . في تلك الأثناء ارتكبت جريمة مروعـة لا يحملهـا ميـزان ، ولا يقبلهـا عقل ولا عرف . لقد عشقت ابنة الجير ان . ولم يكن العشق هو الجـانب المهم في الجـريمـة ، كلا ، كان الجـانب الأكثر خطورة هو فقر الفتاة التي

أحببتها . . كانت ابنة خضري فقير يبيع بضاعته بين الأحياء على ظهر حمار عليل . . « ابنة الخضري يا ابن الكلب ؟ . . ألم تشاهد غيرها يا ابن الحرام » . . هذه عينة من شتائم أبي التي كان يقذفها مع رذاذ بصاقه في وجهي وهو يوسعني ضربا . . « نعم ، ابنة الخضري ، لن أتزوج غيرها ولو انطبقت السماء على الأرض » . . وهذه عينة من أجوبتي العنيدة ، وصمودي الرائع الذي لم ينفع معه التهديد والوعيد ، ولا الترهيب والترغيب . . « سأزوجك ابنة فلان ، انه في مستوانا غنى وسمعة ، وحسبا ونسبا . أترك لي هذا الموضوع ، فأنا أدرى بمصلحتك » . . بمثل هذا الكلام راح أبي يرغبني بعد ان كلت يده من الضرب . . « لن أستبدل ابنة الخضري بكل نساء العالم » . . وهكذا كنت أجيبه باباء . تحطمت كل محاولاته على صخرة عنادي الشرير ، فلعنني وقذف بي خارج البيت . لم أحفل به ولا بلعناته .·. شمرت عن ساعد الجد ، ومضيت أعمل بكل طاقتي . . بعت الأمشاط والابر والمناديل على أرصفة سوق الحميدية . . بعت عصير الليمون المثلج أثناء الصيف . . نمت في الخانات ، وعاشرت حثالة المجتمع . . الى أن جمعت مبلغا من المال يكفي لاستئجار قبو صغير ، ويكفي أيضا لتغطية نفقات الزواج . .

تزوجت ابنة الخضري ، وعشت معها سعيدا . . وعندما بلغتني وفاة والدي ، وأنه حرمني من وراثته ، لم تؤثر تلك الأخبار على سعادتي أدنى تأثير ، سوى أنها حفزتني لمضاعفة الجهد . وتدعيم بيتي الصغير أكثر فأكثر . . واصلت دراستي بعد انقطاع طويل ، ونلت شهادة الحقوق . . أديت خدمتي الالزامية ضابطا في الجيش . . وشغلت وظيفة مدنية مرموقة . . نعم . . لقد حققت نجاحات باهرة . . ولكنني لم أستطع شراء بيت ، ولا اقتناء سيارة . . لم أستطع . . وأي موظف يستطيع أن يشتري بيتا ، ويقتني سيارة براتبه المحدود ، ومهما علت مرتبته ؟ . . هل يحتمل مثل هذه النفقات الباهظة ، سوى التجار وأبناء التجار ؟ . . كيف يستطيع أي موظف أن يجاريهم . . أنا على يقين أن أحدا لا يستطيع مجاراتهم في بذخهم . . سوى الموظف اللص . . الموظف المرتشي . . يا ولد . . يا أخ (كان ينادي الخادم) . . أين العرق ؟ . . أحضر لنا بأقصى سرعة عرقا وثلجا . . لا تنس المخلل والفستق . . لماذا تأخر اللحم ؟ . . أسرع . . أسرع فقد اقتربت المأساة (تحول الي من جديد) . . ماذا كنت أقول ؟ . . نعم . . كنت أقول أن الموظف مهما كانت مرتبته يعجز عن مجاراة التجار وأبناء التجار ، اللهم الا اذا كان لصا أو مرتشيا . . كان لكل واحد من اخوتي التجار منزله الفخم ، وسيارته الانيقة . وكنت أبادلهم الزيارات بعد وفاة

والدي دون أن أحمل لاي منهم ضغينة أوحسدا . بل انني كنت أرى نفسي أحسن منهم . . ألم أبدأ من الصفر ؟ . . ألم أصنع كل حياتي بيدي هاتين ؟ . . ألا يكفيني هذا زهوا وفخرا واعتزازا ؟ . . وماذا ينقصني ؟ . . كل سيارات البلد العمومية تحت تصرفي ليلا نهارا . . كل حدائق دمشق وشوارعها ومحلاتها العامة في متناول يدي . . فماذا ينقصني ؟ . . ولكن زوجتي المسكينة . . زوجتي الطيبة . . لم تكن ترى الصورة كما أراها . . كان لها موقف آخر ، وكلام آخر . . « عارف ألا نستحق سيارة تحملنا وأولادنا من هذا القبو الخانق الى فضاء الله الواسع ؟ . . عارف ألا يستحق أولادنا بيتا يؤويهم ويطمئنهم ! . . هل يستحقون كل هذا الحرمان وأبناء عمومتهم يبذخون في القصور والحرير والسيارات ؟ . . عارف . . أليسوا اخوتك ؟ . . أليس المال الذي ينفقونه . . » الى آخر المعزوفة التي بدأت تكررها وترددها على مسامعي ليل نهار . وهكذا الى أن وجدت نفسي ذات يوم أقبل الرشوة . . نعم . . لقد قبضت أخيرا . . ولم لا ؟ . . : مشاريع الدولة كثيرة ، وأموالها غزيرة ، والمتعهدون كرماء ، والمهمة سهلة ، وأنا أستحق . وسرعان ما اشتريت بيتا ، واقتنيت سيارة . ثم وجدت نفسي ذات يوم في غياهب السجن .

انكب على المنضدة ، وحملق في قعر كأسه برهة ، ثم نظر الى كأسي ، ورفع وجهه الي ، فلمحت في عينيه طيف دموع . قال بصوت مخنوق بعض الشيء :

ـ اشرب . . لماذا لا تشرب ؟ . . أمازلت تقلب كأسك الاول ؟ . . اذن دعني أجرع كأسي حتى الثمالة ، فقد بلغت المأساة ذروتها . .

تابع سرد قصته ، بعد أن ملأ لنفسه من جديد :

ـ قلت لك أنني وجدت نفسي في السجن . . لوحوا بعصا غليظة ، فتذكرت والدي ، وخيل الي أنه بعث حيا في شخص الجلاد . قلت لهم : أنا مذنب . . أنا أعترف بذنبي ، وسأروي كل تفاصيل جريمتي . ولكني لست المشكلة ، ولست المجرم الحقيقي . . المجرم الحقيقي هو الذي أفسدني . . المشكلة هي النظام الذي يعج بالمغريات ، ويتسع لعدد كبير من المفسدين . . المجرم الحقيقي هو أصحاب الاموال المنتفعين بالنظام . . أما أنا ، فتستطيعون سحقي ، ولكن أمثالي سيزدادون ويتكاثرون يوما بعد يوم ، ولن يزيدهم السحق الا تكاثرا . . سيمدكم النظام عل الدوام بأرتال منهم . .

صمت لحظة مفكرا ، ثم أردف :

ـ قلت لهم أشياء كثيرة من هذا القبيل ، فلم يضربوني . ووجدت نفسي بعد فترة في

الطريق ، وقد خسرت سمعتي ووظيفتي . ولكني لم استسلم ولم أيأس . . تعلمت كثيرا من تلك التجربة ، وها أنا أمامك على ما يرام .

سألته :

ـ هل قلت لهم حقا أن المشكلة هي النظام ، وأصحاب الاموال المنتفعين بالنظام ؟ . .

فحدجني بنظرة ساخرة ، وقال وهو يتململ ، ويبتسم بخبث :

ـ أنا لم أقل كلاما كهذا طوال حياتي . . المشكلة في رأيي هي هذه الموسيقى الجهنمية التي صمت آذاننا . . يا ولد . . يا أخونا . . أوقف هذا العويل في الحال . . اسمعنا بدلا منه بعض أغاني وتراتيل فيروز . . أسرع . . اسمع . . أين العرق ؟ . . أين اللحم ؟ .

•



٨ ـ تطورات هامة

انطلقت مساء قاصدا الفندق الذي ينزل فيه العم عبد الغني وابنته . كان الطقس صحوا ومعتدلا ، فقررت ان اقطع المسافة سيرا على الاقدام ، علني أدخل شيئا من البهجة الى نفسي ، وأسترد بعضا من حيويتي التي فقدتها عبر متاعب النهار .

مضيت أشق طريقي ببطء وصعوبة بين الناس الذين ازدحمت بهم الارصفة ، فاستوقفني حشد أمام أحد الحوانيت حيث كانت جمهرة من المارة تستمع الى نشرة اخبارية من احدى الاذاعات الاجنبية . وقد تضمنت النشرة تهديدات أحد القادة الاسرائيليين باحتلال دمشق .

عقب أحد المارة وهو يدعو رفيقه لمتابعة السير :

ـ واخواننا في الجنوب يلوحون باحتلال دمشق ايضا . سمعت اذاعتهم تردد الكلام نفسه ظهر اليوم . . ويقال أنهم حشدوا دباباتهم عل حدودنا . . ولكن ، هل هي مدينة سائبة ؟

ضحك ، وسأل صديقه ساخرا :

ـ أيهما تفضل أن يحتلك يا أخ ؟ .

أجابه برزانة :

ـ أتريد رأيي جديا ، ودون لف ولا دوران ؟ . أنا لا أفرق بينهما . . ان معلمهما واحد . . هذا هو رأيي .

والتقطت أذناي تعليقاً آخر صدر عن رجل قصير القامة ، ضئيل الجسم ، أنيق الهندام ، يعتمر قبعة مستوردة مصنوعة من الفرو الاسود . كان هذا الرجل يقول بعصبية وهو يدفع زوجته بعيدا عن الزحمة :

ـ فليأت الشيطان، وليذهب هؤلاء الكفرة الملحدون .

وفي تلك اللحظة ، مرت على مقربة مني سيارة مسرعة ، خيل الي أني شاهدت داخلها البلاف والدكتور نبيل صادق . ولم أستطع أن أجزم ان كانا هما حقا ، أم أنني توهمت ذلك .

* * *

عندما وصلت الفندق ، ووقفت في أول صالته ، أيقنت على الفور أن حدثا غير عادي قد وقع . كان العم عبد الغني يروح ويجيء من أول البهو الى آخره ، عاقدا ذراعيه خلف ظهره ، مدققا في الأرض محني الظهر ، كأنه يفتش عن شيء صغير وثمين أضاعه . وقد توقف بغتة كأن خطرا مفاجئا اعترض طريقه ، فانحنى الى الخلف دون أن يستقيم الجزء الاعلى من قامته ، وجعد وجهه وصغر عينيه كمن يهم بارتجال خطاب خطير ، وقبل أن يعاود السير حدث نفسه بهمهمات مسموعة ، ولكنها غير مفهومة .

راقبت هذا المشهد برهة وأنا في مدخل الفندق ، ثم توجهت نحوه ، فلما وقع نظره علي رفع يديه الى ما فوق رأسه الاشيب . . لكأنني أشهرت في وجهه سلاحا . . ولكنه عاد فأسبل ذراعيه ، وتقدم نحوي ، صامتا مبتسما ، باسطا كفه سلفا لمصافحتي .

لم تكن ابتسامته أقل غرابة من صمته ، فقد كانت تحمل نكهة ومعنى لا عهد لي بهما . وقد طمأنتني على نجوى ، غير أنها أيقظت كامل فضولي ، وشكلت أمام عيني عددا من علامات الاستفهام الكبيرة المحيرة .

شد على يدي بحرارة ، وربت بكفه الأخرى على كتفي ، ثم قادني الى أريكة في ركن قصي من البهو ، فأجلسني وجلس بجانبي دون أن يقول كلمة واحدة .

قلت وأنا أعاين حركاته ، وأدقق في تعابير وجهه المغضن الطيب :

ـ كيف حالك يا عمي ، وكيف حال نجوى ؟ .

فرفع رأسه بحركة تنم عن المباغتة ، وهمهم متعجلا :

ـ بخير ، احم ، بخير والحمد لله ، كيف حالك أنت ؟ .

ولكنه لم ينتظر جوابي . . حول وجهه عني متبرما بحركة طفولية تبعث على الضحك . وقلت لنفسي : هكذا اذن ؟ . . العجوز لا يريد أن يصرف ذهنه لحظة واحدة عن الموضوع الذي يشغله الى هذه الدرجة . ترى ماذا يريد أن يقول ، وما الخبر الذي

لجمه ، وشغله حتى عن عبارات الترحيب التي يجيد ترديدها ، ويتفنن في تنغيمها وتقطيعها وتوزيعها ؟ .

كنت متاكدا أن عقدة لسانه ستنحل متى عثر على الجملة المناسبة التي يبدأ بها حديثه ، وأن الكلام المخزون سيتدفق عندئذ مثل السيل الجارف . وكان علي أن أنتظر فحسب . فقد بدأ العجوز يتهيأ للحديث ، فعدل جلسته عدة مرات ، ومر بكفه على غطاء الأريكة يزيل شيئا لا وجود له ، وتنحنح مرة فأخرى بصوت متقطع ، ثم نظر الي وكأنه يستطلع مدى استعدادي لسماع حديثه ، أو كانه يطمئن في وجهي على ملامح أليفة يخشى أن يفتقدها . وبعد ذلك ألقى بهذه الجملة الغريبة متأنيا متأدبا :

ـ اذن أنت تعرف غانم بك ذهب الأرض ؟ .

دهشت الى أبعد حدود الدهشة ، فقد كانت المفاجأة كبيرة جدا بالفعل . . كانت أكبر مما توقعت وتخيلت بما لا يقاس . . ياللسؤال الدقيق الموزون الذي يفسر بايجاز كل تلك الحركات والمقدمات ، والذي يحمل جوابه في طياته . واذا كانت هذه هي المقدمة ، فأية قصة سأسمع ، وماذا حدث خلال الساعات الماضية ؟ .

كان العجوز يراقبني متخابثا « مبصبصا » وعلى شفتيه مشروع ابتسامة تستعد للظهور بأوسع شكل . وكنت أتأمله فلا أدري ان كان مستمتعا بدهشتي أم بمجالستي . كذلك لم أستطع ايجاد معنى محدد لتلك النظرة المتباهية المعجبة . . هل هو معجب بي ، أم بنفسه وبمفاجأته ؟ .

قلت وأنا أبذل جهدا كبيرا لأسيطر على مشاعري :

ـ نعم ، أنا أعرفه يا عمي .

فعبرت ملامحه عن خيبة مشوبة بالاستياء . فربما كان يتوقع جوابا أكثر أهمية وأبعد معنى . أما أن أكرر مؤكدا أمرا يعرفه ، وأعيد على مسامعه جوابا أورده ضمن سؤاله ، فان مثل هذا التصرف يعطيه كل الحق في الاستياء ، وفي ان تذهب به الظنون الى أي مكان ، فيتصورني أستخف به وأزدري بمعلوماته . أو يعتقد أني صبي غر لا يدرك مرامي أسئلة الرجال .

ولكي أتلافى ظنونه ، وأمهد له سبل الحديث ، أسرعت أقول :

ـ يبدو انك تعرفه يا عمي .

تعمدت في المرتين أن لا أذكر اسم غانم ذهب الأرض . ورغم ان العجوز لاحظ

ذلك دون ارتياح ، فقد أعجبته ملاحظتي الأخيرة ، وفتح الصنبور على آخره :

ـ أنا لا أعرف غانم بك من قبل . . هو ليس من جيلي كما تعلم . . انه من جيلك ، أليس كذلك ؟ .

فقلت بلهجة ضمنتها لونا من ألوان الاعتذار :

ـ وليس من جيلي أيضا . . يكبرني بخمسة عشر عاما على الاقل .

تأملني حائرا ، وتلعثم قليلا قبل أن يقول :

ـ هم ، أكبر منك بخمسة عشر عاما ؟ . .

قالها باستنكار ، وتصورت أنه يرغب في تكذيبي ، ولكنه تابع :

ـ على أية حال ، أنا لا أعرفه من قبل . . معارفي في القبور ، أو على حوافي القبور يا بني . . أنا أشبه بالضيف . . عابر سبيل لا يتسع وقته لاقامة صداقات وعلاقات مع الناس . .

ألقى نظرة على الصالة الخالية الا من صاحب الفندق ، وكأنه يبحث عن أحد ، فسبب له خلوها خيبة طفيفة ، الا انه قال رغم ذلك :

ـ عندما اشتركت في حرب الترعة (يقصد قناة السويس) كان جميع الناس الذين تشاهدهم من حولك في بطون أمهاتهم . ولكني ، كغريب ، يسعدني كثيرا ، ويشرفني كثيرا أن ألتقي برجال ظرفاء ، طيبين وكرماء . . رجال يحسنون لقاء عجوز غريب مثلي ، يشد رحاله استعدادا لسفر طويل ، ويتأهب للقاء ربه . . أي نعم ، تشرفت اليوم بالتعرف الى غانم بك .

صمت كأنه يستعيد في مخيلته تفاصيل اللقاء العذب ، رغبة بالاستمتاع لا أكثر ولا أقل . وبعد أن غاب لحظة مع ذكرياته ، التفت الي ، وقال وقد أشرقت أساريره :

ـ أأقول لك الحق ؟ كبرت في عيني كثيرا عندما حدثني عنك . . انه يحبك ، ويقدرك ، ويتحدث عنك بأدب . . ما شاء الله . . كبرت وأصبح لك أصدقاء من علية القوم . .

أحس كأن لسانه زل به ، فسارع يقول :

ـ ولكني توقعت لك شأنا كبيرا منذ صغرك . . كنت أراقبك بين أقرانك ، فأجدك مختلفا عنهم ، فأقول لنفسي سيكون لهذا الولد شأن وأي شأن ، وليس هذا غريبا . . والدك ـ رحمه الله ـ كان رجلا فاضلا ، رباك فأحسن تربيتك (مات والدي وأنا في عامي

الأول) وجـدك كان رجـلا ممتازا ، ومحترما . . أنت ابن عائلة كريمة ، وليس غريبا أبدا أن تعاشر أبناء العائلات الكريمة (كانت أسرتي صغيرة وفقيرة ، وكان جدي بائعا جوالا بين القرى) .

أراد ان يسـترسـل في اطـرائي ، وفي امتـداح « عائلتي الكريمة » ، لكنه توقف بغتة لسبب لا أعلمه ، وسألني :

ـ قل لي ، ألم يكن غانم بك نائبا في البرلمان ؟ .

ـ كلا .

ـ كلا ؟ . . ولكني بمجرد أن رأيته حدثت نفسي أني أعرف هذا الوجه . . أنا لا أعرفه من قبل كما ذكرت لك ، ولكني كنت أسمع به كثيرا . . أظنني شاهدت صوره على الجدران .

ـ رشح نفسه في الانتخابات النيابية مرتين ، ولكنه لم ينجح .

وكنت أريـد أن أضيف أنـه لم يحصـل في كلا المـرتين الا على بضعة أصوات ، ولكني أمسكت ، فقد لمحت في نظراته استياء مبعثه اجابتي دون شك ، فلعله لمس فيها شيئا من الشماتة . والحقيقة أني لم أكن أحس شماتة ولا تشفيا ولا أية مشاعر أخرى ، باستثناء رغبتي في استعجـالـه المضي في روايتـه . ولكن العجـوز ظل راغبا في التأكد من حقيقة مشاعري ازاء الرجل الكبير ، فعاد يسألني :

ـ ولكن أخـبرني . . لماذا اختفى اسمـه ، واختفت صوره ؟ . . لم لا تعينـه الحكـومة وزيرا ؟ . . أشهد انه يستحق أكثر من هؤلاء الوزراء الذين لم نسمع بأسمائهم . . أي زمان هذا الزمان الذي يرمى فيه ابن ذهب الارض جانبا .

قلت متجاهلا تلميحاته وتحدياته :

ـ يا عمي ، لكل زمان دولة ورجال . ولكن أخبرني كيف تعرفت به ؟ .

فقال وقد استعاد اشراقه ومباهاته :

ـ بعد أن غادرنا عيادة الطبيب ، قمنا بزيارة الجامع الاموي . . صليت الظهر ، ثم توجهنـا الى الفنـدق على أقـدامنـا ، فقد أرادت نجوى أن نتمشى قليلا . وبينما نحن نهم باجتيـاز أحـد الشـوارع ، استوقفنا شخص يقف على الرصيف ، ونصحنا أن ننتظر الضوء الأخضر ، ثم نعبر ، وشرح لنا أن النظام يلزمنا بذلك حماية لأرواحنا . فشكرناه ، وانتظرنا الاشـارة الخضـراء ، فلما أضـاءت حسب الاصـول ، نزلنـا عن الرصيف ولم نقطع خطوتين

حتى داهمتنا دراجة عادية صدمتها من خلفها سيارة صغيرة ، فأي نظام هذا النظام ؟ .

قلت :

ـ اذا خالف أحـد السـائقين ، أو أحد المشاة ، وتسبب في حادث ، فليس معنى هذا أن النظام هو المسؤول . . ولكن هل مر الحادث بسلام يا عمي ؟ .

فلم يأبه لسؤالي ، وقال مغتاظا :

ـ الانظمـة يا بني لا تمنـع قضـاء الله وقدره ، ولولا لطفه ورأفته بنا لدهسنا تحت سمع النظام وبصره . .

وكاد يسترسل في هذا المنحى ، لولا أني قاطعته :

ـ ولكن ماذا حدث لكم بعد ذلك ؟

ـ كان راكب الدراجة رجلا فقيرا مغبر الثياب . . لعله عامل بناء ، أو شيء من هذا القبيـل . . وكـان يحمل تحت ابطـه كيسـا ورقيـا محشـوا بالخبـز ، والفـلافـل ، والفجـل والبنـدورة . . مسكـين . . أنـا لا أشـك أنـه كان يحمل عشاء أطفاله . وقع الرجل علينا ، وتناثرت محتويات كيسه في الوحل ، وداستها الاقدام ، وقد أعانني الله فتلقيته بصدري . . الا أن نجوى سقطت على الارض . . لا تخف . . لا تنزعج يا بني . . انها بخير . . تلقتها أكف الملائكة ، فكأنها سقطت على أريكة من ريش النعام . . تلوثت ثيابها بالوحل فقط ، وهذا كل ما أصابها من ضرر . . نعم . . أمسك بعض الرجال بتلابيب صاحب الدراجة ، وصـاروا يهزونـه حتى كاد يقـع على الارض ، فتدخلت ، ومنعت الناس عنه . . وما ذنب ذلـك المسكـين ؟ . . لا ذنب له أبـدا . . التـوت عجلة دراجتـه التـواء كبـيرا ، وفقد عشاء أولاده . أما من جهتنا ، فقد مر الحادث بسلام . أراد البعض استدعاء الشرطة ، فرفضت ومنعتهم من ذلك ، وقلت للرجل : اذهب الى اهلك بسلام . وفي تلك اللحظة تقدم منا صاحب السيارة ، فما أن وقع نظري عليه حتى تساءلت : ترى أين رأيت هذا الوجه ؟ . . كان غانم بك شخصيا . . أسرع بكل حمية وشهامة ، وقاد نجوى الى سيارته ، ثم عاد الى الرجل الفقير وفي يده خمسة وعشرون ليرة قدمها له . ولكن أتدري ؟ . . لقد رفضها الرجل المسكين . . رفضها دون أن يكلف نفسه عناءالنظر اليها . قال لغانم بك وهو ينظر في عينه بثبات كلمتين اثنتين لم يزد عليهما حرفا واحدا : لست محتاجا . هل تصدق هذا ؟ . . أقول لك الحق ، لقـد أعجبني موقف هذا الـرجـل الفقـير . . ولكني تأثرت أيضا لحالة البك . . كان محرجا جدا . . صعب عليه أن يعيد يده مليئة ، وأن يرجع المبلغ الى جيبه . . أنا أفهم

مشاعر الرجال النبلاء ، خاصة اذا كان مثل هذا المشهد على مرأى من عيون عشرات الناس الفضوليين . بعد ذلك حمل الرجل دراجته المعطوبة على كتفه ، وذهب في حال سبيله . أما غانم بك ، فقد أسرع الى متجر قريب ، وأحضر ابريق ماء قدمه الى نجوى مع منديله لتزيل الوحل الذي علق بثوبها وحذائيها ، متوسلا اليها أن لا تؤاخذه ، وأن تعفو عنه . . أذابنا خجلا بلطفه وتواضعه ، فأصبحنا لا ندري ماذا نقول وماذا نفعل . أراد أن يعيد بنفسه الابريق الى صاحبه فانتزعته من يده عنوة ، وأثناء عودتي من المتجر وقع نظري على بطاقة شخصية مرمية في الوحل قرب المأكولات المبعثرة ، فلما التقطتها ، وجدت أنها تخص العامل صاحب الدراجة . . سقطت منه حتما بينما الناس يمسكون بتلابيبه ، ويهزونه هزا عنيفا . . أين هي هذه البطاقة ؟ . . انها معي . . في هذا الجيب على ما أظن . . هذه هي . . خذ . . هل يمكنك اعادتها الى صاحبها ؟

فتناولتها من يده ، وقلت وأنا أتأملها :

ـ سأفعل ذلك . . ثم ماذا حدث يا عمي ؟

قال :

ـ بعد ذلك حدثت أشياء كثيرة . . كان غانم بك ودودا ، ولطيفا جدا ، وقد حملنا بسيارته الى الفندق . . تصور أنه يعرف معلومات هامة عن مشكلتنا مع الانكشارية ، وعن المشروع الزراعي المشؤوم . . قال أنهم طبقة متفسخة جاهلة لاقت مصيرها المحتوم . . نعم . . هكذا وصفهم بالضبط . . حفظت هذا الوصف عن ظهر قلب ، ولن انساه أبدا . . طبقة متفسخة جاهلة لاقت مصيرها المحتوم . . رأي صحيح ، ووصف مناسب تماما ، يصدر عن رجل يفهم الناس على حقيقتهم . . غانم بك يا بني بحر من العلم والمعرفة . .

استمر بضع دقائق ، حسبتها بضع ساعات ، يشيد بغانم ذهب الارض ، ويعدد مآثره ، ويردد أقواله . كان العجوز فخورا ومزهوا الى أبعد الحدود . وما كنت أملك الا المسايرة والانتظار ، واحتمال استطراداته الكثيرة ، فقد كان بحكم سنه مهذارا ، سريع الغضب ، كثير النسيان . وقد انتقل أخيرا الى الامور التي تهمني معرفتها فقال :

ـ سألني غانم بك ان كنت أعرف أحدا في دمشق ، فأخبرته أنني لا أعرف غيرك . . وعندما ذكرت اسمك . . ليتك رأيت أي اهتمام ظهر على وجهه عندما سمع اسمك . كأني ذكرت أمامه اسم أحد الوزراء . . ماذا بك يا بني ؟ . . هل أنت مريض ؟ . . هل تسمعني ؟ . .

أسـرعت أسيطـر على أعصـابي ، واستعـير بصعـوبـة بالغـة قناعا هادئا مريحا ، ثم طمأنته ، ورجوته أن يتابع حديثه ، فتابع :

ـ . . . سألني بدهشة : أنت تعرف الاستاذ سعد أمين ؟ . . طرح سؤ اله باحترام بالغ لا أستطيع أن أصفه لك . . هل تصدق ؟ . . تهيبت أن أجيبه بنعم . . تصورت أنه يقصد شخصـا آخـر يحمـل نفس الاسم . . ولكني تأكـدت أنـه يقصـدك بالـذات ، ومـع ذلك لم تبـارحني الخشيـة . . تلعثمت ، وقلت لنفسي : أيهـا العجـوز المسكـين ، ألا تبـالغ عندما تدعي أنـك تعـرف الاستـاذ سعـد أمـين ؟ . . أي نعم . . الى هذه الـدرجـة كان المـوقف هائلا . . ولكني سرعان ما تمالكت نفسي ، وتخيلتك أمامي صبيا تلعب مع نجوى ، فقلت له : سعـد مثـل ابني تمامـا يا غانم بك ، ربيتـه على يدي هاتـين ، وأحبـه مثلما أحب ابنتي نجوى . . هذا ما قلته له ، فانفرجت أساريره ، وعاد يرحب بنا من جديد ترحيبا حارا أعجز عن اعادته . . كدنا نذوب من الخجل ، ونحن نرى الرجل المهم النبيل ، يكرمنا كل ذلك الاكرام . . قال لنا أنك من أعز أصدقائه . . قال : الاستاذ سعد أخي ، واذا كنت تعتبره مثل ولدك ، فاعتبر ني مثله . نعم . . هذا ما قاله بالحرف الواحد . . لا يمكنك أن تتصور مدى تأثري وأنا أستمع الى كلماته . . .

اختنق صوته للحظة من الانفعال ، وراح يربت على ظهري ، وكأنه يعتبر ني منفعلا مثله ، باعتبارها مسألة تخصنا معا ، وتمس في قلبينا أوتارا واحدة . وبعد أن تصور ـ على ما يبدو ـ أنه نجح في تهدئة عواطفي الجياشة ، تابع حديثه :

ـ . . . عرض خدماته بخصوص نجوى ، فقال أنها أخته أيضا ، وأنه يود لو يفعل شيئا من أجلهـا . وسألني ان كنت أرغب في نقلهـا الى بير وت لتعـالـج هنـاك ، أو حتى الى اوربـا . . نعم ، هذا ما قالـه . . حتى الى أوروبـا . فعجـزت عن ايجـاد عبـارات الشكر المنـاسبـة ، وقلت له أنهـا الآن قيد العلاج ، وأن الطبيب سيعطينا نصيحته بعد فترة . فقال أنـه سيكـون دائـما تحت تصـرفنـا ، وسيتصـل بنا باستمرار للاطمئنان . وعندما وصلنا الى الفندق ، قبل دعوتنا لتناول القهوة ، وجلس معنا على هذه الأريكة بالذات ، نعم ثم ودعنا وانصـرف . ولم تمض ربـع ساعة من الوقت ، حتى جاءنا صاحب الفندق يحمل طاقة كبيرة من الورود ، وقال وهو يضعها أمامنا أنه لم ير في حياته أروع وأجمل منها . وكانت تحمل بطاقة عليها اسم غانم بك ، وتمنياته لنجوى بالشفاء العاجل .

وصـل العم عبـد الغني الى نهاية حديثه وقد بلغ ذروة الانفعال والحماس . كان متعبا

مبهور الأنفاس . ورغم انتهاء القصة راح يفتش بلهفة واصرار عن جملة أخرى يضيفها أملا في أن يعود فيضيف اليها ما تيسر ، ثم يجر الكلام بعضه بعضا . ولكني اضطررت أن أحول بينه وبين ما يريد . لقد بذلت جهودا لا تطاق كي أسيطر على أعصابي ، وأتمكن من ضبط نفسي طوال الوقت . أما وقد حصلت على التفاصيل والوقائع والمعلومات التي أريدها ، والتي جلست مكرها أعذب نفسي أشد العذاب من أجل الحصول عليها . . أما وقد تأكدت أن العجوز قد قال كل ما عنده ، ولم يغفل أية واقعة ، صغيرة أو كبيرة ، فقد بت أشعر أني لم أعد أحتمل اضافة أية كلمة أخرى حول الموضوع نفسه . وبلغ هذا الشعور من الحدة درجة جعلتني أخشى أن يفلت زمام نفسي من يدي ، ويزل لساني ، فأتصرف بفظاظة ، أو أرتكب حماقة بحق العجوز المسكين لا تبرر ولا تغتفر . ولذلك أسرعت حالما توقف لالتقاط أنفاسه ، ودفعت الحديث بقسوة في اتجاه آخر .

قلت :

ـ عمي . . جئت أحمل اليكم اقتراحا وأرجو قبوله . .ما رأيكم بالانتقال الى البيت ؟ . . انه صالح لسكناكم ، وأعتقد أن نجوى ستشعر هناك بالراحة أكثر بكثير .

فرفع رأسه بعنف ، وحملق في وجهي . كان هذه المرة غاضبا حقا . . لكأنني اسقطته بطلقة بندقية غادرة من الاجواء السامية الرائعة التي كان يحلق فيها .

سارعت أقول موضحا :

ـ لا بد وأن نتابع أحاديثنا في وقت آخر ، فأمامنا متسع من الوقت . . أما الآن ، فقد تأخرنا . . أنظر الى الساعة . . ثم اننا جلسنا كل هذه المدة دون أن نتفقد نجوى ، بالاضافة الى أنك نسيت أن تعلمها بوجودي هنا ، ولا أدري ماذا ستقول عني وعنك حين ستكتشف أننا نتهامس هنا طوال الوقت بعيدا عنها . . أضف الى ذلك أني مازلت مرتبطا ببعض المواعيد . .

فقاطعني وقد تبخر غضبه ، واحمر وجهه :

ـ هذا يكفي . . هذا يكفي . . معك كل الحق ، فقد سرقنا الوقت ، وفاتني فعلا أن اتفقد نجوى وأعلمها بوجودك . ولكني معذور يا بني ، ولا أحد يؤاخذ عجوزا مثلي نتيجة هناته وحماقاته . . أتدري ؟ . .

قرب فمه من أذني ، وقال هامسا :

ـ . . اكتشفت مؤخرا . . مساء البارحة بالذات . . أني أصبحت ثرثارا مثل النساء

العجائز . سهوت قليلا على المقعد وأنا بكامل ثيابي ، وفجأة سمعت صوت نجوى تناديني مرتاعة . . بابا . . بابا . . قفزت نحوها مثل النمر الوثاب ، فأغرقت في الضحك ، وقالت لي . . لو تعلم ماذا قالت . .

راح يضحك من قلبه ، ثم تابع :

ـ قالت لي : أخفتني كثيرا . . ناديتك عدة مرات فلم تجبني ، وأنا أعرف أنك لا تكف عن الكلام مادمت ترتدي ثيابك . ما رأيك بهذه الحكاية ؟ . . خيل اليها أنني أسلمت الروح لأني سكت لحظة .

نهض متكئا على ساقيه ، وقال :

ـ اذن أنت تقترح أن ننتقل الى بيتك ؟ . . أنا شخصيا لا مانع لدي ، فأنت ابننا ، وبيتك بيتنا . . المهم هو رأي نجوى . . تعال معي نتحدث اليها . . تركتها تقرأ ، وأرجو أن تكون مستيقظة .





الأيام التالية

٩ ـ مشهد لا يستحق الذكر

في حيـاة كل منـا لحظـات ضعف من نوع خاص ، يتلاشى خلالها تاريخنا الشخصي بمجمـل فصـولـه ومشـاهـده ، ويـبرز مشهد بعينه ، قد يكون أحقرها شأنا ، ليفرض ذاته كحقيقة وحيدة لا يوجد أي شيء قبلها ، ولا يوجد أي شيء بعدها ، فاذا ما استطاع هذا المشهـد اجتيـاز نطـاق اللحظة ، تحل المأساة المحزنة ، ويترك الانسان آفاق الحياة الرحبة ، ليدخل في قارورة المشهد الصغير ، فيقيم داخلها سجينا بعض الوقت ، أو كل الوقت .

أليس هذا ما اصطلح الناس على تسميته جنونا دائما ، أو جنونا مؤقتا ؟ . . واذا كان الأمـر كذلـك ، فهـل تكـون في حياة كل منا لحظات جنون ؟ . . أليست مظاهر الجنون هي تلك التي يرفضهـا العقـل ، ويـدحضها المنطق ، ويأباها العرف ، وتعافها النفس في بعض الأحيـان ؟ . . أليس الجنـون هو ذلـك السلوك الـذي لا نجـد له تفسـيرا متـداولا ، وذلك الكلام الذي لا نجد له معنى ولا سببا ، ولا مناسبة ؟ . .

والا فكيف أفسـر ارتبـاكي وتضـاؤ لي الى درجة تلاشى معها مجمل تاريخي الشخصي أمام فتاة نصف مقعدة ، فلم يبق منه سوى مشهد واحد . . شجرة توت هرمة ، تحتضن بين أوراقها الخضراء الكثيفة صبيا وصبية . . لا شيء قبل ذلك ، ولا شيء بعد ذلك . .

ولكني كنت حانقا ، أقاوم ضعفي بضراوة ، وأتشبث بالمقاومة كدليل على نضجي ، وسلامة صحتي وحواسي ، فأرفض أن أعترف بهذا النوع الشاذ من الضعف ، حتى أمام نفسي .

كنت أدافـع عيـون نجـوى ، وأدانيها في آن واحد . . أقاومها ، وأعانقها . . أتلهف اليهـا ، وأهـرب منهـا . . عيـون نجوى ترامقني . . وارتباكي يكاد يفضح الصراع الضاري داخـل نفسي ، فأضـع يدي في جيوبي ، وأخرجها في الحال . . ألقيها وراء ظهري ، فلا تستقـران . . أعقـدهما فوق صدري ، فلا أحتمـل ثقلهـا . . وعنـدئـذ ألجأ الى الجدار ،

وأستنـد اليـه مذعـورا . . أتـراهـا تحس بما أعـاني ؟؟ . . أتـراهـا تذرك خلجـات جسمي ونفسي ؟ . . واللحظـة تستمـر وتستمـر ، فهـل توقف الـزمن ؟ . . وأنـا أنـاضـل ، وأقاتل الضعف . . أخـوض أقسى معـارك حيـاتي ضد هذا الضعف الشيطـاني ، الـذي يحاول مستميتـا تجاوز اللحظـة ، لينتصـر عليّ ، ويحبسني في القـارورة . يا ربي . . كيف تبخـرت كبر يـائي ، وأين ضاعت خبرتي وتجاربي ؟ . . وبماذا أفسر حالتي ، وكيف سأجتازها ؟ . . كيف ؟ . . وعيـون نجـوى ترامقني . . أقاومها ، وأعانقها . . فأي خدر لذيذ ، وأية جهنم حمراء يا الهي ؟ . . فتـاة نصف مقعـدة ، لا تعـرف رأيي بها ، ولا أعرف رأيها بي . لم أبادلها حديثـا مفيـدا طوال حيـاتي . . لا علم لي بميـولهـا ، وأميـل اليها اكثر من ميلي لأي انسان آخـر . واذا قلت أني أحبهـا بالمعنى الـذي تعارف عليه الناس ، أكون كاذبا . كانت أقصى أماني فيما مضى أن تتكرر حادثة شجرة التوت ، فيتعلق ثوبها بالغصن ، وأتقدم منها خجلا حذرا ، فتلتقي نظـراتنـا ، وأضطـر لاحتضـانهـا ريثما أخلص ثوبها ، فأكاد لشدة جزعي أن أسقط الى فناء الدار . . فأية أمنية ساحرة ومستحيلة هذه الأمنية التي ماتزال تقيم في أعماق نفسي ساكنـة ؟ . . . ومن يستطيـع أن يديـر عجلة الـزمن الى الـوراء ؟ . . ولـو تجرأت أن أطلب ، وقبلت نجوى . . لو قبلنا كلانا اليوم ، أن نكرر الحادثة بحذافيرها ، فأي مشهد مضحـك سيكـون هذا المشهـد المستحيـل ؟ . . . وعيـون نجـوى ترامقني . . فأقـاومهـا ، وأقاومها . . وتنتهي اللحظة ، وأنتصر على ضعفي ، وأجد اخيرا ليدي التائهتين مكانا .

قالت وعيناها تومضان وميضا رائعا :

ـ أنا موافقة . . متى ننتقل ؟ . .

قلت بلهفة صادقة واعية ، لا أثر فيها للضعف :

ـ في الحال . . نذهب في الحال .

فأشـرقت بابتسـامـة جذابـة ، كشفت عن أسنان جميلة ناصعة البياض . وشردت هنيهة ، فخطر لي أنها قد تعود عن موافقتها . ولكنها هتفت بفـ ـة طفولية :

ـ اذن أسرعوا . . لنذهب في الحال . . أسرعوا .

غمرنا جميعاً فرح صبياني ، بينما نحن نجمع الحوائج ، ونـ ـلأ الحقائب ، وننتقل من هنـا الى هنـاك . وضحكت نجـوى من صميم قلبهـا وهي ترانا ـهب ونعود مرات متعددة بأيد فارغة . ثم رأيتها تتحامل على نفسها وتنهض ، وتتحرك مع بلا عكازتين ، انما ببط وحذر شديدين . ورغم ذلك أنجزت لوحدها ثلاثة أرباع المهمة . ولم تمض نصف ساعة من الوقت ، حتى كانت سيارة تنهب بنا الأرض في اتجاه البيت .

١٠ ـ أجوبة مباغتة !

أنـا على موعـد مع هديـر الطـائـرات كل صبـاح ، وقد أيقظني سرب منها كالعادة . انتزعني من أحلامي بقسوة ، وحال بيني وبين أطيافي مثل سجان يعلن بجلافة عن انتهاء الزيارة .

أنـا مولـع أشـد الـولـع بأحلامي وأطيافي ، ولن أتردد في جعلها متواصلة طوال الليل والنهار اذا اقتضى الأمر ذلك .

أنـا لا أريـد أن أمـوت حيـا . . لا أريـد أن أكون حيا وميتا . . تقتلني رعبا رؤ ية جثة منتنـة تفـر بنفسهـا من نفسهـا ، فتركض في الشـوارع هلعـة مجنـونـة ، وأصـابعهـا على خيـاشيمهـا ، ونتف جافة منها تتطاير في الهواء . . تستوقف المارة ، وتستجديهم قبرا ترقد في جوفه الرطب آمنة مطمئنة .

أنا أتعذب طوال النهار ، فأجد في عذاب الليل الأليم الأمن والراحة . . ألوذ بفراشي كطفل رضيع عاد الى أحضان أمه المصدورة بعد غيبة طويلة . . وقبل أن أقبض على ناصية سلطان النوم ، وأرغمه على معانقتي ، يجافيني راضيا متمنعا مثل مومس يروقها تقليد عناق العذارى ، ثم لا تلبث أن ترتمي على ظهرها ، وتكشف ساقيها اللتين غطتهما الكدمات ، وتقهقه بفجور ساخرة من فارسها الذي تداعى فوق صدرها المظلم صريعا في أوحال الجوع والرغبة . .

أنـا ألتقي كل ليـل بأطيـاف محترمـين ، تفضلوا فأبقـوني على صلة بحقبة من الحياة الحقة ، الموغلة في القدم . . حقبة لا تصلنا بها جسور ولا طرق ، بعد أن انهدمت الجسور ، واندثرت الطرق .

أنـا أعشق الليـل ، لأن أحـلامي على مرارتهـا أحلى من الشهـد ، وأصـدق وقعا في النفس من أحـلام اليقظـة . . أطيـاف الليـل أكثـر واقعية ، وقوة ، وحياة من أطياف النهار

المزيفة المضحكة ، التي تشبه دمى مسرح العرائس .

أنا الآن في فراشي ، وقد حان موعد رفع الستارة عن العرض اليومي ، الذي يتوجب علي أن أحتمله ريثما يأتي ليل آخر .

* * *

حاولت قبل أن افتح عيني المغمضتين مداعبة نفسي ، وجعلها تستقبل يومها الجديد منشرحة ، فأنا أفعل ذلك عادة . . أتمرن على الانشراح ، وعلى أمور أخرى كثيرة لا غنى عنها في معترك الدنيا ، مثلما تتمرن بعض الحيوانات الذكية على تأدية الحركات التي تكسبها عطف الانسان ورعايته . والا فماذا أفعل ، وكيف أعيش ؟ . .

بالتمرين أروض نفسي ، وأكسبها الصفات التي تنقصها . أما أول وأهم الفضائل التي أحاول جاهدا اكتسابها ، فهي فضيلة الصبر التي لا يستغني عنها من يرغب في مواصلة التنفس . ولولا أن الحمار يتحلى بهذه الصفة الطيبة ، لانقرض منذ عهد بعيد .

والابتسام أيضا . . يجب أن أمرن شفتي عل الابتسام ، وسأبدأ الآن . . ولماذا الخجل وليس هناك من يراني ؟ . . الكثيرون يتمرنون على الابتسام ، وفي المجال التطبيقي مباشرة . . أناس شجعان تلتقي بهم في كل مكان ، فما أن تلتفت اليهم ، حتى يبدأ التمرين عليك . . نعم ، وأنا في فراشي ، وعندي في الساعة التاسعة من هذا الصباح موعد يحتاج الى كثير من الابتسام .

النساء اجمالا ، يملن الى المبتسمين عامة ، ويعشقن المرحين خاصة ، وينفرن من الوجوه الكئيبة ، المتخلفة . وأنا أعرف فتاة بديعة الحسن ، تهيم حبا وغراما ببغل ينقصه الذيل ، الا أنه يتقن الضحك بمناسبة ، وبدون مناسبة . ويحفظ عشرات ، بل مئات النكات ، يلقيها حتى في المآتم . تلك هي كل مؤهلاته التي جعلته معبود تلك الحسناء ، مضافا اليها سيارة على ما اظن . وسوزان التي سأقابلها في التاسعة ، واحدة من النساء يجمعها واياهن المزاج المشترك ، والميول المتقاربة . وأنا لا أطمح أن أكون معبود النساء ولا غيرهن ، لأن هذا المركز العام يتطلب موهبة عالية في التمثيل ، قوامها التهريج بشكل أساسي . ولكني لا أريد أن أظهر امامهن سمجا منفرا . فاذا كنت لا أملك سيارة ، ولا أجيد الضحك المدوي ، وأحفظ عددا قليلا من النكات ، ولا أرويها خشية أن تؤدي الى

غير النتيجة المرجوة ، فلأتمرن - أقلها - على الابتسام ، ولأضمن صداقة سوزان كحد أدنى ، فأنجو بسمعتي وكرامتي ، وأصون رجولتي من سخرية المرأة الجارحة . . ولماذا أخجل ؟ . . سأتمرن فان أحدا لا يراني . . ثم ان العراة يملأون الشوارع . .

في تلك اللحظة ترامى الى سمعي صوت العم عبد الغني ، ففتح عيني ، وأيقظني تماما مثل دفقة ماء باردة . نهضت توا ، وهرعت الى ثيابي أرتديها على عجل ، كأني دوهمت عاريا في مخدع محرم .

* * *

وجدت نجوى جالسة باتجاه النافذة ، تنقل بصرها بين جبل قاسيون ، وبين ديوان شعر للسياب . كانت مثل حمامة تغط رأسها في ماء الغدير ، ثم ترفعه محدقة في الأعالي . فاعتصرت قلبي الشفقة ، وتسللت برفق ، وجلست غير بعيد عنها . . أشعار السياب تنسحب كالنصل المرهف على الأحشاء ، فأتابعها بعيني ، وكأنها تشرح أحشاء غيري . وأذكر أنني تصفحتها ذات ليلة ، فما أويت الى فراشي ، ولا خلعت ثيابي ، وغادرت المنزل في الصباح مثلما كنت حين دخلته في المساء . . ومن يستطيع تجاهل صرخات انسان دفن قبل الاوان ؟ . . انسان يتحدث عن مأساته بعد أن فارق الحياة .

أحست نجوى بوجودي ، فخضبت وجنتيها حمرة خفيفة وهي تبادلني تحية الصباح . وبعد قليل سألتها ان كانت تقرأ الشعر دائما ، فأومأت بالايجاب ، بينما أناملها تداعب صفحات الكتاب الذي استقر في حجرها ، ووصل بين ما يجول في خاطرينا .

قالت :

- ان هذا الكتاب بالغ التأثير في النفس .

فوافقتها على ذلك ، وأضفت :

- خاصة في النفوس الرقيقة ، ذات الاحساس المرهف .

فعبرت ملامحها عن الارتياح الذي يبعثه الشعور بالمشاركة . ثم ابتسمت وقالت أن أباها يضيق به كثيرا ، ويحاول اقناعها بقراءة أشعار أبي النواس ، وأردفت ضاحكة :

- لا أدري أين التقى والدي بأبي النواس ، وكيف واتته هذه الفكرة . . هل تعتقد انه اشتراها كنصيحة طبية ؟ . .

فأفرحني ضحكها ، ومنحني حرية تلوين الحديث . وحدثت نفسي أن العجوز لاحظ دون شك نتـائـج مطـالعـة أشعـار السيـاب ، فاستـدل على أبي النواس متوهما أنه يستطيع نجدته ومساعدته .

وباعتباري أفهم المسألة على نحو آخر ، فقد قلت :

ـ يخيل الي أن اشتراك أكثر من واحد في مطالعة أشعار السياب أمر مستحسن ، يحقق نتيجة أفضل . . مارأيك ؟ . .

فقالت دون أن تهجر البسمة شفتيها :

ـ أوافقك ، على أن يفعل ذلك أناس يتقاسمون حجرة واحدة في مستشفى .

باغتني جوابهـــا . . نقض جراحى ، وذر فيهـــا الملح . . آه يا نجـــوى . . لا تحسبي نفســك المـريضــة الـوحيـدة . . لا تخطئي هذا الخطأ الفادح . . وهل هناك مستشفى يتسع لملايـين المـرضى ، أحسنهم حالا وأقلهم عددا أقعـدهم الشلل . أما أسوأهم حالا وأكثرهم عددا ، فقـد فتـك الســرطـان بأحشـائهم . . الأصحاء هم الشواذ يا نجوى . . الأصحاء يقتلون ، أو يحجرون ، كيلا تنتقل عدوى الصحة . .

قلت لها وأنا أحس أنني مريض :

ـ دعينا نقرأ معا ، اذا كان ذلك لا يزعجك .

فقرأت :

لأحببت لو أن في القلب بقيا
ـ وقد لفه الليل ـ للمشرق
يقولون « مازلت تحيا » . . أيحيا
كسيح اذا قام أعيا
به الداء فانهار لم تخفق
على الدرب منه الخطى يا أساه
ويا بؤس عينيه مما يراه
يقولون « تحيا » فيبكي الفؤاد
فلو لم يكن خافقا لاستراح
.. ..
.. ..

كفت عن القـراءة بصـوت عال . . هذا كثير بالفعل . . هذا كلام مريع يفوق الاحتمال ، بالنسبة لانسانة تعيش حالة مشابهة . وقد تابعت لوحدها قليلا ، ثم قلبت عدة صفحات ، وعادت تقرأ :

خلا البيت ، لا خفقة من نعال
ولا كركرات على السلم
وأنّت على الباب ريح الشمال
وماتت على كرمه المظلم
تلاشت خطى موكب الدافنين
ومن مسجد القرية المعتم
تلوى كما رف فوق السفين
شراع حزين . . . .
أذان . . . .

أغلقت الكتـاب ، وألقتـه في حجـرهـا ، وكأنهـا سقطت اعيـاء ، وارتعشت شفتهـا السفلى رعشـة واحـدة ، ثم اغتصبت ابتسـامة تسلحت بها بكبر ياء . كانت تملك ابتسامة فريدة في معانيها وجاذبيتها ، عابقة بنكهة الأمثولة . لكأنك تستمع الى الخنساء وهي تلقي قصائدها الملتاعة الشجاعة ، فتتأرجح وأنت تراها بين القوة والأسطورية ، وبين الضعف البشري .

هممت أن أقـول لها : أنت شابـة ، وجميلة ، وقـابلة للشفـاء ، وستشتـد ساقـاك وتحمـلانـك ومعـك طفـل ، والدنيا أمامك واسعة الأرجاء ، والحياة مديدة ، بقي منها أكثر بكثير مما مضى ، وأؤ كد أنك ستشبعين منها حتى التخمة ، وستعوضين ما فاتك ، بل وأكثر مما فاتك ، فالعمر ساعات من الرضى والسعادة ، والعمر فرص معدودات بعضها من صنع المصادفات ، وبعضها الآخر نصنعه بأنفسنا . هممت أن أواسيها بمثل هذا الكلام ، ولكني أمسكت حين انتبهت أنها لم تشك أبدا . وبقيت لحظات أعاني حرجا شديدا مزعجا لا مبر ر له ، نتيجة لخطأ لم ارتكبه ، وانما كان يمكن أن أقع به فيما لو انزلق لساني في مواساة سخيفة تجرح كبر يـاءهـا ، وتصغرني في عينيها . فمن يتجنب الشكوى تجرحه المواساة ، ومن يأنف التسول تؤ ذيه الصدقة ولو كان يطوي الليالي جائعا .

* * *

كنت مطرقا أحاول تجميع شتات ذهني ، وتركيزه حول نقطة محددة ، حين حدث ما قلب الموقف رأسا على عقب . فقد سمعت نجوى تقول وكأنها تتحدث من أعماق بئر :

ـ أنت لا تحب غانم دهب الأرض !

فاعتقدت للوهلة الأولى وأنا أستطلع وجهها الهادىء ، أن أذني خدعتني . ومع ذلك فقد تبخرت دفعة واحدة كل الأفكار المفككة التي كانت تحاول أن تتشكل في رأسي . وقبل أن أجد أية كلمة صالحة ، عادت تقول :

ـ انه يشغل حيزا كبيرا في ذهنك . . هل أنت تبغضه ؟ .

قلت وقد أدهشني طرحها الى أبعد الحدود :

ـ أنا لا أحبه ، ولا أدري ان كنت أبغضه . . لم يسيء الي شخصيا حتى الآن .

ـ اذن ، هل تخشاه ؟

ـ ولماذا أخشاه ؟ !

ـ لأنك تتوقع أن يسيء اليك . .

سرحت قليلا ، ثم قالت كأنها تتحدث الى نفسها :

ـ أنا أفهم تماما كيف تكون الخشية المسبقة . وأعرف في أي جحيم يعيش الانسان وهو يتوقع شرا لا يدرك صورته التي سيبرز بها .

قلت وقد استيقظ كبريائي كرجل يتحدث الى سيدة :

ـ أنا أتوقع اساءته ، ولكني لا أخافه .

ثم أضفت على الفور مستفسرا :

ـ ولكن ما أدراك أني لا أحبه ؟ . .

ابتسمت فعبقت ابتسامتها برائحة الأمومة ، وقالت وقد لاحظت تلهفي لسماع اجابتها :

ـ أنت تعلم أني تعرفت به ، واستمعت الى أحاديثه ، وخاصة ما يتعلق منها بك . وقد اقتنعت أن الرجل يبالغ كثيرا في ادعاء صداقتك وأخوتك . . لم تكن مبالغاته مريبة فحسب ، وانما كانت مفضوحة . . وبعد ذلك قلت لنفسي أن هذه الصداقة تنضح بالكراهية .

سألتها وأنا مأخوذ بجو الاثارة الذي اشاعته كلماتها :

ـ وصلت الى هذه النتيجة بمجرد استماعك اليه ؟

ـ ليس بمجـرد استـدعاءي اليـه ، وانما بعد أن رأيتك تتجاهل الحادثة التي وقعت لنا في الطريق برمتها . ثم وأنت تشيح بوجهك عن وروده بازدراء ، وقد تعمدت أن « أنساها » في الفنـدق ، فلم تذكـرني بها . لم تشـر اليـه بحـرف واحـد . أما هو ، فقد تحدث عنك كثيرا جدا . وقد وجدت أن صمتك يفسر حديثه ، وحديثه يفسر صمتك . . هل يحتاج المرء الى وضوح أكثر ليفهم طبيعة العاطفة المتبادلة بينكما ؟

شعـرت بانقبـاض في معـدتي ، واضمحـلال في قواي ، فعزوتها الى افراطي في الانفعـال ، وحـاولت تحاشيـه بالاسـترخاء ، وبالتقليل من أهمية الموضوع . ولكني لم أحرز نجاحا يستحق الذكر وقلت وأنا أداري انفعالي بكل ما أوتيت من مقدرة :

ـ تعرفت به يوم أمس ، اذا صح أن نسمي ذلك تعارفا . . جلسنا معا لأول مرة قبل أن أزوركم بساعات . وافترقنا وأنا أعتقد أننا لن نلتقي ثانية .

نظرت الى الساعة ، فوجدتها جاوزت السابعة بقليل . قلت بعد لحظة صمت :

ـ لو تعلمين أية ليلة هذه التي مرت علي ، وكيف قضيتها وأنا أفكر مغيظا بنواياه . وما كنت لأهتم لو أن المسألة بقيت محصورة بي وحدي . ولكنه يريد أن يدخلكم في اللعبة . . أن يطعنني من خلالكم ، ويريد . . يريد أشياء لا مجال لسردها الآن .

فقالت بتفهم بثير الدهشة والاعجاب :

ـ لو أن لقـاءه بنـا انتهى على باب الفنـدق ، واقتصر على كلمات المجاملة ، لما بنيت عليـه أيـة نتـائـج . ولكن الوعد القاطع بزيارتنا ، وعروض السفر المبطنة ، هي التي أعطته بعدا مريبا . . أنا متأكدة أنه سيحاول الاتصال بنا ، وزيارتنا ، فقد لمحت التصميم في عينيه .

قلت لها ، وقد تداعت مخاوفي ، فلم يبق منها الا القليل :

ـ أنت تفكـرين مثـلي تمامـا ، وهـذا يشعرني بالاطمئنان . . لا يمكنك أن تتصوري مبلغ القلق الـذي أصـابني ، والهم الثقيـل الذي ركبني ، واليأس الذي اعتراني ، وأنا أفكر اني قد لا أستطيع أن أفعل شيئا مجديا . . ماذا أقول لك ولوالدك ؟ . . كيف أشرح لكما أمرا لا تنفع معه الكلمات ؟ . . ما أرعبني هو أنكم ستصبحون ميدان معركة لا ناقة لكم فيها ولا جمل . ولكن أخبريني . . ماالذي جعلك تطرحين الموضوع في هذا الوقت ؟ .

فقالت بلهجة حنون :

ـ كيف أتركك تغادر البيت بما أنت فيه من قلق ؟ .

قلت :

ـ لقد ذهب قلقي بالفعل ، ولكني الآن أعاني من الدهشة .

فقالت وقد كست وجهها ابتسامة متسامحة :

ـ لو تذكرت تجربتنا المحزنة ، لما عانيت من الدهشة . . أنا أفهم جيدا أمثال هذا الرجل .

أحسست عندئذ بالوطأة التي يحسها المذنب ، واعتراني خجل داريته بصعوبة وأنا أقول لنفسي أن خير ما أفعله هو أن أصمت قليلا . . انها فتاة متماسكة ، تطوق مأساتها الذاتية بشجاعة نادرة ، وتتمتع بقدرة فائقة على الفهم ، تمكنها من الربط بين اللصوص القدامى واللصوص الجدد . . وان هذا بمجمله لحسن جدا . . انه لحسن جدا بالفعل .

* * *

في تلك اللحظة ، كان المذياع يبث احدى نشرات الاخبار الصباحية ، وقد عاد فكرر الخبر الذي سمعته مساء امس في الطريق .

أقبل العجوز مفكرا مغضن الجبين ، وسأل قبل أن يجلس :

ـ ما معنى هذه التهديدات التي صرنا نسمعها اليوم ؟ .

ضحك بتهكم ، وأضاف :

ـ أبشر بطول سلامة يا مربع . . أليس هذا ما قاله الشاعر ؟ . . ما هو القسم الاول من بيت الشعر هذا ؟ . . هل تذكره ؟ .

قلت :

ـ زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا . .

فسألني :

ـ ومن هو الفرزدق هذا ؟

ـ انه شاعر أيضا .

ـ هم . . ولكن قل لي ؟ . . هل يمكن أن تنشب الحرب ؟

ـ هذا ممكن .

فتأملني بحذر كأنه يخشى أن أخدعه باعطائه معلومات ملفقة ، وران الصمت

لحظةانهمك خلالها العجوز في التفكير ، ثم قال :

- اذا وقعت الحرب ، فان هزيمة اليهود مؤكدة . .

- ولماذا تعتقد أن هزيمتهم مؤكدة ؟

فتزايد الحذر في نظرته الي ، ثم أجاب بحزم :

- لأن النبي الكريم وعدنا بذلك ، وبشرهم بنهاية بشعة . .

قلت مداعبا اياه ، انما بلهجة جادة :

- أنا لم اسمع بهذا الوعد . . ثم ان المسلمين هزموا في موقعة أحد لأنهم خالفوا تعليمات النبي . .

فتزاحمت الكلمات على شفتيه حتى عجز عن النطق ، وقال اخيرا بلهجة حادة مؤنبة :

- لم تسمع بوعد النبي اذن ؟ . . هذا غريب . . النبي لا ينطق عن الهوى . . وقد قال - عليه الصلاة والسلام - أنهم ينتصرون أولا بقيادة الأعور الدجال ، نعم ، ينتصرون في البداية ، ثم ينهزمون عندما يظهر المهدي . . المهدي المنتظر هو المسيح عليه السلام يا بني . . اياك أن تشك فيما أقوله ، فالشك كفر مبين .

- اذن ينتصرون اولا ؟

- نعم ، ثم يأتي المهدي ، ويقال أنه سيهبط من السماء في احدى مآذن الجامع الأموي ، ثم يقود الناس لقتال اليهود . .

- وهل سيقاتلهم في دمشق ؟ . . أخشى أن يكون الأمر كذلك ، وعندئذ تغدو تصريحات الاسرائيليين التي نسمعها اليوم منطقية .

فأجاب متململا :

- لا أدري بالضبط . . ولكن الوعد يقول أن كافة المخلوقات ستشترك في القتال . . الحيوانات ، والاحجار والأشجار . . كلها تدل المقاتلين على اليهود ، ولا يؤويهم شيء في الوجود سوى شجر الدفلي . . وصف ساحة المعركة يدل على أنها ستدور في ارض كثيرة الجبال والوديان والأشجار ، ولذلك ، ربما تكون فلسطين . . مارأيك ؟

- ربما . . ولكن الجبال والوديان والأشجار موجودة في كل مكان .

فكر قليلا متضجرا ، ثم تابع حديثه :

- المهم ، سينقض المسيح على الأعور الدجال ، فيقتله وتنتهي الفتنة . . اليهود يا

بني فتنـة ملعـونـة يمتحننـا الله بها ، وكثير ون هم الذين ينخدعون ، فينضمون الى الأعور ويؤ منـون به من دون الله ، فيسقطـون في الامتحـان الالهي . . أي نعم . . قلة هم الذين يصمـدون ، ويحـافظـون على عقيـدتهم ، وينتظـرون وعـد الـرب . . هؤلاء تؤويهم كافة المخلوقات . . تساعدهم الجبال ، والوديان ، والاشجار . وينتصرون في النهاية نصرا عزيزا .

توقف برهة عن الحديث ، ثم اضاف :

ـ يهددون باحتــلال دمشق . . انهم يتبجحــون ، ويحفــرون قبــورهم بأيـديهم ، ويسير ون الى حتفهم بصلفهم . . نحن مئة مليون ، أليس كذلك ؟

ـ اننا كذلك ، بالفعل .

ـ لو كنا مئة مليون نعجة ، لاستحال عليهم ذبحنا بمثل هذه البساطة التي يتحدثون بها . . ما رأيك ؟

ـ أنت محق في قولك .

ففكر قليلا ثم قال :

ـ اذا كانت هي المعركة الموعودة ، تكون نهايتهم قد حانت ، نعم ، هذا حكم الله .

اختتم العم عبـد الغني حديثـه مثل قائد عسكري ملم بأوضاع جبهته ، مطمئن الى حسن تنظيمهـا وجـاهـزيتهـا ، ولا يشغله سوى توفـر الظـرف «السيـاسي» الملائم ، لحسم المعركة في صالحه .

وأعترف أن فكرة الأشجار ، والاحجار ، والوديان ، التي تساعد القلة من الصامدين ، قد أثـارت انتبـاهي . . الأشجـار تخفيهم ، والـوديـان تؤويهم ، وكـافـة المخلوقات تتعاون معهم . . ضحكت في سري ، وتســاءلت : من أين أتى العجــوز بهذا الكـلام ؟ . . هل درسه على أيدي الجنرال جياب ؟ . .

كنت ملتزما الصمت . أما نجوى فقد عقبت على حديث والدها قائلة :

ـ احكـام الله عادلـة دائـما ، ولكن تنفيـذهـا منـوط بالبشـر وحدهم ، وجنود الله لا يشـتركـون الا في المعـارك النظيفة التي وفر لها الانسان أسباب النجاح . انهم لا يتورطون في معارك مخجلة محكوم عليها بالفشل . هذا هو الفرق بين موقعة بدر ، وموقعة أحد .

قلت لنفسي وأنـا أستمـع اليهـا : ترى بماذا تفكر وهي تصوغ كلماتها الرائعة ؟ وخيل الي فجأة وأنـا أتأملهـا شارد الـذهن أنني أمام معمرة . . أي عمر أعطيها ؟ . . مئة عام ؟ . .

ألف ؟ . . ألفين ؟ . . وخطر في بالي برناردشو ومسرحية العودة الى ميتوشالح ، وعندما التقت نظراتنا ، وجدتني أمام تلك الصبية الصغيرة التي تأمرني بصمت أن لا أفشي السر لأحد .



١١ ـ الهروب مؤقتاً

وضعت قدمي في مدخـل ميـامي وتـريثت قليـلا . كان المكـان الأنيق للغـايـة يضم تشكيلة من الحسنـاوات تبعثـرن دون نظـام هنـا وهنـاك ، مثل حقل أزهار في بيت قروي . وكـانت سوزان تجلس وحيـدة في ركن بارزيطـل على مجمـل الصـالة ، وقد انتصبت كزنبقة بيضاء وحيدة ، تحف بها أنظار النساء والرجال من كافة الجهات .

تأملتهـا مليـا وكأني أراها لاول مرة ، فبدت رائعة الحسن بقامتها وتقاطيعها المنسجمة المتنـاسقـة . واستوقفني عل الاخص نقاء بشرتها ، وذلك الترف الأنثوي الشهي الذي يطل خامـلا من عينيهـا . فتسـارعت دقات قلبي بعض الشيء ، وراقبت فضول الناس بمشاعر متبرمة جعلتني أتساءل ان كانت هي الغيرة تتثاءب في غفوتها ، مظهرة أنيابها دون قصد ؟ .

كنت قد وصلت متأخـرا لأسبـاب اعتقـدت انها ستجعل اعتذاري مقبولا ، غير أنني رأيت في تلك اللحظة أن أي عذر على الاطلاق لن يعدو حدود السخافة ، وأنه كان يتوجب علي أن أحضر قبلها ، وأكون في انتظارها .

لاحظت أني غدوت محط الانظار وانا اتقدم نحوها ، فتزايد شعوري بالذنب ، الا أن هذا الشعور كان مترافقا مع لون من ألوان الزهو الذي يحسه المرء عندما تكون له دالة على شخص رفيـع المقـام . . دالة تجعله محسودا من قبل الناس ، وتجعل أخطاءه مغفورة سلفا . ودغدغت نفسي : لن يحسبوني خادمها على أية حال . . سيقولون أنني صديق الملكة ، أو أحد مستشاريها على الأقل .

تنـاولت يدهـا البضـة ، وضممتهـا بكلتـا يدي ، فشعـرت شعـورا قويـا بدفء ملامستها . ثم جلست أمامها ، وقلت بلهجة مسرحية :

ـ في خدمة مليكتي الفاتنة التي آمل أن أحظى بعفوها .

فرفعت حاجبهـا مدهـوشـة وهي تبتسم ابتسـامـة معـاتبة . أما أنا ، فقد كنت أتأمل

الجملة التي بدأت بها الحديث ، فلا أدري ان كانت مجرد اعتذار مرح .
قالت وهي تتظاهر بالغضب :
ـ تأخرت كثيرا . . .
ثم نظرت الى ساعتها ، وأضافت :
ـ أكثر من ربع ساعة ، وأنا وحدي هنا أعاني الحرج .
وغمزت بعينها الى رواد المقهى . فقلت :
ـ أي حرج ؟ . . وهل يضير الملكة أن تجلس وحيدة ، وهي تعرف أن ايماءة منها تدير عشرات الرؤوس ، وتسكر جمهورا بكامله ؟ . . أنا الشقي الذي يجب أن يعاني الحرج ، وأن يشق الارض ويتوارى فيها خجلا .
فمطت شفتيها وهي تتفحصني بدقة ، ثم سألت بمرح :
ـ ولم سببت لنفسك كل هذا الشقاء ؟ . . لم تأخرت ربع ساعة ؟ .
قلت وأنا أتظاهر بالانزعاج :
ـ أما زلت تتحدثين بالساعة وكسورها ؟ . . قولي أني تأخرت حتى كاد يفوتني الربيع . ولكني ، لحسن حظي ، وصلت قبل فوات الاوان .
فقالت ضاحكة :
ـ الحمد لله على سلامتك .
يجب أن أعترف أن كلماتي كانت تصدر من قلبي ، ولم يكن ما نطقت به مجرد هذر ، ولكني كنت مضطرا للتظاهر بالمزاح ، أمام نفسي وأمام سوزان ، فأنا أنكر على نفسي وعلى الآخرين ذلك الاغراق في « الرومانسية » . . لنقل بشكل أوضح وأدق ، أنني لم أكن أصدق تلك المبالغات التي تتحدث عن علاقة الرجل بالمرأة ، وأسخر من تلك الهالة الساحرة ، والكلمات المبهمة المعقدة ، التي يحيطون بها علاقات انسانية بسيطة ، لا غنى عنها ، ولا مفر منها . .
ـ تصوري ، يا مليكتي ، رجلا يسير نائما ، ثم يستيقظ ، فيجد نفسه على حافة هاوية بلا قعر . . تصوري مشاعره في لحظة رهيبة كهذه . . قدم على اليابسة ، وقدم في الفراغ . . ثم يلتفت وراءه ، فيجد الجنة بكل روعتها وفتنتها . . بكل خمائلها وورودها ورياحينها . . وخاصة زنابقها . . وعلى الاخص زنابقها البيضاء . . يتساءل المسكين كيف مر بكل هذا النعيم وهو نائم ؟ . . في ثانية واحدة . . خلال جزء من الثانية ، استيقظ وكأنه

ولد لتوه ، وراح ينقل بصره بين الهاوية والجنة مشدوها .

كانت تتلقف كلماتي بنهم . وقـد لاحظت الاعجـاب في نظـراتهـا ، فأثنيت على نفسي ، ونظرت الى كلماتي بعين الرضى والسعادة . .

ـ لاحظي كيف أنها مأساة مركبة . . ولكنها انتهت بسلام على أية حال . . هل أنت مسـرورة لأنهـا انتهت كذلـك ؟ . . أقصـد ، هل أنت مسـرورة من باب الشفقـة ؟ . . ألا تعتقدين أن سعادة هذا الانسان ستكون مركبة أيضا ؟ .

ولكن لماذا تماديت في الحـديث على هذا المنـوال ، والى أين أريـد أن أصـل ؟ . . . لست أدري بالفعل . . .

كانت تضحك ، وحالما التقطت أنفاسها قالت :

ـ شهـريـار . . انـتبـه الـى نفـسـك . . أنـت تحاول أن تنطق شعـرا ليس من اختصاصك . . ماذا حدث للعالم يا ترى ؟ . . ابتعد قليلا من أمامي لاطمئن على مسار الشمس .

ووضعت كفهـا فوق عينيهـا كأنهـا تحميهما من الشمس ، ونظرت الى الطريق . انها تجاريني على أسـاس اني أمـزح ، وقـد ضايقني ذلـك رغم تفهمي لموقفهـا ، وأيـا كان وقع كلامي في نفسها ، فقد قررت أن مزاحها ينم عن ذكاء حاد ، وأنها أنثى عظيمة .

لم يعـد بالامكـان تبـديـل طريقـة الحديث ، وها هي تنساب دون أن ندري على أي شاطىء سترسو .

قلت :

ـ شهرزاد . . لماذا تعتقدين أن الشعر ليس من اختصاصي ؟

ـ لأني أعرفك منذ أشهر طويلة .

ـ وهل يلقي الشعراء قصائدهم في الطرقات ، على رؤوس المارة ؟

ـ لا ، ولكنهم لا يلقونها قرب مقبرة الدحداح . .

كانت مرحـة ، ومنشـرحـة الى أبعـد الحدود ، ولكني ، رغم ذلك ، لمحت في عينيها بريقا جادا . .

ـ ولا يلقــون قصــائـدهـم في مقهى السـاطـور . . أليس هذا هو اسم المقهى الـذي اقترحت أن نلتقي به ؟ . .

استمرت تضحك بعذوبة بين الجملة والجملة ، مثلما تتوزع ألحان الموسيقى بانسجام

بين كلمات الأغنية . .

ـ ولكني أشك أن لمثل هذا المقهى وجودا في دمشق . . صارحني . . أليس اسمه ملفقا ؟ .

ـ انه موجود حقا ، ولو قبلت ، فسآخذك اليه .

ـ شكرا ، لا أريد أن أذهب اليه .

ـ ولكن ، لماذا .

ـ بسبب اسمه على الاقل . . الساطور . . لا . .

ضحكت وهي ترفع كفها كأنها تحمي بها وجهها . .

ـ هل هو رئيس عصابة قتل ؟ . .

سألتها متغابيا :

ـ من هو ؟

ـ صاحبك الساطور . .

ـ أنت مخطئة . . انه انسان طيب ، يحب اطفاله ، ويكرم زبائنه اكراما لا مثيل له . . على كل حال ، أنا مستعد أن أخطىء مثلك ، وأتخلى عن صديقي الساطور ، وعن مجمل عاداتي التي ترينها ذميمة . ولكن مثل هذا التحول الخطير يحتاج الى مساعدتك .

ـ وماذاأستطيع أن أفعل لأجلك ؟

ـ تقصين علي حكاياتك ، فأغفو عليها كما ينبغي لطفل عاقل أن يفعل ، وبالمقابل سأغير مسار الشمس ، وأسمعك أشعارا مثل . . لا . . سأدعك تحكمين عليها بنفسك .

ـ موافقة ، على أن تسمعني أشعارك أولا .

قلت محاولا اقناعها :

ـ أعذريني ، أنا لا أستطيع أن أدفع مقدما .

فسألتني بلهجة تجارية :

ـ وما هو عذرك ، اذا لم تكن مفلسا ؟ .

ـ عذري أنني سأبقى فترة في طور النقاهة . . هل تريدين أن أسمعك أشعارا مريضة ؟ . . هل تريدين أن يعاودني الحنين الى ذلك المقهى الذي سأحاول أن أتجنب ذكر اسمه من الآن فصاعدا ؟ .

فهتفت متظاهرة بالجزع :

ـ لا ، أرجوك . . لا تدفع مقدما ، وسأقدم لك ما تشاء ، وأكتفي بوعدك .

ـ اذن فاحذري انتكاستي ، واعتني بصحتي جيدا ريثما أبل تماما . . الآن ، تفضلي بتقديم اقصوصتك الاولى .

كانت تستمع الي بانتباه شديد وقد ازداد بريق عينيها ، وراحت البسمة تظهر وتختفي تباعا على ثغرها ، فتتأرجح بين الجد والهزل .

وضعت مرفقيها على المنضدة ، وأسندت وجهها الى راحتيها ، وحدقت بي ، فتسارعت دقات قلبي من جديد ، وغمرت صدري مشاعر دافئة .

قالت وهي تحاول الاحتفاظ بابتسامتها :

ـ حسنا ، سأبدأ أولا بالتعرف اليك . . أخبر ني من أنت ، لأروي لك القصص التي تناسبك ؟ .

أبحرت في عينيها السوداوين الواسعتين ، ورحت أتذكر اسم الشاعر الذي تغنى بعيون المها . . وكيف جلبن الهوى من حيث يدري ولا يدري . ولاح لي شاطىء بعيد رأيته زاهيا متلألئا بمنظار ملاح تائه كاد يفقد الأمل بالنجاة ، فقويت عزيمتي بعد وهن ، واشتد ساعدي بعد ضعف ، وأمسكت بالدفة بقوة وثقة :

ـ أنا ؟ . . أنا قطرة ماء في نهر عظيم . . زاخر . .

ـ انتظر . .

أخرجت من محفظتها قلما وورقة .

ـ سأدون الأسئلة والأجوبة ، وسنوقع تحتها معا في النهاية . . هل لديك اعتراض ؟ .

فقلت مجاريا اياها في المرح :

ـ اعتراض صغير . . ولكني أتنازل عنه . . أنا موافق ، فتابعي .

ـ اذن ، ننتقل الى السؤال الثاني . . ما هي أغلى أمانيك ؟

ـ كنت اطمح الى ارواء حقل قمح يتحول فيما بعد الى آلاف الأرغفة . . أما الآن . . أما في هذه اللحظة ، فاني أتوق أن أكون قطرة ندى على شفاه زنبقة بيضاء . . قطرة ندى صغيرة لامعة ، تمحقها الشمس بعد سويعات متعة لا توصف ، ولا تقدر بثمن .

أحسست أنني بدأت أتجاوز حدود المداعبة ، بالنسبة لي على الأقل . أنا الذي رصدت سنوات شبابي ، بكل حماس وتفان ، من أجل القيام بعمل ما يسهم في ارواء الحياة الذابلة العطشى ، ثم شعرت فجأة أن عمري يتسرب من بين أصابعي مثلما ينساب الماء بلا

جدوى ولا فائدة على اسفلت الطريق . ولاحظت أن سوزان قد ذهبت بعيدا بدورها .
كانت تدون الاسئلة بخطها ، فأتناول الورقة والقلم من يدها ، وأدون الاجوبة بخطي .
لقد كانت الطريقة ، بالاضافة الى روعتها وجمالها ، ملائمة تماما .

ـ سؤال جانبي . . هل تعشق الزنابق الى هذه الدرجة ؟ .

ـ أعبد منها زهرة واحدة بعينها .

ـ وأي بيت شعر لا يزال حيا في ذهنك أكثر من سواه ؟ .

ـ في ذهني الآن بيت الشعر الذي يتحدث عن عيون المها ، وقد طرد كل ما عداه ، فكأنني لم أسمع في حياتي شعرا غيره .

أعادت خصلة شعر تسللت الى جبينها ، وانتقلت بسرعة الى الورقة ، فلاحظت مدى اندماجها في اللعبة :

ـ بين قوسين «أذكرك أنك ستوقع على هذه الاجوبة» . . والآن ، أخبرني ما هي أغنيتك المفضلة ؟ .

قدمت لي الورقة مرفقة بابتسامة رقيقة تختلف عن سابقاتها كثيرا ، فكأنها ترشو بابتسامتها لجنة فاحصة يتوقف على قرارها مصيرها برمته .

ـ الأغنية التي تقول أن الدنيا أصبح لها طعم جديد منذ عرفتك . . ملاحظة . . « انني متلهف للتوقيع » .

ـ هل تريد أن تضيف شيئا آخر ؟ .

طالعت السؤال الاخير ، فوضعت الورقة جانبا ، وقلت لها :

ـ نعم ، أريد أن أسألك ان كنت توافقين أن أعطيك إسما من عندي أناديك به .

فسألتني بنبرة خافتة :

ـ ما هو ؟ .

ـ سوسن .

ـ انه اسم جميل . . تعال نوقع الآن بالحرف الاول فقط . . فريق أول . . فريق ثاني . . وقع .

فوضعت حرف « س » تحت احدهما ، ووضعت هي حرف « س » تحت الآخر ، ثم رفعت رأسها ونظرت في عيني ، وسألتني بصوت واهن :

ـ كيف سيميز الناس الفريق الأول من الفريق الثاني ؟

قلت بأنفاس مضطربة :

ـ ومن يريدهم أن يميزوا . . دعيهم يواجهون فريقا واحدا .

أعادت القلم والورقة الى محفظتها ، وسرحت قليلا ، ثم عادت تسألني :

ـ سعد . . ماذا تعرف عن شهرزاد ؟

أجبتها :

ـ سوسن . . لا تحتاج شهرزاد الى تعريف .

فتأملتني مليا ، وقالت :

ـ هل تحمل تبغا ؟ .

ناديت النادل ، فأحضر لنا علبة تبغ ، وبعد أن أشعلت لفافتها ، عبت نفسا عميقا ، ثم نفثت الدخان بقوة ، فشاهدت من خلاله أجمل وأشهى فم في الوجود ، ولاحظت أيضا حبيبات عرق تتلألأ على جبهتها العريضة .

* * *

كنت أجدف بقوة وثبات ، وها هو الشاطىء الاخضر على مرمى بصري المجرد ، شاطىء الجزيرة المجهولة ، التي أندفع اليها منتشيا باكتشافها ، مسحورا بأحلامها ، أتعقب خطا السندباد الى عالم غريب تفوق صوره الخيال . . سأترك قاربي للأمواج والرياح تفعل به ما تشاء ، وسأتوغل في أعماق الغابة ، وأضرب في جنباتها ، وأتسلق أشجارها ، فأتناول الثمار اليانعة ، وأنهل من الينابيع العذبة ، وقد أعود الى القارب أو لا أعود ، وقد أجده أو لا أجده ، فأنا لا آبه لذلك . . ما يشغلني الآن هو العطش . . انه يكاد يقتلني . . مشاق السفر الطويل ، وملوحة البحر ، ووهج الشمس . . واذا مت ظمآنا فلا نزل القطر يا الهي . . وحياتي أدفعها بطيب خاطر ثمناً لرحلة ناجحة من رحلات السندباد . .

قالت سوزان :

ـ أين أنت ؟ . . بماذا تفكر ؟ .

ـ أفكر بك ، وبالموت .

ـ وهل تفكر بالموت دائما ؟ . . أنا لا أفكر به أبدا .

ـ كثيرا ما أفكر به ، وينخلع قلبي هلعا عندما أتخيل نفسي ميتا في الحياة . . أما

بعدها ، فلا يشغلني أمره البتة .

ـ أما أنا فأتمتع بالحياة الى أقصى حد ، حتى أنني بدأت أتعود الاستمتاع بالألم .

فقلت بحرقة صادقة :

ـ سوسن . . أريد أن أعيش حقا . . حتى أظافري أتمنى لو تسربت اليها الدماء . . لو أنها تحتوي على أوعية وأعصاب . . هل تفهمينني يا سوسن ؟ .

أجابت باخلاص :

ـ لا ولكني أحاول فهمك . . أما أنا فأمتع حتى أظافري . .

نظرت الى أظافرها المطلية برضى ، ثم أردفت :

ـ وأعتقد أنني أعيش حقا .

كانت تريد انتشالي ، وقد تأثرت لذلك أشد التأثر ، وشعرت بانجذاب قوي اليها ، فاندفعت القي بهمومي أمامها وأتخفف من أحمالي علني أستطيع مجاراتها . .

ـ أحيانا أجد ذراعي أمامي على المنضدة ، فأتأملها ، وألمسها ، وأتفحصها وكأنها ذراع رجل آخر . . أخرج الى الضاحية . . أصعد الجبل . . أتأمل أغنى مناظر الطبيعة جمالا فلا أجد له أي وقع في نفسي ، أبدا أبدا ، لكأني اشاهد شريطا سينمائيا تعرضه وزارة الزراعة ، ويصور مزرعة نموذجية . . سألت نفسي كثيرا : هل فقدت الاحساس نهائيا بالجمال ؟ . . هل أنا ميت ؟ . . فلم اجرؤ على الاجابة . . ولولا أن قلبي مازال يخفق لتوقف من الذعر . .

فقالت بلهفة وثقة من وجد الدواء الناجع لمشرف على الهلاك :

ـ أظنك بحاجة الى حب قوي . . أكثر قوة ومفعولا من شراب الفودكا . . هل تذوقت الفودكا ؟ . . الحب يجعلك تعيش حقا ، ويجعل الدماء الحارة تسري حتى في أظافرك الجافة .

* * *

كانت اعترافاتي مكاشفة واضحة ، وكانت ردودها أكثر وضوحا ، ولم تعد هناك قوة في الكون تستطيع أن تحول دون عناق أيدينا وعيوننا ، وقد غرقنا في لحظات من المتعة لا تنسى ، فمثل هذه اللحظات لا تفوقها لذة أقصى غايات الحب .

قالت فجأة وهي تعبث بأناملي :
- يخيل الي أنك ستموت بسبب نزيف في الاظافر .
فضحكنا ضحكا عاليا دون أدنى تحفظ ، وكتمت ضحكها بصعوبة لتضيف :
- ولكني سأموت قبلك .
فقلت :
- بل معا ، وبعد عمر طويل .
ناديت النادل ، فأحضر لنا طعاما خفيفا ، وشرابا قويا يشبه الفودكا ، وبعد ذلك اقترحت أن ننطلق بلا هدف ، فوافقت على اقتراحي بحماس . فدفعت الحساب ، ونقدت النادل منحة سخية فهم منها على الفور ، أني سأكون أحد زبائنه مرة أخرى على الاقل . وعندما صرنا في الطريق أوقفت سيارة ، وطلبت من سائقها أن يتوجه بنا الى الشرق ، ثم اقترحت على سوزان وأنا أنظر الى زرقة السماء أن نتوقف عندما نشعر معا بالرغبة في التوقف ، على أن يتم ذلك دون كلام ، وبلا ايحاء ، فعبرت عن تجاوبها المطلق بعدة ايماءات متوالية ، وقد طفح وجهها بالسعادة ، وتخضبت وجنتاها بحمرة خفيفة أشاعت في نفسي الاحساس بالربيع .
بينما كانت السيارة تخترق بنا صفين من أشجار الجوز المتعانقة ، كنا نتخاطب بلغة الصمت التي يعجز اللسان عن أدائها ، وتهدهدنا تلك الفرحة السحرية النادرة ، فنركن الى لمساتها الحنون ، ونحن نحبس أنفاسنا لنطيل أمد زيارتها قبل أن تركن الى الفرار المؤكد ، وعيون خيالنا تراقب بقلق ضبابي طيور الأسى الغامضة ، التي تحلق دائما في الاجواء السعيدة .
استقطب اهتمامنا معا موقع خلاب كثيف الخضرة وشته الازهار بألوان متعددة رائعة ، وأعدته يد الانسان للاقامة بلباقة حفظت له جماله الفطري ، فاتفقت مع السائق أن يعود في وقت حددته له ، ونقدته أجرا يغريه بالعودة الينا بحماس ، ثم مضينا متمهلين عبر بستان خال من الناس رغم أنه معد لا ستقبال الزائرين وخدمتهم ، فاستقبلنا صبي باش الوجه ، قادنا بحفاوة مضيف كريم الى مائدة تخفيها الأشجار وأحواض الورود ، وذهب ركضا ليعود بعد قليل محملا بأنواع الفاكهة الفجة .
سرحت سوزان ببصرها عبر المناظر المحيطة ، وتنهدت بعمق ، ثم قالت ووجهها مفعم بالرضى والسعادة :

ـ وأخيرا ، ألن تقول شيئا ؟ . . لم نتبادل كلمة واحدة منذ امتطينا السيارة .

قلت ملاطفا سعادتي المفاجئة ، مستمتعا برؤيتي الجديدة للحياة :

ـ الفرحة طير جميل ، متوحش وخرافي ، يحط دون سابق انذار ، وبلا دعوة ، ويلوذ بالفرار بغتة دون أن ندرك السبب الذي أفزعه ، واذا استطعنا أن نمسك به ينتحر في الحال ، ويتحول الى رماد .

ـ اذن هل يتوجب علينا أن نكف عن التنفس ؟ .

ـ في مثل هذه الحالة ، اما أن يقول الانسان شعرا ، واما أن يصمت ، ويدع القلوب تتناجى دون أن تحدث أي ضجيج .

سألت نفسي : أليس هذا اسفافا ، واغراقا في « الرومانسية » ، وسألتني سوزان مداعبة :

ـ كان يتوجب عليك اذن أن تقوم بواجبك .

فقلت مازحا :

ـ هممت أن ألقي قصيدة ونحن في الطريق ، ولكني خفت من السائق . . توقعت أن يسخر مني . . ومن يدري ؟ . . فقد يظن بي الظنون ، ويتوجه بنا الى مستشفى المجانين ، أو يلقينا في منتصف الطريق ، ويهرب بجلده .

مر بنا حسون ضئيل الحجم ، ووقف على غصن قريب ، ثم بدأ يغرد بصوت شجي ، وعندما تحدثت سوزان ، تلكأ قليلا ، ثم لاذ بالفرار .

ـ دعك من المزاح . . حقيقة ان الكلام مضر ومفسد في بعض الحالات . . طوال الطريق كان يجب أن لا نتكلم ، ولو فعلت لأضجرتني بالتأكيد .

غمزت بعينها دليل الممازحة ، وأردفت :

ـ ولكني كنت على يقين أنك لن تفعل . . بماذا نفسر مثل هذا اليقين ؟ .

ـ هذا اليقين لا يحتاج الى تفسير . . انه مجرد تأكيد لحقيقة قائمة .

ـ وكنت أشعر أننا نتحدث طوال الوقت ، وأتطلع اليك ، فأرى بوضوح أنك تشعر مثلي . . ما معنى هذا ؟ . . ألم تراودك المشاعر نفسها ؟ .

ـ بالفعل ، كنا نتحدث معا طوال الوقت .

ـ ثم انني كنت متخوفة دون أن ادرك لمخاوفي سببا . . ألم تكن كذلك ؟ . . أنا متأكدة أنك تخوفت أيضا . . قل أنني مخطئة .

ـ كلا ، لست مخطئة .

ـ فكـرت بما حدث خلال هذا الـوقت القصير ، فأحسست أنه حدث منذ وقت بعيد جدا . . كأني كنت أعرفك دائما ، ولا أذكر منذ متى . . أتدري ؟ . . أتريد أن أكاشفك بسر ؟ .

ضحكت ، ثم أردفت :

ـ ولكن لاتغضب . . ايـاك ان تغضب . . عنـدمـا التقينـا أول مرة ، منـذ ثلاثة أشهر تقريبا ، أليس كذلك ؟ . .

ـ تقريبا .

ـ حين رأيتك في ذلك اليوم . .

ضحكت مرة أخرى ، ثم تابعت :

ـ استثقلت دمك ، وهممت أن أغادر المكان تخلصا منك . . هل غضبت ؟

ابتسمت مشجعا اياها على المضي ، وقلت :

ـ كيف أغضب ، ونحن الآن معا ؟ .

ـ انني اصارحك بالحقيقة . . قلت لنفسي يومها : لماذا ينصتون اليه بانتباه ، وما هذه الاحاديث التي لا تطاق ؟ . . لم أفهم من أحاديثك شيئا . .

قاطعتها :

ـ بل لم تحاولي الفهم . . فأنا أتحدث بالعربية ، وانت ذكية جدا .

ـ حسنـا ، كنت أشعـر بالاختنـاق ، ورغبت بالانصـراف ، ولكني لم أستطـع . . أنا أفهم اليـوم لماذا عجـزت عن الانصـراف ، أما في تلك الامسية ، فقد كنت مسمرة دون أن أدري بماذا . . هل تذكر تلك الأمسية ؟ .

ـ أذكرها جيدا .

ـ وكان معك صديقك . . اسمه الاستاذ بلاف ؟

ـ عارف البلاف .

ـ نعم ، هل هو الذي تحدث معي بالهاتف يوم أمس ؟ .

ـ انه هو .

ـ كان في تلك السهرة ظريفا جدا ، ومرحا جدا ، وحاضر النكتة . . كانت له طريقة طريفـة في الحـديث ، وعنـدمـا عرفت لقبه ازداد طرافة في عيني . . أأقول لك ؟ . . أوهمت

نفسي أنني بقيت بسببه ، وتأملته طوال الوقت باعجاب ، وأظنه لاحظ ذلك ، فازداد مرحا على مرح حتى غدا مزعجا .

اخذت تضحك من قلبها ، وسألتني :

ـ هل تذكر ؟ . . ألن تعرفني به ؟ . . يجب أن تعرفني به في اول فرصة .

ـ سأفعل حتما .

ـ ثم تبادلت الحديث واياك . . من الذي بدأ الحديث أولا ؟

ـ في الحقيقة ، لم أعد أذكر .

ـ هذا غير مهم . . المهم هو أن انطباعي الاول تبخر دفعة واحدة ، وأيقنت منذ تلك اللحظة ، أننا غدونا أصدقاء .

لفحنا النسيم بالمزيد من شذا الأزهار ، وعاد الحسون يغرد باطمئنان على شجرة بعيدة ، وقبع على مقربة كلب ناصع البياض ، بسط ذراعيه أمامه ، وراح يلعقهما بهدوء ودأب . وعلقت سوزان معطفها على غصن ، ثم سألتني :

ـ ألن تروي لي انطباعتك عن اللقاء الاول ؟ .

قلت :

ـ بلى ، منذ وقع نظري عليك ، أحسست بشيء غير عادي يتحرك في داخلي ، ويستقر في القلب . وقد لاحظت ضجرك وشرودك ، فعرفت أن ما حدث لي قد حدث لك ايضا ، وان جاء رد فعلك سلبيا كما ذكرت . . رد الفعل الاول لا يكون صادقا في أغلب الحالات ، وكثيرا ما يأتي مناقضا للعاطفة الحقيقية . . لماذا تبتسمين ؟ . . هل تتصورين أنني تضايقت من تصريحاتك ، وأني أحاول تصحيحها بما يلائم هواي ؟

ـ أنا لا أتصور شيئا . . لا تسيء بي الظن . .

ـ انتظري قليلا . . . لا تضحكي هكذا . .

كانت تضحك بشدة .

ـ سأقول لك ما الذي خطر ببالي عندما أحسست بذلك الشيء المجهول يتحرك ويستقر في قلبي . . خطر لي أنه احساس كاذب ومضلل . .

كفت عن الضحك ، وراحت ترقبني كأنها تتوقع عقابا .

ـ وأنه مناقض للعاطفة الحقيقية ، التي لا بد وأن تكون سلبية . . وما الذي يهمني من أمرك ؟ . . لا شيء على الاطلاق . . بيئتي غير بيئتك ، وعقلي غير عقلك ، وذوقي غير

ذوقـك . . الى آخـره . ثم انني لا أؤ من بالحب من أول نظـرة ، ولا أقيم وزنا كبيرا للجمال الخارجي . . لماذا تبدل لونك ؟ . . عليك أن تتجلدي ريثما أتم حديثي . .

فابتسمت على مضض مشجعة اياي على المضي .

ـ هذا ما حاولت أن أقنـع به نفسي ، ولكنـه تبخـر جميعـه دفعـة واحـدة حين تبـادلنا الحديث ، وأيقنت مثلك أننا غدونا أصدقاء .

كانت غاضبة ، وقد تناولت يدها ، فحاولت سحبها ، وقالت وهي تكظم غيظها :

ـ دعني . . . أنا غاضبة منك . . ماذا قصدت باشارتك الى بيئتي وذوقي ؟ . . وماذا عنيت بقولك أنك لا تقيم وزنا للجمال الخارجي ؟ . . أنا أعرف أن الجمال الخارجي بحد ذاته . .

أرادت أن تسـترسـل ، فوضعت أصـابعي على شفتيهـا ، فكفت عن الحـديث ، واستكانت تماما . . قربت وجهي من وجهها ، وطبعت على فمها قبلة متأنية ، تلقتها بانتباه شديد ، وبشفتين ذواقتين أشعرتاني ببساطة وجرأة أني لست الرجل الاول في حياتها .

* * *

ران الصمت والسكـون بضـع دقـائق . وكنت أفكـر وأنا أتأملها بشغف أني لن أكون الرجل الاخير أيضا . بدأت تضج في دماغي تلك الألة الحاسبة ، ذات الحركة الرتيبة . ولم أجـد أي أثـر للاستيـاء في نفسي ، فاذا لم أكن الـرجـل الاخـير ، فلماذا أستـاء من الـرجل الاول ؟ . كيف ألتقي بها في ميـامي . . أجـدهـا في انتظـاري ، ثم نخـرج معـا الى هذه الضاحية ، فنتبادل الأحاديث والقبلات بطلاقة ، لولا ذلك الرجل الاول ؟ . . ألست مدينا له بنجـاح وعـذوبـة هذا اللقـاء ؟ . . وهـل كان لقاؤه معها عذبا هو الآخر ؟ . . انني أتخيله يتصـرف مثـل لص يتسلل ليـلا الى احـد البيـوت ، ويحـاذر أن يحدث صوتـا أو يسمـع له نفس . . وأتخيلهـا تتلقى قبلتـه بوجـل ، وتتحسس مكـانهـا قلقة وكأنها تخشى أن تكون قد فقـدت احـدى شفتيهـا ، أو واحـدا من أسنـانهـا على الأقـل ، ثم تتلفت حولهـا متـوجسة مذعورة ، وتقول له : كفى . . اذهب .

قد تكون لكل ذلك نكهة وعذوبة خاصة ، ووقع خاص ، ولكني لا أستطيع ممارسة تجربة من هذا النوع . . لا أستطيع . . وأذكر أني وجدت نفسي في موقف مشابه ، مع فتاة لم

أعد أذكر عنها شيئا مهما ، فقد حدث هذا منذ زمن بعيد . . يومها هممت أن أغازل رفيقتي الخجول ، القلقة المترقبة ، فلم أستطع . . لكأني كنت واقفا على مسرح قبالة آلاف العيون المحملقة . وقد قلت لتلك الفتاة فجأة ، وبمنتهى الجد والوقار :

ـ أتعرفين يا آنسة ، أن أنشتاين رفض أن يكون رئيسا لدولة اسرائيل ؟ . . أتدرين بماذا أجاب الصهاينة ؟ . . قال أنه لن يكون رئيسا لدولة مصطنعة ستزول ان عاجلا أو آجلا .

فبهتت الفتاة المسكينة ، و« باخ » الموقف تماما ، وبدأنا نتحدث عن مؤتمر باندونغ ، ونتائجه الوخيمة التي دمرت حركة التحرر في العالم الثالث . ولكي أكون أمينا ، يتوجب علي أن أعترف بأني أتذكر تلك الحادثة القديمة بشيء من الأسف والنقمة ، ولا أشعر بالفخر ان لم أقل أنني أشعر بالخجل ، وبالحسرة أيضا ، فقد اكتشفت مؤخرا ان كل حقبة من حياة الانسان يجب أن تأخذ مداها الطبيعي ، وأن على المرء أن يعيش حياته كاملة بما يتلاءم مع سنه ، والا ظهرت رغبات المراهقة مثلا في غير وقتها وأوانها ، وسببت من المآسي ما يندى له الجبين . . ان الرجل الاول ليس وقفا على أناس بعينهم فكل شخص مؤهل ليلعب هذا الدور . وعلى أية حال ، قد تكون اكتشافاتي المتأخرة هذه مجرد أفكار خاطئة . . مجرد هذيان يصدر عن رجل أضاع فرصته . ومن هنا ، فان فتاة مجربة مثل سوزان تلائمني تماما ، فأنا أستطيع أن أحدثها حديث الند للند ، والقلب للقلب . وأن أقبلها كرجل ، فتستجيب لقبلتي كامرأة . . أطمئن كل الاطمئنان الى هذا التكافؤ في الموقف ، وفي الوعي ، وفي الاقبال المتبادل . فأنا لم أعد قادرا على ممارسة الحب الا اذا كنت مطمئنا ، ومبعث اطمئناني هو الاحساس باستقلال الارادة ، وبالرغبة المشتركة ، والتجاوب المشترك . أما مبعث اضطرابي ، فهو احساسي بارتكاب حماقة ، وبأني أسيء من قريب أو بعيد الى انسان ما ، أو الى قضية ما .

استردت سوزان انتباهها ، وقامت بحركة طفولية حلوة ، وهي تقول :

ـ هذه أول قبلة . . سأدون تاريخها باليوم ، والساعة ، والدقيقة .

فشاركتها حماستها ، ورحت أتأملها وهي تفتح مفكرتها ، وتسجل فيها ما عن لها من أفكار وملاحظات ، وأشجعها كلما رفعت رأسها مستطلعة أثر عملها في وجهي . وليس معنى هذا أني كنت جادا في تشجيعها ، ومشاركتها حماستها ، فأنا أنفر من التفاصيل الصغيرة ، وأمقت اليوميات التي يدأب البعض على تدوينها بهمة ومثابرة ، وأعتبر دقائق

الحياة اليومية عملية اغراق تافهة ومعيقة ، وأن العلماء وحدهم يحق لهم تتبعها لاستخلاص النتائج العامة المفيدة . أما الاشخاص العاديون ، فأراهم يدورون حولها مثل حمار الساقية المغمض العينين ، الذي لا يدرك كيف تنضح المياه ، ولا أين تصب في نهاية المطاف . لكن ما حيلتي والانسجام بين أي اثنين لا يمكن أن يكون كاملا ؟ . . ما حيلتي والنساء يقمن كبير وزن لبعض القضايا الصغيرة ، والملاحظات العابرة التي قد لا يأبه لها الرجال ؟ . . . وهكذا يغدو اشعارهن بالمشاركة والحماس ، ثمنا زهيدا لحبهن الذي لا يقدر بثمن .

ولكني تفوهت فجأة بالتنبيه التالي :

ـ حاذري يا سوسن أن تقع مفكرتك في أيد غير أمينة .

فحدجتني بنظرة مؤنبة ، وقالت :

ـ ستقع حتما في بعض الايدي ، ولن أمانع شخصيا في ذلك ، وسأغض الطرف عامدة . . أنا لا أخشى الآخرين ، فهل تخشاهم أنت ؟

ـ أخشاهم ، ولكن ليس دائما .

فتح هذا الحوار الصغير عيني على حقائق كبيرة لم أكن أراها قبل لحظات ، وأدركت أن التفاصيل تصبح ذات أهمية بالغة عندما يتعلق الامر بي مباشرة ، وأن العلماء ليسوا وحدهم معنيين بها كما توهمت . ولذلك ، لم يعد يخامرني الشك حول السبب الرئيسي الذي جعلني أفشل باستمرار في اعداد رواية أحاول انجازها منذ عامين . . التفاصيل أساسية بالنسبة للمؤلف الناجح ، وبدونها يقف عاجزا عن استيعاب التحولات الحادة التي تبرز في مواقف أبطاله . . الأدب ليس مادة اخبارية . . الرواية ليست كمية من الاخبار . . الادب سبر ، واستقراء ، واستشفاف ، لتفاصيل بالغة الدقة ، لاتراها العين المجردة . . عملية مخبرية في الواقع . ووجدتني أتأمل تحذيري الى سوزان من خلال منظار جديد . . حاذري يا سوزان أن تقع مفكرتك في أيد غير أمينة ! . . ماذا أريد أن أقول بالضبط ؟ . . هل هو مجرد نفور من التفاصيل ، واحتقار لليوميات المدونة ، وسخرية من حمار مغمض العينين يدور حول الساقية ؟ . ان البحث الجاد عن أجوبة شافية لهذه التساؤلات يقودني الى اعادة النظر بالطريقة التي أرى بها الأشياء . وبصدد المسألة المطروحة علي ، أتصور سوزان مندفعة ، بالغريزة ، في اتجاه اشهار العلاقة عندما يحين الوقت الملائم . . أذكرك أنك ستوقع على هذه الأجوبة . . فأجيبها : انني متهلف للتوقيع ! يا الهي ، أي بغل أنا ؟! . . ليس لأني قطعت على نفسي عهدا ، كلا ، وانما لأني لم أفقه المرامي البعيدة للحوار ، ولأني كنت مجرد

« رومـانتيكي » أجـوف ، جاء يبيـع السمـك في جزيـرة ارواد ! . . وها أنا أستشف الآن ، أبعاد كلمات سوزان ، ولا أجرؤ أن أقطع بصحة استنتاجاتي ، ولكن من الأفضل للمرء أن يضـع منهجـا يفـترض أنـه صحيـح . . ان سوزان لا تخشى الآخـرين ، ولا تمانع في وقوع مفكرتها بأيديهم ، وستغض الطرف عامدة لتمكنهم من الاطلاع على محتوياتها . . ما معنى هذا الكلام ؟ . . أليس هذا تمهيدا أوليا لعملية الاشهار ؟ . . ولكني لا أتهمها بسوء النية ، وبـالسعي الخسيس لتـوريطي ، أبـدا ، انهـا غريزة المرأة لا أكثرولا أقل . . انها الخشية من الآخـرين ، الـذين زعمت أنهـا لا تخشـاهم . ولكن زعمهـا ليس ادعاء كاذبا . . انه تبر ير مشـروع لعـلاقـة يفـترض مسبقـا أن يكـون لها شكل يقره العرف العام ، وعندما يتوفر هذا الشكـل تنتفي الخشيـة تلقـائيـا ، ولـذلـك ، فان علي أن لا أتلقى سؤ الها حول ما اذا كنت أخشـى الآخـريـن ، وكأني أتلقى سؤ الا حول ما اذا كنت أخشى الطـاعـون ! . . هل تخشـاهم ؟ . . فأجيبهـا : أخشـاهم ، ولكن ليس دائـما . ان سؤ الهـا يقـول بشكـل أدق وأوضح : هل أنت آثم ؟ . أما جوابي فيقول : ليس دائما ! .

والآن ، ما العمل ؟ . . لا ريب أن ما يشجعني على المضي في التجربة ، دون الوقوع في الاثم ، هو أني لست الرجل الأول في حياتها ، وان كان هذا محض استنتاج . ثم اعتقادي الكبـير أني لن أكـون الأخـير . أمـا اذا كانت تريدني رجلها الأخير ، فان عليها أن تشعرني بذلك ، بالعقل وليس بالغريزة . ان تضعني أمام اختيار واضح ومحدد ، فاما أن أقبل ، واما ان أرفض . ولن يسـاورني أدنى احسـاس بالذنب ، قبل أن أدعى لتحديد موقفي وسأكون آثـما ، ومجـرمـا أيضا ، فيما لو سلكت طريق الخداع والمخاتلة من أجل اطالة أمد العلاقة ولو ساعة واحدة .

عنـدمـا وصلت الى هذا الحـد من التفكـير ، هممت أن أقول شيئا ما بدافع الشهامة التي عصفت برأسي ، فأنـا رجـل طيب على أيـة حال ، والأخـلاق الفـاضلة التي تشربتها تلزمني بانارة السبل أمامها ، كي لا تبني قصورا في الهواء . ورأيت ان أحدثها عن نفسي ، وأشـرح لها القضـايـا التي تستغـرق معظم وقتي . ولكني تذكـرت فجأة أنهـا لم تشـر بحـرف واحـد ، حتى الآن ، الى السبب الـذي جعلهـا تلح على مقـابلتي هذا اليـوم ، وأن اللقاء بمجمله تم بمبـادرة منهـا . ومعنى ذلـك أني سأكـون « واقعيـا » مغفـلا هذه المـرة ، فيما لو انطلقت أوضح أمامها موقفا لا بد وأنها قدرته جيدا .

قررت أخيرا ، أنه طالما أخذت بنفسها زمام المبادرة ، فان عليها ن تبقى محتفظة به .

وقد جعلني الموقع الذي حددته لنفسي ، أفكر باتباع طريقة نابليون بونابرت . . عندما تكون أمامك قضية ما ، انصرف اليها كليا ، واغلق الأدراج على القضايا الأخرى . . عندما تنام ، فكر بالنوم فقط . . عندما تحارب ، فكر بالحرب فقط . . عندما تحب ، فكر بالحب فقط ! .

* * *

أصبحت أحاديثنا متقطعة ، تتخللها فجوات واسعة . وقد سألتها ان كانت ترغب القيام بجولة عبر البساتين ، فوافقت على الفور . وفي محاذاة ساقية ضحلة ، نبت العليق والعشب القارص على حافتيها بكثافة سرنا نتحسس مواقع أقدامنا بحذر . كانت الأرض رخوة ، مشبعة بالماء ، وبدت السماء مضيئة من خلال الأغصان الكثيفة التي تنوء بالثمار . كان كل ما حولنا يوحي بالخير والعطاء واللذة . وكانت سوزان تتقدمني متمايلة ، متأهبة لحفظ توازنها بيديها . أما أنا فقد كنت على أهبة الاستعداد لنجدتها اذا مازلت قدمها .

* * *

ان المرء لا ينجح في أن يكون سويا متعقلا على الدوام ، فهو ينساق أحيانا مسلوب الارادة ، وهذا الاستثناء لا يستثني أحدا لحسن الحظ . وقد وجدتني أنساق خلف سوزان ، وأتفحصها مبهورا ، مشدودا الى جذعها الممتلىء المرن .

استنجدت بارادتي ، وحاولت استرداد تعقلي ، لكني فشلت . وعندما تأوهت ، وانحنت تفحص قدمها بسبب شوكة وخزتها ، انحدر نظري بسرعة خاطفة الى ردفيها ، ثم الى ساقيها ، وبعد أن اضطرب قليلا مثل مؤشر البوصلة ، استقر بثبات عند باطن ركبتيها . كانت تمتلك ساقين فاتنتين . وما كنت أصدق حتى تلك اللحظة ، أن للساقين كل ذلك التأثير الساحر . وأعترف أني ـ في تلك اللحظة ـ رغبت في امتلاكها رغبة وحشية جامحة ، أنهكتني مقاومتها . وحين أصف رغبتي على هذا النحو الفظ ، أتمثل في ذهني صورة واضحة لاندفاعة الوحش المفترس ، الذي ينطلق مثل قذيفة هوجاء ، وقد تركزت في طريدته كل حواسه التي ألهبها الجوع . انني لا أجد ـ للأسف الشديد ـ وصفا آخر أكثر

انسانية ورقة ، يعبر عن حالتي كما يجب . وقد خجلت من نفسي بعد لحظات ، وأحسست نحوها بنوع من الاشمئزاز الجارح . ولو كان الأمر ممكنا ، لفصلت ذلك المشهد الوحشي العابر عن سياق حياتي البسيطة المتواضعة ، التي صقلتها الآداب الاجتماعية على أكمل وجه ، ولا أجانب الحقيقة اذا قلت أني أنظر من بعيد ، وبحياد واستغراب ، الى ذلك المشهد الذي كنت بطله الوحيد . ولكني أؤكد عن تجربة ، أن اندفاعة الجنس أحيانا ، لاتقل قوة ووحشية عن اندفاعة القتل المشروع في ميدان الشرف .

كانت لا تزال منحنية ، تمصمص شفتيها وهي تعاين مكان الوخزة . ولم يكن عرض الدرب الوهمي الأخضر يتسع لاثنين معا . وقد أرسلت يدي الى انحناءات جذعها ، فغاصت رؤوس أصابعي المرتشعة في طراوة جسدها ، واذا بي أستعيد على الفور جميع خصائصي الحضارية كانسان ، وكأني حققت بتلك الملامسة أقصى رغباتي ! .

وعندما التفتت نحوي بوجهها الذي اكتسب حمرة شقائق النعمان ، وجدتها أروع جمالا من أية أنثى رأيتها أو سمعت عنها ، بما فيهن بطلات الأساطير . وقتئذ خشيت حقا أن يكون في القضية خطأ ما ، أو لعبة ما . لقد عذبني الخوف طويلا فيما بعد ، وأفسد علي بعضا من أجمل لحظات عمري . وكان السؤال الذي أرقني هو : لماذا اختارتني بالذات ؟ . . لم أكن أريد أن أصدق أنه الحب . وبقيت أعتقد أنها مطلقة اليد في اختيار رجل أفضل مني بما لا يقاس ، ومن جميع النواحي ، وسواء أرادته زوجا ، أم عشيقا . ولكني أهملت بعد فترة جميع هذه الأفكار الخرقاء ، وسلمت أن للقلب أحكامه الخاصة ، انها دون يقين ، فقد كان يقيني غامضا ، يشوشه باستمرار ضجيج الآلة التي تعمل داخل دماغي برتابة .

عبرنا الساقية ، ومضينا عبر الأشجار ، فوق أرض معشوشبة تزينها أزهار البابونج الصفراء ، والختمية البيضاء . ثم انتهى بنا التجوال على شاطىء نهر صغير تحنو عليه أشجار الصفصاف الخجلة الباسقة ، التي تلامس الماء بأطراف أغصانها المتدلية .

سألتني سوزان بينما كنت أعد مكانا لجلوسنا :

ـ وماذا لو كانت سعادتنا مجرد نزوة عابرة ؟

واصلت ازالة العيدان والأشواك من العشب دون أن أجيبها . وحين توجهت اليها أدعوها للجلوس ، وجدتها ماتزال تنتظر جوابا

قلت :

ـ أنت تعرفين جيدا أني لا أملك جوابا ، مثلك تماما .
فضحكت كأنها تتحدى أفكارا هزيلة تحاول تعكير صفوها ، وقالت :
ـ معك حق . . انه سؤال لا جواب له . . سؤال بارد .
ـ الجواب عندك .
ـ نعم ، عندي . .
ـ السعادة احساس ذاتي ، ينبع من داخلنا . . لا يشترى ولا يباع . . من يجرؤ على ادعاء منح السعادة للناس ؟ . .
ـ انهم كثيرون . . ما أكثر الذين ينسبون لأنفسهم هذا الفضل .
ـ من ، مثلا ؟ . .
ـ كثيرون . . الفنانون ، والسياسيون ، ورجال الدين . .
ـ الأغاني ، والتمثيليات ، والخطابات ، والخبز ، والمواعظ ؟ . . هذه كلها عبارة عن مسوغات تخفف وطأة الحياة ، وتقلل من حدة آلامها . . أما السعادة ، فأفجرها داخلك ، وتفجرينها داخلي . . نفجرها معا ، ولا فضل لأحد فيها .

حانت منها التفاتة الى النهر ، فشاهدت أسماكا صغيرة تسبح في مكان ضحل . وبينما هي منصرفة الى مراقبتها ، كانت الآلة تضج في رأسي برتابة . . حسنا ، أنت تهرف بما لا تعرف . . تنتقد المواعظ بموعظة ، وتهاجم الخطابات بخطاب ، وترد على التمثيليات بتمثيلية . . حسنا ، حدد بالضبط ماذا تريد منها ؟ . . هل تحبها ، أم تشتهيها ؟ .. هل أنت ممن يفرقون بين الحب والاشتهاء ؟ .. وتتجاهل سؤالها ، وتنطلق في صياغة سلسلة من الحكم .. ماذا ؟ .. أتظن نفسك بوذا ؟ .. سألتك ان كان حبكما نزوة .. حسنا ، لماذا لم تعطها جوابا واضحا محددا ؟ .. تقول لها أحبك ، بينما أنت تقصد : أشتهيك .. لماذا لا تعلن رغبتك أمامها دون مواربة ؟ .. وحكاية التفجيرات المتبادلة هذه ، من أين جئت بها ؟ .. يا للأفكار الشيطانية .. يا للطرق المعقدة الملتوية . . اذن ، فأنت تؤمن بالحب العذري ؟ . . وترى أن سعادتكما تفجرت ؟ . . ألا تخجل من نفسك ؟ . . وأنت تعرف أنكما ، كلاكما ، مجرد حيوانين ناطقين ، حقيرين ، يبحثان عن وكر دافيء ، وتحركهما بقوة تلك الرغبة الأزلية المتبادلة . . حسنا ، لماذا لا تكف عن خداع نفسك على الأقل ؟ . .
وقلت لنفسي : مهما يكن من أمر فان الحب أرقى من الاشتهاء بما لا يقاس . . انه أكثر عمقا ، وشمولا ، وديمومة . . ولا أستطيع أن أقطع الآن ان كانت المسألة مجرد نزوة

عابـرة . . ان لمثـل هذه التجـارب محكهـا الـذي يميز المعدن الكريم من المعدن الرخيص ، وسنرى . . سنرى على أية حال .

وسمعت سوزان تقول :

- أين تركتني وذهبت ؟ .

فقلت :

- انني معك طوال الوقت.

- أنظر الى هذه السمكات الصغيرة البائسة .

فألقيت نظرة على الماء ، وقلت :

- انها بائسة حقا . . يا لصديقاتي المسكينات .

- صديقاتك ؟ . .

- نعم .

- ومنذ متى ؟ .

- منـذ زمن بعيـد جدا . . هل تصدقين ؟ . . كنت ألازمها طوال فصل الصيف . . من شروق الشمس حتى مغيبهـا . . وكـانت تعض أطراف أصابعي ، فأتصورها تصافحني وكنت أعتقد أنها الأسماك نفسها تعضني كل يوم ، وأنها تعرفني ، وتنتظرني وتودعني . حتى لقـد صور لي خيـالي الطفـولي أنها تعرف كل شيء عني ، وأنني أستطيع فيها لوحصلت على مرهم خاص أدهن به جسمي ، النزول اليها ، ومحادثتها ، وزيارتها في بيوتها . كنت مأخوذا بحكاية السمكة الذهبية التي صادفت صيادا لطيفا ، وقدمت له المرهم السحري ، ورافقته في رحلة رائعــة تحت المـاء ، التقى خلالهـا بأبـويهـا ، وتلقى هدايـاهما الثمينـة . ثم هداني تفكيري الى حل آخر ، فصرت أصطاد بعض السمكات بواسطة قطعة قماش أعدها بشكل ملائم ، ثم أحملها في اناء الى البيت ، وأجلس الساعات الطوال ألاطفها ، وأكرمها بفتات الخبز وقطع الخضار ، وأنا أعتقد اعتقادا راسخا أنها سعيدة بتلك الزيارات ، وأنها قد تخرج ذات يوم عن صمتها ، وتقدم لي المرهم السحري ، وتدعوني لرد الزيارات . .

- وبعد ذلك ؟ . .

- بعد ذلك كبرت ، فصرت اصطادها بواسطة الشص ، وأشويها بالنار ، ثم ألتهمها .

- آه ، يا للصغيرات المسكينات .

- كلا ، أنا لا أصطاد الصغيرات ، لأنها لا تستحق العناء .

فضحكت ، وقالت وهي تسند رأسها الى كتفي :

- أما أنا فقد قضيت طفولتي على مقعد دراجة ، أقطع بها الرصيف من أوله الى آخره ، ذهابا وايابا ، والأولاد يركضون خلفي ، والعرق يتصبب غزيرا من وجهي ، وشعري يتطاير في الهواء ، ولم تكن الدراجة ملكي . كانت لابن الجيران ، وكان يعيرني اياها . . أتدري لقاء ماذا ؟ .

- لقاء ماذا ؟ . . . بعض السكاكر ؟ . .

فقهقهت بمرح وقالت :

- لقاء قبلة . . كان يأخذ القبلة مقدما في مدخل العمارة بعيدا عن الأنظار . وكثيرا ما كان الخبيث ينتزع قبلة ثانية ، بحجة أن الأولى صغيرة جدا وغير كافية . . ولم أكن آبه لقبلاته في غمرة لهفتي لركوب الدراجة . . .

- وبعد ذلك ؟ .

- بعد ذلك كبرت ، فدعاني لركوب سيارته . . ولكني رفضت طبعا .

عادت تقهقه بشدة ، ثم أردفت :

- وهكذا ترى أننا من فصيلتين مختلفتين . . أنت من فصيلة الأسماك ، وأنا من فصيلة الدراجات . . أليس هذا ما عنيته باشارتك الى الاختلاف في الذوق والبيئة ؟ .

قلت وأنا أدعوها للنهوض :

- من يطمح الى اقامة علاقة مع الاسماك ، لا تعيقه الدراجات .

في تلك اللحظة ترامى الى أسماعنا صوت بوق السيارة يدعونا للرحيل ، فمضينا بلا رغبة . . وسألتني ونحن نقطع المسافة وكأننا ننتزع من الارض انتزاعا :

- ماذا ستفعل هذا المساء ؟ . . هل ستذكرني ، أم أنك ستنهمك في اعمالك ؟ ! .

فقلت لها وأنا أحثها على الاسراع :

- كيف سأتذكرك ، وأنا أفكر بك طوال الوقت ؟

أشرقت أساريرها لهذه الاجابة الموفقة ، وقالت وهي تحدق في الفضاء مفكرة :

- قرأت هذا الجواب في كتاب ، لم أعد أذكر اسمه . . هل كان صاحبه شاعرا ألمانيا ؟ .

قلت :

- وأنا أيضا لم أعد أذكر اسمه . . ان أقوال الشعراء تغدو فور صدورها ملكية عامة ، أليس كذلك ؟ . . ألا يحق لي استعمال أقوالهم اذن ؟ . . .

- طبعا ، طبعا . . بل انه لجميل منك أن تفعل .

عادت تسألني بعد لحظة صمت ، وبلهجة غامضة مداعبة :

- هل تريد أن نلتقي اليوم مرة أخرى ؟ .

- اليوم ؟ . .

ولكني تداركت بسرعة :

- أريد بالتأكيد . . ولكن كيف ، من فضلك ؟

- نعم ، ان ذلك ممكن .

- اذن أسرعي باطلاعي على اقتراحك .

قالت هامسة :

- نلتقي في منتصف الليل .

- في منتصف الليل ؟ .

فأغرقت في الضحك وهي ترى دهشتي ، وقالت :

- لا تخف . . لن أطلب اليك القفز من فوق السور ، وتسلق الشرفة ، والتسلل من النافذة . . الأمر بسيط جدا ، لكنه هام جدا . . عندما تسمع دقات الساعة تعلن الثانية عشرة ليلا ، توقف عن أي عمل يكون بين يديك . . استيقظ في الحال اذا كنت نائما . . وفكر بي وحدي لمدة خمس دقائق . . اياك أن تشغل نفسك ، أو ذهنك بأي أمر آخر . . اياك . . لأني سأعرف ذلك . . سنلتقي بهذه الطريقة ، فما رأيك ؟

أبديت اعجابي البالغ باقتراحها ، وقلت وأنا أفتح لها باب السيارة :

- سيكون لقاء رائعا . . سيكون رائعا بالتأكيد .



١٢ ـ مفارقات وشكوك ؟

كانت الايـام التـاليـة ، سلسلة من المبـالغـات الواقعية ، فقد وقعت في المصيدة مثل ذبـابـة حطت على شريط لزج ، وسقطت مثلما سقطت تلك الثمرة من غصنها لتثبت قانون الجـاذبيـة . ولكن قانـون نيـوتن لم يفقد الكائنات شهيتها المذهلة ، ولم يقلل من قوة الجاذبية الازلية الاخرى ، فالذباب يحط على الاشرطة اللزجة كل يوم ، والثمار تتساقط باستمرار من جميـع أشجـار العالم . . تنقرها العصافير ، تطيح بها الرياح ، وتقطفها الايدي ، وتقضمها الحيوانات ، وتدوسها الاقدام .

الحب مبـالغـات ، وعلم التشـريـح وقائع ، ومادتهما واحدة ، لكن ، شتان بين هذا وذاك . فغـرفـة العمليـات في المستشفى لا تصلح مخدعـا للحب ، رغم أن الاطباء ليسوا في النهاية الا بشرا ، يحبون ويكرهون ، ويعيشون ويموتون .

هم يشـرحـون الجثث ، ويخـرجـون الأجنـة من بطـون أمهـاتها الميتات ، مثلما يخرج الحـاوى أرنبـا من القبعـة ، ثم يتبـارون في جمعها داخل أوان بلورية ، يعرضونها في مداخل عيـاداتهم الا أنهم يعـودون دائـما الى زوجـاتهم واطفـالهم ، لأن الاطباء ليسوا في النهاية الا بشرا ، يحبون ويكرهـون .

وهم يدبجون التقارير الجليدية عن حالات الوفاة ، ومزاجهم رائق تماما . . يرتشفون قهـوتهم ، ويـدخنـون لفـافاتهم ، ويكتبون : جسم صلب وحاد . . ثقب الجمجمة بعمق كذا ، وبقطر كذا . . فسبب تخدشا ، أدى الى نزيـف ، نجمت عنه الوفاة . . ويستمعون الى احتجـاجـات وتـوسـلات المفجـوعـين بأعصـاب باردة . . ماذا يا دكتور ؟ . . ثقب في الجمجمـة ؟ . . تخدش ؟ . . ولكن هذه الاسبـاب لا تستوجب الوفاة . بينما الحفار يغوص حتى كتفيـه في القـبر الجـديد ، وهو يصفر لحنا شائعا . ولكن الاطباء يبكون موتاهم بحرقة وسخاء ، نعم ، لانهم ليسوا في النهاية الا بشرا ، يعيشون ويموتون .

هذا شيء وذلك شيء آخر . . مادتهما واحدة حقا ، ولكن ، شتان بين هذا وذاك . فالجسد على سرير التشريح غيره على سرير الحب . . الوضع يختلف والرموز تختلف . . هنا نتلمسه بالمبضع ، وهناك بالأنامل . . هنا نقترب منه بالقفازات والكمامات ، وهناك نقبل عليه ، ونلتحم به ، ونزيل كل حاجز مهما كان شفافا ، ونتمنى لو ننصهر واياه في جسد واحد . واذا كان لا مجال للمقارنة ، فلا مجال للفصل أيضا . الوقائع والمبالغات ، والحقيقة والخيال ، يستطيعان التعايش في غرف متجاورة . وحتى الحق والباطل ، يستطيعان التفاهم بالطريقة نفسها . وقد حدث في رودس ، وقبل ربع قرن من الزمن ، ان توصل الحق والباطل الى نتائج مشتركة ، بواسطة الغرف المتجاورة ، ولم يسخر من تلك النتائج أحد على الاطلاق .

ومهما يكن من أمر ، فقد كانت تلك الايام سلسلة مثيرة من المبالغات الواقعية . ولكن قانون الجاذبية ، وعلم التشريح ، وغيرهما وغيرهما ، كانا جميعا لي بالمرصاد . فأصبحت تارة أرى جمجمة ، وتارة أرى تاجا . . أرتد مزعورا ، وأقدم مبهورا . . أنقض على التفاحة برغبة وشهية ، فيعترضني قانون الجاذبية . . أغوص في أروع سر من أسرار اللذة الأبدية ، وفجأة ، أرى أمامي قبعة الحاوى ، وأذني الارنب ، والقفازات ، والجهاز التناسلي ، والكمامات ، والصراخ ، والمهد ، والقبر . فأتعذب عذابا لا يطاق ، وأحسد الكائنات الاخرى ، وأغبطها على خلوذهنها ، والآلة الرهيبة تضج داخل رأسي برتابة ، فألعن الفلسفة باعتبارها علم العلوم . . أنا المخلوق البائس الذي يدعي الأيمان بكروية الارض ، والذي بصم على وثائق رودس بابهامه الأيسر . . ألعن الفلسفة بحقد وضغينة ، بعدد فروعها ، وأبوابها ، وفصولها . ولولا الخوف من الجنون ، لبقيت ألعنها بعدد ما قيل فيها من كلمات .

حسنا . . على أية حال ، كانت تلك الأيام مأساة رائعة ، وأتونا منعشا ، وأزمة مشرقة ، وخليطا من اللذائذ القصوى والآلام المضنية .

لقد بدأت أشك بوجود نابليون أصلا ، وأعتبره شخصية خرافية مختلقة ، وأسخر من نظام الادراج الملفق الذي نسب اليه . . اذ من يستطيع الفصل نهائيا بين الامور ، والانصراف كليا الى أمر واحد ؟ . . واذا كان ستالين قد اتفق مع الحلفاء ضد المحور ، فكيف خاض العرب حربا ضروسا في القادسية واليرموك ، وفي وقت واحد ، وضد امبراطوريتين كانتا تهيمنان على العالم في ذلك الزمن ؟ . .

بين آونـة وأخـرى ، كانت سوزان ترقبني بعينـين قلقتـين مستفسـرتين . وذات مرة ، سمعتها تقول ، وقد كدت أغفو على ذراعها :

- أنت لم تعد تحبني !

فغضبت غضبا صادقا ، وقلت لها بلهجة لا تخلو من قسوة :

- أي برهان لم أقدمه ، سوى دعوتك لننتحر معا ؟ !

تفحصت غضبي قليلا ، ثم أحكمت تطويقي بذراعيها وساقيها ، وأخفت وجهها في صدري دون أن تنبس بكلمـة واحـدة ، فخيـل الي انها غفت مطمئنة ، ولكنها رفعت رأسها بعد قليل ، وعادت تتأملني بصمت . أما أنا ، فقد كنت أتأمل غضبي الصادق ممتعضا . . أهـرب الى الامـام ، وكلما امعنت في التقـدم ، ازددت تراجعا ، فكأن الارض تفر من تحت قدمي باتجـاه معـاكس . . وفـوق رأسي تحوم طيـور الأسى ناعقـة ، والفـرحـة تتلفت حولها متوجسة وتهم بالفرار ، فألمح تحفزها وتصلب اجنحتها الملونة .

وفي احد الأيام ، سألتني نجوى وأنا أهم بمغادرة البيت الذي صرت أتغيب عنه كثيرا :

- هل أنت على ما يرام ؟ ! .

فتجمدت يدي على مزلاج الباب ، وهممت أن أقول شيئا ، ولكني تلعثمت ، وخطر لي أنها تعرف كل شيء بواسطة حاسة الشم ، وأن رائحة الجنس تفوح مني مثلما تفوح رائحة المخمور الذي تقيأ على ثيابه .

وفي وقت آخر ، سألني البلاف وهو يغمز بعينه متخابثا :

- كيف حال أوزتك ذات النبرات الرائعة ؟ . . ألن تعرفني بها ؟ . .

خطر لي أنه يسخر مني ، وأنه مطلع على دقائق الأمور ، فقلت له باستخفاف :

- انها رائعة مثل نبراتها ، وسأعرفك بها حتما في وقت قريب .

ثم بدأت أهـذي بيني وبـين نفسي أنني لن أحقـد عليـه اذا كان يقـابلهـا من وراء ظهري . . بل حتى لو كان . . . . . ، ولكني تذكرت انها معي معظم الوقت ، وأني أتركها دائما وهي بأمس الحاجة للنوم العميق .

أما سوزان فقد طلبت الي بالحاح أثار أرتيابي أن أمر أمام نافذتها في ساعة متأخرة من الليـل . وقـد حققت رغبتهـا العجيبة ، وقطعت الشارع الخالي متمهلا ، فوجدتها تنتظر في نافـذتهـا بثـوب ابيض شفـاف ، بلا صدر ولا أكـمام ، مثـل عروس تستقبـل فارسها في ليلة الزفاف الثانية .

كانت قريبة وبادية للعين كأنها تقف على الرصيف ، فتوهمت مرتاعا أنني ضحية مؤامرة ألعب فيها دور العاشق المغفل ! . فعجلت الخطا ، وانعطفت في احد الشوارع الجانبية ، وتحولت أرقب البيوت لاهث الأنفاس ، وأنا أتوقع أن يطل برأسه رجل ضاحك ، استبدل دراجته بسيارة منذ سنوات ! .

أضاءت في تلك اللحظة احدى النوافذ المقابلة لنافذتها ، فازددت اضطرابا ولهاثا ، ولم أعد أقوى على الوقوف ، فابتعدت بخطوات متأنية وقوية ، اعتقدت انها كفيلة بايقاظ كافة النيام ، تراودني أحاسيس الفارس الذي يكتشف ما يحاك له في الظلام ، فيبتسم ، ويقرر بهدوء أن يستمر في اللعبة الى نهايتها . . وماذا يهمني اذا كانت على صلة بابن الجيران ، أو بالبلاف ، أو حتى بالشيطان نفسه ؟ ! . . ولكني لا أقبل أبدا أن تستغفلني ، وأن تستخدمني طعما غبيا . . أنا لا أقبل بهذا أبدا ! . .

وعندما التقينا في الصباح ، وجدتها غاضبة ، ووجدتني بدورها متجهما . سألتني عن السبب الذي دفعني الى الانصراف بسرعة ، وجعلني أتلاشى مثل الأشباح دون أن ألتفت اليها . فلم أجبها ، وانما سألتها بلا مقدمات :

- ما أخبار صاحب الدراجة ؟ ! . .

- صاحب الدراجة ؟ ! . .

فلم أجبها ، وبعد أن فكرت قليلا ، هتفت :

- آه ، الدراجة ؟ . . صاحب الدراجة ؟ .

وظلت تضحك حتى دمعت عيناها ، ثم أردفت بصعوبة :

- العاشق الصغير . . ولكن كيف تذكرته ؟ . . لماذا خطر ببالك الآن ؟ . .

قلت بجفاء حقيقي :

- لأن الصغار يكبرون عادة ، ولأن الدراجات تتحول الى سيارات ! . .

حدقت بي ، وكفت عن الضحك في الحال ، ثم قالت وفي نظراتها شيء من الخوف ، ممزوج بشيء من الرضى :

- اطمئن يا سيدي . . . انه في الأرجنتين منذ سبع سنوات . . متزوج من اجنبية ، وله منها نصف دزينة اولاد . .

سكتت هنيهة ، ثم قالت وهي تتفحصني بقلق :

- ماذا ؟ . . هل أنت على ما يرام ؟ . .

لم أكن على مايـرام . . لم أكن أبـدا على مايـرام ، وقـد أثـارني استفسارها الى أبعد الحدود ، فكدت أخرج عن طوري ولكني تماسكت ، وعدت أسألها :

- ولكن ، ما هو غرضك من وراء مشروع الأمس ؟ . .

- مشروع الأمس ؟ . .

- نعم ، دعوة الليل .

فقالت مدهوشة :

- ما هو غرضي ؟ ! . . أردت أن تكون آخر انسان أراه قبل النوم . . أوصدت باب غرفتي من الداخل ، وتظاهرت بالنوم لهذا الغرض . . هل أزعجتك برغبتي الطائشة ؟

لم أجبها . . كنت رديئا ، وفظا الى أبعد الحدود . . وعادت تقول بلطف :

- وأردتك أن تراني في غرفة نومي . . ما رأيك بقميصي ؟

هممت أن أستفسـر عن أمـور أخـرى . . عن النافذة التي أضاءت . . وعن النسمات التي هبت ! . . يا الهي . . كنت على وشـك الجنـون الحقيقي ، ولكني نجحت في امسـاك لساني ، واكتفيت بالقول :

- سوسن . . هل سألتك مرة عن شؤونك الخاصة ؟

- لم تسألني !

- ولا أنوي سؤالك عنها . . لا أريد أن أعرفها من قريب أو بعيد . .

فظهـر عليهـا أنهـا لم تفهم شيئـا ، ولكنهـا لم تستـوضحني . . . بينـما هي غارقـة في التفكـير ، خيـل الي أني أسمـع أفكـارهـا بأذني ! . وعدت أسترجع صور الليلة الماضية ، وأتأملهـا في نافـذتهـا بثوبها الابيض ، عارية الصدر والذراعين ، والنسيم يداعب خصلات شعـرهـا الفاحم ، وعيناها تترقبان وصولي ، مثل عروس في ليلة زفافها الثانية . وأحسست فجأة أني أتخبـط في بحـر من الأوهـام والأخطـاء ، فرغبت بمـواصلة الحديث . . ولكن ماذا أقول ؟ . . نفذت الاشعار أو كادت ، فماذا أقول ؟ . .

- سوسن . . كان قميصك رائعا .

- صحيح ؟

- أتدرين لماذا كان رائعا ؟

- لماذا ؟

- لأنك كنت ترتدينه .

- شهريار !

فسألتها وأنا أتلفت حولي مازحا :

- الى من توجهين حديثك ؟

فقالت بمرح :

- ألم يغلبك الشوق الى صاحبك الساطور قبل لحظة ؟ . . اعترف . .

- اعطيني الأمان يا مولاتي أولا .

- عليك الأمان .

- مهما بدر مني ؟

- مهما بدر منك .

- وأيا كان جوابي ؟

- نعم .

- اذن ، لن أعترف بشيء .

فضحكنا معا بصفاء لأول مرة ، ثم سألتني :

- أصدقني القول . . أما زلت تحبني ؟ . .

ولكنها عدلت عن سؤالها ، وصاحت :

- آه ، لا تقل شيئا . . كم أنا طائشة . . هذا السؤال لا جواب له . . جوابه عندي ، أليس كذلك ؟

وبعد قليل سألتها :

- ماذا تقرأين في هذه الأيام ؟

- أعطني الأمان يا مولاي أولا .

- حسنا ، عليك الأمان .

- أنا لا أقرأ يا مولاي سوى الكف .

- الكف !

عدنا نضحك من جديد بصخب .

- وماذا تريدني أن أقرأ ؟

فقلت جادا :

- سوسن . . سأضطر للتغيب بين وقت وآخر . . هناك بعض الأعمال الضرورية .

- اذن سأعرف كيف أنتظرك ، وسترى أية قارئة أنا . . سأذهلك .

فيما بعد ، أذهلتني سوزان فعلا ، واكتشفت فيها قارئة جيدة مستوعبة . فقد طالعت كتاب عمار أوزيغان عن «الجهاد الأفضل» وكتاب «الكسندر بيك» عن «قصة الرعب والجرأة» ، وانتهت منهما خلال أيام قليلة ، ولخصتهما أمامي دون أن تغفل أيا من الوقائع الأساسية . ولكنها كانت متحمسة بشكل رئيسي للبلاغة الأدبية ، وللبراعة في صياغة الحجج المنطقية . وقد صعب علي أن أسبر رأيها في وجهات النظر التي طرحها المؤلفان ، وتساءلت ان كانت قد قرأت وحفظت اكراما لي ، وعن أي حد يمكنها أن تبلغه في سبيل أرضائي ، وعما اذا كان بامكانها اقامة علاقة حرة ووثيقة مع عالم الفكر ، أم أنها تحمل نفسها ما لا تطيقه ، وما لا يمكن أن تطيقه وقتا طويلا . وفكرت بالنابض المعدني الذي يحتمل الضغط الى اقصى حد ، ويتشكل كما نريد ، ولكنه سرعان ما ينتفض عائدا الى طبيعته وشكله الاصلي حالما نرفع أصابعنا عنه .

* * *

لقد أردت أن أحصل على بعض الوقت لانجاز مهمة ندبت نفسي لها ، وهي اعادة البطاقة الشخصية الى صاحبها . . بطاقة العامل التي أعطانيها العم عبد الغني اثر الحادث الذي وقع له مع ابنته . وكنت قد فكرت أن أدع الشرطة تتكفل بايصالها ، ولكني وجدت داخل غلافها الجلدي ورقة تتضمن معلومات تحدد منطقة سكن الرجل ، فعزمت أن أذهب اليه ، وأسلمها له شخصيا ، لأسباب لم تتبلور في ذهني بعد ، وان كنت أتصورها لا تتجاوز حدود الفضول . ولقد بدأ تطاول الوقت يعطي هذه المهمة قيمة لا تستحقها ، وحجما يفوق حجمها المتواضع ، بسبب الحاحها الدائم على ذهني ، ولذلك صممت على انجاز هذا العمل البسيط دون أي تأجيل .





الأيام التالية

١٣ ـ القفز الى المستقبل !

يقـع حي الـزهـور في طرف قصي من أطـراف العـاصمـة ، وسيصاب المرء بالدهشة حتـما ، حين لا يجد في هذا الحي البـائس أي اثـر للزهور ، فكأن هذا الاسم أطلق عليه من باب التهكم ، على لسان ناقد ساخر . وقد يكون ضربا من العادة التي سار عليها الناس في اعطـاء أنفسهم أسـماء لصفـات لا يملكـونهـا . فقـد سمعت عن سيـاسي بارز يلقب بـ «الشـريف» قصصـا مروعـة ، تدل على أنه لا يملك ذرة من الشرف . . عمل وزيرا ، بينما هو مطلوب من «الانتر بول» ! . . وحصل على القروض لبلده ، فأودعها في البنوك الأجنبية لعدة أشهر ، وجنى فوائدها الكبيرة لحسابه الخاص ، قبل أن تدخل خزينة حكومته ! .

وربـما أعطي الحي القـاحـل هذا الاسم النـدي ، لأن الأسـماء لا تخضـع لنظـام الأسعـار ، فهي ملكيـة مشـاعيـة ، ويستطيـع أي رجـل مهـما كان معدما ، أن يسمي ابنه «مـالكـا» ، وأن يسمي ابنتـه «جميلة» مهـما كان نصيبها من الدمامة والقبح ، دون أن يخشى لومـة لائم ، باعتبـار أن القـانـون بجـانبه ، يحميه ، ويكفل له مطلق الحرية في الاختيار . كذلك لا يخفى أن الانسان بطبعه ميال الى التيمن باسم كل ما هو قوي وغني وجميل .

وعلى أية حال ، من يدري ؟ . . فقد يصبح هذا الحي ذات يومْ حقلا مزهرا يستحق اسمـه بجـدارة . وليس ما يمنـع ذلـك طالما أن التراب متوفر بكثرة ، والأرض لا تضن بأي نوع من أنواب النباتات ، عندما نعرف كيف نطالبها بما نريد .

* * *

لقد نجحت أخيرا في تسلق السيارة الكبيرة بعد انتظار طويل ، وبعد أن فشلت مع غيرها مرتين بسبب الزحام ، حتى كدت اعدل عن الرحلة نهائيا ، خاصة وأنني استبعدت

فكرة استئجار سيارة صغيرة لأسباب كثيرة ، بعضها من صنع هواجسي ، وبعضها منطقي تستلزمه طبيعة المهمة التي نهبت نفسي لانجازها . فقد أردت أن أكون عاديا ومتلائما الى أقصى حد ممكن ، عندما ألتقي بالناس الذين لم أشاهدهم قبلا ، ولا أعرف شيئا عنهم .

ولا أكون مغاليا اذا قلت أني وجدت نفسي في حي الزهور منذ ولجت باب السيارة الهرمة . فاعتبرتها بداية حسنة تؤهلني لتقبل المناخ الجديد ، مثل بهومعتدل ، يفصل بين الطريق البارد ، والداخل الحار .

نظرت الى دمشق من النافذة كأني أراها مصورة على شريط ، في مكان يبعد آلاف الأميال . فأحسست بالغربة على الفور . ولكنه لم يكن ذلك الاحساس المثبط للعزيمة ، الذي يولده الافلاس والعجز واليأس ؟ . . فأنا قادر على العودة من أول الطريق ومن نصفه ، ومن آخره . وقد لاحظت كيف غدوت محط فضول بعض الذين استقروا في مقاعدهم ، الا أنه كان فضولا محايدا ، لا تشوبه أية شائبة ، ولا يخلومن مودة يتميز بها الفقراء عامة .

ما أن أغلقت الابواب حتى خار المحرك مثل ثور عجوز يئن من قسوة النير . وتحرك الهواء محملا بالروائح النفاذة لبعض المواد والأطعمة ، ودارت الأحاديث بلهجات مناطق مختلفة . ومد جاري في المقعد يده محملة بنوع من الحلويات الشعبية ، فعزم على كل من حوله ، وانتهى عندي ، فاعتذرت شاكرا ، وسألته ان كان لا يمانع في فتح النافذة ؟ .

- أعوذ بالله . . تكرم عينك .

وتحول بحماس يجرب فتحها بمشقة جعلتني أندم على طلبي .

- يبدو أنها خربة ؟ .

فقال وهو يضغط الزجاج بكفيه الى أسفل :

- سينزل أخيرا . . أنا أفتحه كل يوم .

- أشكرك ، فقد أتعبتك .

التفت الي بوجه يطفح بالرضى ، وبدا سعيدا لأني توجهت اليه بطلبي ، وراغبا في تقديم خدمة أخرى من أجلي . وبعد أن نقل بصره بيني وبين النافذة عدة مرات ، هب واقفا ، ودعاني باصرار لأخذ مكانه ، مدعما اصراره بقسم غليظ ، فنزلت عند رغبته حسما للجدل الذي وجه الينا الانظار .

- أصبح الطقس حارا هذا اليوم .

فأجاب وهو يتململ في جلسته :

- نعم ، هجم الصيف مبكرا .

كان يغـافلني ، ويختلس النظـر الى وجهي ، وثيـابي ، وحذائي ، وخمنت أنه يريد أن يقول شيئا ما لا علاقة له بالطقس والنافذة .

- عفوا . . عدم المؤاخذة . .

راح يفتش عن الكلمات بين قدميـه ، وقـد أخذ وجهه طابعا غريبا . وكان يفرك كفيه احداهما بالاخرى ، كأنه يريد أن يلقي أمامي سرا خطيرا ينوء بحمله .

- أريد أن أسألك سؤالا لو سمحت . .

- تفضل ؟ .

- هل يمكنني أن أجد بواسطتك عملا ؟ .

لم أكن أتـوقـع مثـل هذا السؤال في الـواقـع ، وقـد داهمني وأنـا في غفلة من أمري ، فاستعصى علي القول ، ولم أجد أية كلمة مناسبة .

- لا تؤاخذني ارجوك . . .

- أبدا . .

- ولكني قلت لنفسي أنك قد تعرف مكانا يحتاج الى عمال باعتبارك موظفا ! .

- باعتباري موظفا ؟ ! . .

- اذا كنت لا تعـرف ، سامحني ، واعتـبرني لم أقـل شيئـا . . لم أقصد ازعاجك . . قلت لنفسي أجـرب ، فالصـدفـة أحيـانـا خير من ميعـاد . . عندي عشرة أرواح ، تطلب الطعـام ثلاث مرات في اليـوم . . وأنـا أعمـل ثلاثـة أيام ، وأقعد عشرة . . قلت لنفسي : اسأله . . اسأل أي انسان تصادفه ، فلن تخسر شيئا ، ولن يضربك احد بسبب سؤالك . .

قلت له وقد عجبت أشد العجب لطريقته في الحديث :

- ولكن ، لماذا تسأل بهذه الطريقة المهينة ، كأنك تتسول ؟ . . أولا أنا لست . .

فقاطعني وهو يرفع يده الى أعلى كأنه يدفع بها خطرا :

- هل أغضبتك ؟ . . هذا ما كنت أخشاه . . يا سيدي لا تؤاخذني ، واعتبرني لم أقل شيئا .

- لا تفهمني خطأ أرجـوك ، فأنـا أريـد أن أقول شيئا آخر . . أولا ، أنا لست موظفا

كما توهمت ، وثانيا ، ان العمل حق تطالب به ، ولا تتسوله . .

فافتر ثغره عن ابتسامة محملة بالمعاني ، وقال وهو يرقبني بحذر :

- لست موظفا ؟

- أبدا .

- أنا لا أريد أن أزعجك كائنا من كنت ، ولكني أقول لك أن ابن الحكومة لا تخفى شخصيته على رجل مثلي يعرف كل دواوين الدولة ! . .

- اذن ، أنت حر في أن لا تصدق .

ظل يراقبني لحظة بحذر أشد .

- جميع الموظفين يقولون الكلام نفسه ، ويجيبون الجواب نفسه . . العمل حق تطالب به . . سمعت هذه الجملة بعدد شعر رأسي ، ومن جميع الموظفين الذين قابلتهم . .

- جواب صحيح أيا كان قائله . .

فلم يعر تعليقي أذنا صاغية ، وتابع كأنه لم يسمعني :

- سمعت هذا الجواب من جميع الموظفين الذين قابلتهم في اتحاد العمال ، وفي مكتب الحزب ، وفي وزارة العمل ، وغيره وغيره . .

عدد هذه المكاتب بلهجة تنم عن زهو فارغ وبائس ، يستند الى مجرد معرفته بها ، وقدرته على تعدادها .

- ولم تجد عملا عند كل هؤلاء ؟

- سجلوا اسمي ، وطلبوا الي الانتظار .

- اذن ، فقد طلبت عملا ليس متوفرا ، واعتذرت عن اعمال متوفرة .

ففوجيء بكلامي الى درجة اتسعت معها حدقتاه ، وقال :

- حسنا ، لقد طلبت ان اعمل آذنا في احدى المدارس . . أنا مريض لا أقوى على الأعمال الصعبة . . وما هي وظيفة الآذن هذه ؟ . . هل هي وظيفة وزير حتى تكون غير متوفرة ؟ .

قلت ضاحكا :

- تريد أن تصبح موظفا ، أليس كذلك ؟

فظهر الضيق على وجهه ، وقال بلهجة خافتة وغاضبة :

- أعرف كثيرين وجدوا عملا عن طريق الواسطة ، وصرت مقتنعا أن تسول العمل

أجدى من المطالبة به كحق . . مشاكل الانسان في بلادنا تحل في بيوت السكن ، وليس في مراكز العمل . .

هززت كتفي دون أن أجيب ، وحولت وجهي الى النافذة ، وأنا أتوقع أن يتابع حديثه .

- على كل حال ، لي قريب . . عريف في الجيش . .

التفت . اليه . . كان مضطربا ، وفي عينيه شك واضح ، وقلق مبهم وقد همس في اذني بلهجة دفاعية :

- انتقل الى وظيفة مدنية . . فرزوه الى مكان مهم . . وهوحزبي . . وقد أخبرني أن (معلمه) يحبه ، ولا يرفض له طلبا ، وأنه سيحدثه بشأني في أول فرصة مناسبة .

بعد أن أفشى سره الخطير ، تطلع الي بشبهات مصطنع ، كأنه يتوعدني . أما وجهه الطيب المعروق ، فقد ظل ينطق بكلام آخر ، ويعبر عن معاني أخرى . وشعرت بالحرج ، وأيضا بالعار والأسى وأنا أتأمل في هذا المخلوق الضعيف المشوه ، أما هو ، فقد استمر يتحداني بنظرات منفرة تبعث في النفس الحزن والرثاء .

فكرت بتبديد ذلك الجو الكريه ، فلم أجد طريقة أفضل من تغيير مجرى الحديث . وخطر لي أن أستفسره عن الرجل الذي أقصده . فأحقق بذلك عدة فوائد دفعة واحدة .

- هل أنت من حي الزهور ؟

فظهر الارتياح واضحا على قسماته بعد أن استمع الى سؤالي . . لكأني قبلت بالمصالحة ، ورضخت لشروطه ، ووافقت أن أكتم ما دار بيننا من حديث ! .

- أنا واحد من القلائل الذين أسسوا هذا الحي . . ضربت في أرضه أول معول ، ووضعت أول لبنة ، وأعرف عدد بيوته الآن .

- وهل تعرف شخصا يدعى عيسى حماد ؟

- عيسى حماد ؟ !

تبدل لونه ، وظهر الارتياب في عينيه من جديد . ولاحظت أن ترديد الاسم بدأ يجتذب انتباه عدد من الركاب .

- ألا تعرفه ؟

- لا ، احم ، اسمع بهذا الاسم ، ولكني لا اعرفه .

عندئذ آثرت الصمت ، وتحولت الى النافذة وأنا أتساءل : ترى ما حكاية عيسى حماد

هذا ؟ . . واذ بجاري يسألني هامسا :

- اذن أنت تعرف قريبي العريف ؟ !

- ومن هو قريبك هذا ؟ !

- اسمه . .

فقاطعته بجفاء

- ولماذا تظنني اعرفه ؟

قال وهو يتراجع الى الخلف :

- حسبتكما تعملان معاً في دائرة واحدة !

* * *

عندما غادرت السيارة ، خيل الي أن الناس ينفضون بأسرع من المعتاد . ولمحت رفيق الطريق ، يقف بعيدا ، ويتهامس مع رجل آخر . فلما تقابلت نظراتنا أدار ظهره موليا ، واختفى خلال ثوان عبر زقاق ضيق . وحذا الرجل الآخر حذوه ، بعد أن ألقى علي نظرة غامضة ! .

كان الوقت عصرا . وعلى مقربة ، لاح ظل هزيل متطاول ، لبقايا شجرة يابسة لم يبق منها الا الجذع ، وفوق الأرض الترابية ، على بعد عدة امتار ، تكاثر الذباب الملون فوق جيفة كلب نتنة تصلبت قوائمها الأربع باتجاه السماء . لقد وقفت مترددا لا أدري أي اتجاه أسلك ، ولا الى من أتوجه بالسؤ ال . وعادت بي الذكرى الى سنين بعيدة خلت ، والى أحياء فقيرة انقطع عهدي بها . ولكني قررت أنها لم تبلغ هذا المبلغ من البؤس والحقارة . انني أشاهد لوحة ما كنت أتوقع أن أجدها قاتمة الى هذا الحد . وما كنت أتوقع ! . . ولكن لماذا ما كنت تتوقع؟ . . أظننت الفقر انتفى منذ شبعت اللقمة ، وأن الدنيا ضحكت للجميع منذ ضحكت لك ؟ . . أتصورت نفسك محور العالم يا هذا ، وأنك مقياس سعادته وتعاسته ؟ . . أنك اذا كنت بخير ، فالناس جميعا بخير ؟ . . أيها الأحمق ، الذي يكدح وراء المنضدة ، ويفتش عن نتائج جولاته البطولية في أعمدة الصحف ، ونشرات الأخبار ، وخلال جلسات المساء الناعمة أمام شاشة التلفزيون ! . . أيها الاحمق ، الذي ظل يتصور بغباء منقطع النظير أن مجموعة من المراسيم التشريعية ،

كفيلة بمحق البؤس في طرفة عين ! . . أيها المغفل ، الذي راح يحصي الانجازات التاريخية على صفحـات الجـريدة الرسمية ، وينام مطمئنا ، قرير العين ، ناعم البال ، بينما البؤس يتنقل مثل مرض جلدي خبيث ، من البطن الى الوجه ، ومن الرأس الى القدم ! . . ماذا كنت تتـوقـع ، وأنت في مكتبـك تستمـع الى «سيمفـونيـة» النصـر ، وتتمتـع بتأمـل لوحـة لبيكـاسـو ، وبـين يديـك آخـر نشـرة احصائية نزلت من فوق ، وعلى يمينك كتاب «المادية الديالكتيكية» وعلى يسارك كتاب «الايديولوجية الانقلابية» ! قلت لنفسي : هذا يكفي ، أنا أعترف أني أنسان ضال .

كان رجـل يستنـد بظهـره الى بقـايـا الشجـرة الميتة ، وقد انهمك باعداد لفافة . فلما شاهدني مقبلا نحوه ، قام بحركة تنم عن رغبة في الانصراف ، ولكنه عاد الى وضعيته بعد أن وجدني على مقربة منه ، وتجاهلني متشاغلا بأصابعه .

سلمت عليـه ، فتظـاهـر بأنـه فوجىء بي . وعندما سألته ان كان يعرف بيت عيسى حماد تصنع التفكير برهة ، ثم هز رأسه نفيا ، وهو يبلل ورقة اللفافة بلسانه .

- اذن ، هل يمكنك ان تدلني على بيت المختار ؟

قلت لنفسي : هذا أيسـر السبـل وأقـربهـا . فأحكم وضع كوفيته على رأسه دون أن يجيب ، وبعـد أن أشعـل لفـافتـه ، تقـدمني عبر زقـاق ضيق موحل . ولاحظت أنه يتعمد الحفاظ على مسافة تفصل بيني وبينه ، ولكنه ، مع ذلك ، سألني دون أن يلتفت الى الوراء :

- خيرا أن شاء الله ؟ .

أجبته وأنا أخطو وراءه فوق كومة قمامة :

- قضية صغيرة ، خاصة .

فهز رأسه مدللا على أن الأمر لا يعنيه ، وجد في السير أكثر من ذي قبل .

- هذا هو بيت المختار . .

كان بيتا لا يختلف في شيء عن بقية البيوت .

- هل تريد شيئا آخر . .

قلت وقد بلغت حيرتي ذروتها ، ازاء اللهجة التي كان يتحدث بها :

- أتعتقد أنه موجود ؟

- هو موجود حتما . . انه لا يتغيب الا قليلا . . لقضاء بعض الاشغال الهامة .

- شكرا جزيلا . . أتعبتك معي .
فقال وهو يتراجع خطوة الى الوراء :
- العفو . . هل يمكنني الذهاب ؟
قلت وقد بدأت أتميز من القهر :
- لماذا لا يمكنك ان تذهب ؟ ! . . أشكرك ، وأرجوك المعذرة .
فتأملني بدهشة واضحة ، ثم دار على عقبه ، وانصرف مسرعا كأن احدا يطارده ! .
ما كدت اقرع الباب حتى انفتح عن رجل متوسط العمر ، راح يرحب بي ترحيبا حارا ، ويدعوني للدخول كأني واياه على موعد . وبعد أن أصبحنا داخل الغرفة ، قال وهو يشير الى كرسي من القش :
- تفضل ارجوك . . أهلا وسهلا .
- أهلا بكم .
كان هذا اول ما تلفظت به من كلمات .
- يبدو أنها الزيارة الاولى التي تشرف بها هذا الحي ؟ .
- فعلا .
فقال وهو يسدل رموشه ، ويفرك كفيه ببعضهما البعض :
- أهلا وسهلا . . الناس هنا طيبون اجمالا ، وكل شيء على ما يرام والحمد لله !
- وأنا أعتقد أن الناس هنا طيبون اجمالا ، ولكن لا أدري ان كان كل شيء على ما يرام ، كما ذكرت .
اهتز لهذه الملاحظة ، وتوقفت كفاه عن الحركة . أما أنا فقد كنت غاضبا . قلت وأنا أحاول عبثا ضبط أعصابي :
- اشعر منذ وضعت قدمي في هذا الحي ، أن شيئا غريبا وكريها يدور من حولي ، وأخشى أن يكون هناك من فهمني خطأ . . لقد حضرت لزيارة السيد عيسى حماد . .
- أعرف .
- تعرف ! . . ولكن كيف ؟ .
فقال وهو يبسط ذراعيه ، ويسدل رموشه من جديد :
- يا سيدي ، الله يخليك . . اذا لم يعرف المختار ، فمن الذي يعرف اذن ؟
- هل أنت على علم بحضوري ؟ !

- طبعا ، الناس الطيبون في هذا الحي الصغير ، يعرفون أخبار بعضهم بسرعة ، فلا تؤاخذهم ، يا سيدي !

لم أعد قادرا على اخفاء غيظي ، فقلت وأنا أبذل جهدا خارقا لأضبط نفسي :

- ولماذا أؤ اخذهم ؟ . . أنا لا أؤ اخذ أحدا ، فليست هذه مهنتي .

بدا عليه أنه لم يفهم شيئا ، فصممت أن أشرح له بايجاز شديد ، متجنبا زيادة تعقيد الموقف .

- جئت اقابل السيد عيسى حماد ، بخصوص بطاقته الشخصية المفقودة . .

امتقع وجه المختار لذكر البطاقة ، فتوقفت لحظة مفكرا ، الا أنني قررت اختصار هذه المهزلة .

- أرجوك أن تدلني على بيته . . هذا كل ما في الأمر . . وما كنت لأزعجك لو أن أحدا قبل أن يدلني .

- استغفر الله . . هذا واجبي يا سيدي . .

ظل لحظة فاغرا فاه ، وهو يتطلع امامه الى لا شيء . . كان مترددا في الكلام ولكنه قال أخيرا :

- كنت أسعى لمنحه بطاقة جديدة ، فهل أتوقف عن ذلك ؟

- أنت حر . . الامر لا يعنيني . . هو من صلب عملك ، كما أظن .

- صحيح ، صحيح . .

لقد فهمت تماما ما يدور حولي ، ولكني كنت عاجزا عن توضيح موقفي أكثر مما فعلت لأن ذلك سيقودني للخوض في أحاديث تزيد الموقف بلبلة وتعقيدا . ولم يعد أمامي ما أفعله ، سوى ترك الأمور تنساب بهدوء ، والحرص التام على التصرف بشكل طبيعي ، يتلاءم والغرض الذي جئت من أجله .

* * *

قادني المختار الى بيت عيسى حماد ، وعندما وقفنا أمام الباب ، استأذنني بالانصراف اذا لم أكن بحاجة اليه ، ثم ولى بعد أن أبدى آيات الأدب والولاء ! . .

قرعت الباب ، فانفتح على الفور ، وخرج منه عيسى حماد ، كأنه ينتظرني وراءه ،

فوقف قبالتي ، ووقف خلفه شاب خمنت أنه ابنه . وخيل الي في تلك اللحظة أن عيونا كثيرة ترقبنا من خلف الابواب والكوى الموصدة .

هتف الرجل متجهما ، وهو ينظر في عيني متحديا :

- نعم ؟ !

تذكرت في الحال وقفته أمام غانم دهب الارض ، وجوابه المقتضب على منحته السخية : «لست محتاجا» .

- مساء الخير .

فرد بحزم ، وبصوت أجش :

- مساء الخير . . نعم ؟ !

- اسمي سعد أمين . . جئت أرد اليك بطاقتك التي فقدتها يوم الحادث . . كلفني العجوز أن أعيدها اليك .

فحملق في وجهي مبهوتا ، وتراخت عضلاته المشدودة ، ثم التفت الى ابنه بطرف عينه . فصاح الشاب وهو يندفع نحوي :

- الاستاذ سعد ؟ . . سعد أمين ؟ . . تكتب في مجلة «مستقبل الانسان» أليس كذلك ؟ .

أومأت بالإيجاب ، فتبدلت ملامح الأب ، وارتبك قبل أن تحتل البسمة وجهه . كان ضخم الجثة ، كبير الرأس ، تغلب البياض في شعر رأسه على السواد . . ورغم أنني عرفته توا ، فقد وجدته مختلفا جدا عن الصورة المهترئة ، الملصقة على البطاقة .

قادني الى الداخل محتضنا كفي بمودة متمتماً ببعض عبارات الترحيب والاعتذار ، ثم أجلسني على أريكة خشبية ، مغطاة بقماش وردي باهت اللون عتيق ، الا أنه كان نظيفا . واستقر أمامي فوق كرسي من القش .

أخرجت البطاقة ، وقدمتها له ، فتناولها ، وقال وهو يدسها في جيب سرواله :

- أتعبت نفسك كثيرا . . هل السيدة بخير ؟ .

- انها بخير ، ولم تصب بسوء .

فقال مفكرا ، كأنه يسترجع صورتها في ذهنه :

- يسرني أن أسمع منك ذلك . . هل هي مريضة ؟

- انها مريضة بالفعل .

فقال بنبرة صادقة ، انما دون مغالاة :

- تألمت من أجلها كثيرا ، وتمنيت لو أستطيع الاطمئنان عليها . . شعرت بالذنب ، رغم أني كنت مثلها ضحية السيارة .

- هذا صحيح تماما ، فليس الذنب ذنبك .

أطرق ملياً ، ثم عاد يسألني :

- هل هي قريبتك ؟

- كلا ، ولكننا ترعرعنا معا مثل أخوين .

- يسعدني أني تعرفت بك . . انها فرصة طيبة حقا . . يبدو أن ابني يوسف يعرفك جيدا ؟

فقلت محرجا بعض الشيء :

- هذا يشرفني ، ويسعدني .

* * *

أقبل يوسف حاملا أقداح الشاي . كان وسيما ، وقد بدا لي بقامته الطويلة ، صحيح الجسم ، قوي البنيـة . وتسـاءلت : ترى كيف يكتسب بعض الفقـراء مثـل هذه البنيـة القـويـة ؟ ! . وكـانت عينـاه الـزرقاوان الضيقتان تبرقان باستمرار ، وتفصحان عن رغبة في الكلام لا حدود لها . وقد قال وهو يذيب السكر بملعقة صغيرة :

- يا للمفاجأة السارة . . حصلت على عنوانك لأذهب اليك ، واذا بك تأتي الينا .

فقلت مؤمنا على كلامه :

- انها بالفعل مصادفة طيبة .

- عنـوانـك لا يزال في جيبي . . ولكن بعض المشـاكل ارغمتني على تأجيل مشروع الزيارة .

- هذا مؤسف . . آمل أن الأمور انتهت الى خير .

فقال عيسى حماد ، وهو يتناول قدح الشاي ويقربه من فمه :

- أوقفوا ابني وجيه ، ولا يزال موقوفا حتى الآن .

وأكمل يوسف بمرح متعمد :

- ولا بد أنك لاحظت ذلك . . ظن الناس أن لسؤالك عن أبي علاقة بالموضوع .
- خمنت شيئا قريبا من هذا .
قال الأب معتذرا :
- أرجو أن لا تكون غاضبا ، فأنت تعرف الأجواء التي تسود في مثل هذه الحالات .
- غضبت في البداية ، ولكن الأمور سارت على ما يرام لحسن الحظ .
فقال يوسف ضاحكا :
- سكان الأحياء الفقيرة يرتابون بزيارات الغرباء ، ويتطيرون منها . .
قاطعه والده ، انما بلطف :
- الأستاذ سعد ليس غريبا يا بني . .
- صحيح ، بالفعل ، ولكنهم لا يعرفون . . ليس الذنب ذنبهم . .
فعاد الأب يقاطعه باللهجة اللطيفة ذاتها :
- انه مجرد سوء تفاهم يا بني . . مجرد سوء تفاهم .
قلت :
- انه كذلك بالفعل .
- أنت محق يا أبي . . هو مجرد سوء تفاهم لا أكثر ولا أقل .

أن تكون غريبا ، فمعنى ذلك انك الشيطان الرجيم ، فليس من غريب في نظر الفقراء سوى الشيطان الرجيم . وأنا لا أجهل هذا المثل الشعبي الواسع الانتشار ، وأعرف أنه دليل على الابواب والقلوب المفتوحة في وجه الجميع بلا استثناء ، ما عدا الشيطان ! . ومعنى ذلك ، أنك اذا تسببت في نفور حي بأكمله ، ان لم نقل في ذعره ، توجب عليك ان تبحث عن أوجه الشبه بينك وبين ذلك الاستثناء الخرافي الملعون ! . . اذا كنت بريئا ، فلك أن تغضب ، ولكن غضبك لا يجوز ان ينصب على حي بأكمله . . على شعب بأكمله . . الرأي العام لا يدان ولا يشتم ، ولو فعلت فكأنما أنت تنطح جبلا ، ولذا ، عليك أن تفتش في مكان آخر عن جهة تخضع للشتم والادانة . . ولماذا توهم الناس أنك الاستثناء الوحيد ، ان لم تكن تجمعك واياه صفات مشتركة ، ولو ظاهرية ؟ . . الشيطان شخصية غامضة ومجهولة ، ولو لم أكن غامضا ومجهولا ، لما أثرت ارتياب وذعر هذا الحشد الغفير من الناس . . أقبل عليهم بواسطة سيارة كبيرة ، هرمة وخربة ، ولا يركبها أحد الا هم وأمثالهم . . أسقط بينهم مثل نقطة سوداء على صفحة ناصعة البياض ، فمن

أكـون ؟ . . أقبـل وحيـدا متسللا ، وأبـرهن منـذ الـدقـائق الاولى أنني غريب ، لا أعرف الشخص الـذي أقصـده ، فمن أكـون ؟ . . وأختار لسؤالي رجلا بالذات ، له مشكلة حية قائمـة ، تشغـل جميـع النـاس ، فمن أنا ؟ . . ثم اغادر السيارة ، وأقف مترددا ، لا أعرف كيف أبـدأ ، ولا أين أتجـه ، فأحسم أمـري بسـرعة عجيبة ، وبطريقة مريبة ، وأتوجه الى المختار مباشرة ! . . فمن أكون لأبحث عن مواطن بواسطة المختار ، ان لم أكن غامضا ومريبا كالشيطـان نفسـه ؟ . . الفقـراء لا يلفتـون انتبـاه اخـوانهم ، والأغنيـاء لا يتسللون بهذه الطـريقـة ، فمن أنـا ؟ . . اذا كنت من فصيلة الفقـراء ، فلماذا نفروا مني . . واذا كنت من فصيلة الأغنيـاء ، فلماذا جئت اليهم وهم الـذين يسعـون الينـا ؟ . . حصلت على عنوانك لأذهب اليـك ، واذا بك تأتي الينـا . . يا للمفـاجأة السـارة . . هذا ما قاله يوسف بعد أن قدمت نفسي ، فلو كان أميا ، ولو لم يكن من قراء « مستقبل الانسان » اذن لاختلف موقفه تمامـا . ومـا كانت رغبتي باعـادة البطـاقـة بنفسي ، لتـزيـد موقفي الا شبهـة ، حتى ولـو استقبلوني ، وشكـروا لي جهـودي ، ثم ودعـوني بحفـاوة . لأنهم يعـرفـون أن المسألـة لا تستـوجب كل هذا الجهـد ، وكـل هذا الاهتـمام . . البطـاقـة يمكن ان تعـود الى صاحبها بواسطـة الشـرطـة ، واذا لم تعـد ، فليس أيسـر من الحصول على بطاقة جديدة بدلا منها . ولـذلـك ، فان معـرفـة يوسف بي عن طريق « مستقبل الانسان » هو العامل الحاسم الذي جعل وجودي بينهم منطقيا ، لا يخيفهم ، ولا يحرجني .

قال يوسف :

- الفكرة التي عرضتها في مقالك الأخير ، هامة جدا .

- ولكنها بسيطة جدا . .

- نعم ، هامـة وبسيطـة ، قريبـة وبعيـدة . . ضحكنـا من أنفسنـا كثـيرا ، بعد أن وجدناها مقيمة في أعماق نفوسنا .

- انها في متناول اليد ، بالفعل .

- في متناول الجميع ، وفي أعماق الجميع .

- صحيح .

فصمت لحظة مفكرا ، ثم سألني :

- أريد أن أوجه اليك سؤالا ، وأرجو أن لا يزعجك . . هل المقال يمثل رأيك وحدك ؟ . .

- أنت قلت قبل قليل أن الفكرة في متناول الجميع ، وفي أعماق نفوسهم .
- ولكن هذا لا يكفي .
- نعم ، هذا لا يكفي .
- يجب أن تتحول الفكرة الى استراتيجية ، والاستراتيجية الى برامج عمل .
- هذا صحيح تماما .

فتأملني بحذر وانتباه ، وهو يصوغ بصمت جملته التالية . أما أنا ، فقد دخلت في رهان مع نفسي ، ورحت أتنبأ بالكلمات التي سيلفظها ، دون أن أتكبد عناء تحضير الأجوبة المناسبة . . أنا أعرف ما يدور في رأسه ، ولن أمانع في وضع نفسي تحت تصرفه . . في تمكينه من الاستفادة مني ، هذا اذا كنت مفيدا . . أنا أقاوم محاولات غانم دهب الأرض ، أما هنا فلن أقاوم . . على الأقل ، لن أبذل أي جهد ذاتي، لا سلبي ولا ايجابي .

- يجب ان تتحول الفكرة العامة ، الى برنامج عام ، وهذا يتطلب طريقة معينة في العمل . ولذا ، أردت أن أسألك بالتحديد ، ان كنت ملتزما ؟ . .

أعطيته جوابا ما ، لا يخلو من براعة ومنطق ، حول الانتماء . . الانتماء للانسان ، ولقضية الانسان التاريخية العادلة . . قضية الانسان التي هي قضية التقدم نحو سعادة أعم وأبقى . . التقدم الراسخ ، الصامد في وجه البربرية ، والذي لا يمكن احرازه الا بالمعرفة العلمية . . المعرفة العلمية التي لا يمكن أن تكون علمية الا بالمعاناة الصادقة ، والعمل الدؤوب المخلص ضمن أية شروط . . العمل الذي لا يمكن أن يكون افراديا ، لأن الانسان بمفرده محدود وضعيف ، ويستطيع البعوض أن يتكفل بافنائه . . بالانتماء ، يصبح الانسان تلك القوة التي لا تقهر ، فيستند بظهره الى التاريخ ، ويمسك بيديه الحاضر ، ويرقب بوضوح معالم المستقبل . . الانسان بلا تاريخ مثل رجل بلا ذاكرة ، والانسان بلا انتماء مثل رجل بلا ساقين ، والانسان بلا قضية مثل رجل بلا مستقبل . . وماذا نملك من هذه الشروط سوى الذاكرة ؟ . . ولو حذفنا تاريخنا القديم ، لما بقي منا شيء يستحق الذكر . . منذ ألف عام تقريبا ، ونحن ندين لذلك التاريخ وحده بالبقاء . . منذ مئات الأعوام ، ونحن نقاتل في جيوش الغير ، لصالح الغير . . لحساب السلاطين والأمراء ، ولحساب المحور والحلفاء . . قاتلنا حتى ضد أنفسنا ! . . عرب المشرق في المغرب ، وعرب الشمال في الجنوب ، والعكس بالعكس . . ولم يحسب لنا أحد حسابا . . المناذرة في صفوف الفرس ، والغساسنة في صفوف الروم . . مزيج من روكفلر وكسرى ، ومن روتشيلد

وقيصر . . وخصائص أرضنا ، ان كانت لا تزال أرضنا حقا ، تزداد أهمية عما كانت عليه قبل خمسة عشر قرنا . . وموقعة الخندق تتكرر كل يوم مع فارق أساسي ، هو أن أحدا حتى الآن ، لم ينتصب واقفا في الخندق المعاصر ، ويقول بقوة وثقة : ظهرت لي كنوز كسرى ! . . حسنا ، أنا أقول بقوة وثقة : لقد ظهرت لي كنوز كافة الأكاسرة والقياصرة الجدد . . أنا أقول ذلك . . ما كان مثل هذا القول نبوءة ، وليس هو الآن كذلك . . لم تنفه هزيمة أحد ، ولن تنفيه دير ياسين ، أو اربد أو عجلون . . ولكن ! . . ولكن ما أيسر الكلام على رجل يملك لسانا طويلا ، ويمتهن أكل الورق المغمس بالحبر !

- يجب وصل ما انقطع ، فالمهمة لا تزال قائمة رغم القرون . .

فقال يوسف وعيناه تطفحان بالألفة والمودة :

- هذا هو جوهر المقال . .

- بالضبط .

- أعترف أني بقيت فترة أرى تاريخنا عبثا . وأقول لنفسي : يجب أن نصنع نحن شيئا بدل اجترار هذا الركام من الروايات . لقد بدأت أشك في صحته ، وأتساءل ما اذا كان من نسج خيال خصب . . ولكني لم استطع أن أعرف كيف نصنع شيئا من لا شيء . .

استمر يوسف يتحدث ، وارتعشت وأنا أستمع اليه دون أن أدرك سببا لارتعاشي . . عم يفتش ؟ . . ماذا يريد ؟ . . من وراءه ؟ . . ماذا يدور في ظلام هذا الحي الواسع المجهول ؟ . وتصورت أنه يريد أن يحمّلني - من حيث يقصد أولا يقصد - فوق طاقتي ؟ . . ففي نبراته شيء أكثر من التقريظ والاعجاب . وفي كلماته شيء أكثر من مجرد تبادل بعض الآراء السديدة . ولا أثر للدهشة في نظرته الجريئة المستطلعة ، وانما فيها تصميم من يعرف ماذا يريد . . وخطر ببالي عدد من الذين قضوا ضحية ألسنتهم ، ولكني سرعان ما شعرت بالخجل شعورا بائسا ، وقد أنقذتني الى حد فكرة ومضت في رأسي ، تقول أن الخجل عاطفة ثورية ! . .

كان الأب قد أشعل المصباح الزيتي . . وكانت الظلال تتراقص من حولي مثل ألسنة تنين خامدة ، فيضطرب ذهني ، وأعجز عن التركيز ، فتتراءى لي صور شتى تتزاحم أمام عيني ، فأزداد اضطرابا وعجزا . . سوزان تتأوه عارية غارقة في عرقها ، مبللة من رأسها الى قدميها ، كأنها خرجت لتوها من الحمام . . والوشم الذي خلفته أصابعي ، كأني كنت أحاول التهامها مستعملا يدي . . ومقاعد ميامي الحمراء الوثيرة ، وباقة الأثواب النسائية

الملونة الأنيقة ، والسيقان البيضاء الملفوفة ، والخصر الرقيق لتلك الفتاة ذات الابتسامة المنفرة ، التي راقصتها في سهرة البلاف الخالدة . . والجن والشياطين ، والبلاف نفسه . . ونجوى . . آه يا نجوى لو تعلمين . . لست المريضة الوحيدة يا نجوى . . اياك أن تخطئي ، وتتصوري نفسك المريضة الوحيدة . . كل بيت من بيوت بلدنا ، حجرة في مستشفى كبير ، يتسامر فيها المرضى ، ويتوجعون ، وينتظرون . . بعضهم ينتظر طلقة الرحمة ، والبعض الآخر ينتظر اللاشيء . . السرطان ، الطاعون ، وحالة الحصار ، والطائرات تلقي بالمؤن والطرود والرسائل من الجو ، وتختفي بسرعة . وأحيانا تلقي بالنابالم لتكتم أنفاسنا الموبوءة المتصاعدة . . يأبون علينا الشفاء ، لأن مرضنا دليل على صحتهم . فاذا لم يكن هناك مرضى ، فلن يكون هناك اصحاء . ويضنون علينا بطلقة الرحمة ، لأنهم لا ينتفعون بنا أمواتا . . .

* * *

أعادني الى حي الزهور صوت عيسى حماد يسأل :

- هل تريد مزيدا من الشاي ؟ . . أنتم تفضلون القهوة ، أما نحن فنشرب الشاي طوال الوقت . .

- لا أمانع في قدح آخر . .

فقال مبتسما :

- لو أخضعت دمنا للتحليل ، فستجده شايا . .

ملأ قدحي ، وتابع حديثه :

- . . الشاي نعمة كبرى . . يروي العطش ، ويعطي التبغ لذة ورونقا . . ويصبح مع الخبز وجبة طعام لا بأس بها . .

رشف بصوت مسموع ، وصمت لحظة ، ثم أضاف :

- ولا تنسى أنه ينعش في الصيف ، ويدفيء في الشتاء ، بشهادة أجهزة الاعلام الرسمية . .

فضحكنا ثلاثتنا ، ولكن يوسف لم يكن مرتاحا تماما للحديث . .

- أنا أعتقد أن أهالي حينا يستهلكون شايا أكثر من دمشق كلها ، فهويلبي لهم دفعة

واحدة ، مجموعة من الحاجات الضرورية .

انصرف الى قدحه ، فتأملت عنقه الغليظ وياقة قميصه المفتوحة ، التي تبدو بوضوح أنها لا تتصل بسبب ضيقها . . وتذكرت شراب الفودكا القوي ، والموائد العامرة التي لا تحوي أقل من خمسين صنفا ، والأفواه التي لا تكف عن المضغ طوال الوقت . . والمدافيء البخارية ، والمكيفات الكهربائية . . ومضارب البدو الرحل الذين يعيشون حتى الآن في عصر الرعي والمشاعية البدائية ، ويقيمون قريبا ، على مرمى حجر من الصالونات الباريسية المنتشرة في كافة أنحاء دمشق . . وتساءلت : الى أيها ننتمي ؟ . . الى الخيام ، أم الى الصالونات ؟ . . والأجهزة المسموعة والمقروءة والمرئية ، كلها لا تقطع برأي . . مجرد صدى أجوف ينافق الواقع بخسة ونذالة وحطة . .

وعاد عيسى حماد يقول :

- هناك من يقول أن للشاي فوائد طبية أيضا . . ما رأيك بهذا الكلام ؟ . .

- ما هذا الكلام يا أبا وجيه ؟ . .

كان هذا يوسف ، يخاطب والده بهذا اللقب .

- كأنك تدعونا للبكاء على الاغنياء المساكين ، الذين يجهلون مزايا الشاي ! . .

فقال أبو وجيه :

- أبدا ، أنا أعرف أن الأغنياء يشربون الشاي كل صباح مع وجبة الافطار ، هذا موضوع آخر لا علاقة له بمزايا الشاي . .

قال يوسف محتدا :

- اذن فاعلم أن منقوعك السحري لا يفيد الصحة ، ان لم يكن يضربها . ولا يحتوي أي غذاء للجسم ولا يغني عن وجبة طعام . .

- عجبا . . .

- . . وهو ليس بديلا للمدفأة ، ولا للثياب الصوفية ، ولا للمكيفات الهوائية . .

- عجيب . . ولكنك تخالف بكلامك أبسط المبادىء التي تعارف عليها الناس .

فصاح يوسف :

- أوهام . . أنت تعرف أنها أوهام ، فلماذا تخدع نفسك ؟ . .

- أنا لا أخدع نفسي ، فنحن نعيش هكذا يا بني . .

- نحن نعيش حالة مفجعة من البؤس والحرمان ، وهذا المنقوع الذي نسفحه في

أجوافنا طوال الليل والنهار ، ليس الا مظهرا من مظاهر حالتنا المفجعة . .

- لا تبـالـغ يا بني ، النـاس يقتـاتـون به ويحبـونه . . وحتى لو سلمت معك بصحة كلامـك ، فلن يقـدم ذلـك ولن يؤخـر ، وسيبقى هذا المنقـوع الـذي تمقته ، مادة هامة لا يمكنك الاستغناء عنها . .

- أنـا أمقت الشـاي رغم ولعي به ، واقبـالي عليه . ولكني لا أمتدحه ، اذ لو فعلت فكأنما أنا أمتدح وأطري البؤس والحرمان . . تعلقنا بالشاي ، واعتيادنا عليه ، لا يعني أننا نحبه ، ولا يجيز لنا تحميله فضائل لا يعرفها ولا يستحقها .

- طالمـا أنـك متعلق به ، ومعتـاد عليه ، ولا تستطيع الاستغناء عنه ، فمن الافضل لك أن تتـآلف معـه ، وأن تحبـه . . خداع النفس وارد جدا في حالـة كحـالتنا يا بني . . بل وأقول أكثر من هذا . .

مكثت فترة أستمـــع الى هذا الحـوار الغـريب بشغف ، فما كنت أتصـور أن الشـاي يصلح مادة لنقاش طويل ورصين . ولم تكن حركات الرجلين ، وطريقتهما في الحديث ، أقل غرابة ، فقد كنت ألمح الرضى والاعجاب في عيني الأب وهو يستمع الى ابنه ، الا أنه بقي مصمما على عدم موافقته .

- في رأيي أن خداع النفس عمـــل طيب ، واخـلاقي ايضـا . فاذا لم نحب الشـاي ونتآلف معه ، واذا مقتناه وكرهناه ، فاننا سنتطلع الى بديل . وبما أنه يستحيل علينا تحصيل البـديـل ، بشكـل منظم ودائم ، فاننـا قد نتسول ، وقد نسرق ، ومن يدري فقد نقتل من أجل الحصول على ما نريد . . لا يا يوسف . . أنا شخصيا لا أقبل لنفسي هذا الانحدار ، ولا أظنـك تقبـل أن ندمن التسـول ، والسـرقـة ، والقتـل - لا سمـح الله - بدلا من ادمان الشاي . . وماذا لو خدعنا انفسنا قليلا ؟ . . ما هو الضرر طالما أن حياتنا لن تتغير ، وليس هنـاك أي دليـل يشـير الى أنهـا قد تتغـير قريبا ؟ . . أنا أعرف أن بعضنا قد يثرى بشكل أو بآخر . . أنا لا أفكر بهؤلاء القلائل ، لأن ثراءهم سيكون دائما موضع شبهة . . أنا لا أريد أن أثرى بطرق ملتوية ، ولذلك أجد في الشاي نعمة كبرى ، وأتوهم فيه تلك الفضائل عن قنـاعـة . . الـوهم مفيـد في كثـير من الاحيان يا بني . . هناك كثيرون يتوهمون أنهم مرضى فيمرضون . وهناك كثيرون يتوهمون أنهم أصحاء فلا يمرضون . . أنت تعرف يا يوسف أني لو طاوعت نفسي ، وركنت الى فراش المـرض ، لما نهضت منـه أبـدا . ولكني أجـالـد ، وأرفض الانصيـاع ، وأتـوهم الصحـة ، ولـذلك تراني أمامك مثل الجمل ، وبأحسن حال

والحمد لله . . ثم أننا فقراء ، في حي تسكنه ألوف مؤلفة من الفقراء . . لا يجمع بيننا شيء سوى الفقر والشاي . . تواجدنا مصادفة في هذا المكان . . لاجئون ، وفلاحون ، وعمال ، وبطالون ، وخدم في المطاعم والفنادق ، والمقاهي والملاهي . . وأيضا نشالون ، ومهربون ، وشحاذون . . نعم . . أنا أعترف بذلك . . ماذا نحن سوى فقراء يوحدنا الشاي والفقر ؟ . . أقام كل منا كوخه بدون رخصة . . أغمضت الحكومة عينها مؤقتا ، وتركتنا نبني كما نشاء . فالارض التي نقف عليها لا نملكها . . ولا ندري متى تفتح الحكومة عينها ، وترسل الجرافات لاقامة مشروع عام بدلا من هذه الأكواخ البشعة . فكيف تفكر بالرفض ؟ . . كيف تجرؤ على ايقاظ الحكومة من غفوتها بنفسك ؟ . . لا يا بني . . هذا جنون . . أن تدعو الى مقت الشاي وكرهه ، فكأنما أنت تدعو الى تقويض هذه البيوت ، وتشريد هؤلاء التعساء الذين لا يجمعهم شيء أكثر من الشاي . .

واصل أبو وجيه عرض وجهات نظره بصوت خافت متأن . وكان يصمت قليلا بين المقطع والمقطع ، ويردد بصره بيني وبين ابنه . الا أنه كان يتوقف عندي أكثر ، فكأنه يفتش عن وقع كلماته في نفسي . وكنت من جهتي أتلقف كلماته مثل طير جائع وقع على حفنة من القمح ، الا أنني كنت متشوقا أيضا لسماع أجوبة يوسف الذي كان يتعجل بتململه انتهاء أبيه . فصرت حائرا كأني وقعت على حفنتين متباعدتين من القمح ، لا على حفنة واحدة ! . .

- أنت دائما تميل الى الاكتفاء بالموجود ، والتسليم بالأمر الواقع وتسويغه ، وتغلف ميلك هذا بخداع النفس . ولكن قل لي يا أبا وجيه . . هل تخشى فقدان تلك النعمة الكبرى ، اذا اعترفت بأنها تفاهة كبرى ؟ . . أنا أطمئنك أنك لن تفقد الشاي مهما حدث . هل تخشى ان تفقد هذه الارض ؟ . . لا تخف . . ستجد دائما خلاء تبني عليه كوخك . ولن ينفرط هذا العقد الإجتماعي الرائع ، الذي تخشى عليه التشريد . . أؤكد لك أنك ستسكن وإياهم في مكان واحد مهما حدث ، وأينما ذهبت . . ولن تخسر شيئا من «ممتلكاتك» على الاطلاق ، فاطمئن . ولماذا تعتقد أن تسمية الشيء باسمه تقود الى الجريمة ؟ . . ألأنك مقتنع باستحالة البديل ؟ . . ولكن البديل ليس مستحيلا كما تظن ، وقلائل هم الذين يرون رأيك . كذلك ، فان التحريض الصحيح لا يقود الى الجريمة . . اللص لا يحتاج الى تحريض كي يسرق ، فكل أسباب الارتكاب متوفرة بين يديه ، وأمام عينيه ، ومن حوله ، كذلك ايضا ، ليس صحيحا على الاطلاق اللجوء الى الأوهام ،

فالوهم لا ينقذ من الموت ، ولا يؤجله . . انه فقط يمحو معالم الجريمة . . كأنك تقول : اقتلوني ولا تخافوا ، وهذا توقيعي ببراءتكم ! . فلماذا تبرئهم ؟ . . أنت ميت في كل الحالات ، فلماذا تعفيهم من مسؤولية قتلك ؟ . . لماذا تقبل أن تموت مجانا ؟ . . أنا لا أفهم دافعك الى ذلك ، ولا أدري أن كنت تلاحظ أن سلوكك هذا يشجع على التمادي في الجريمة . . أأنت مثل الجمل ، وبأحسن صحة ، يا أبا وجيه ؟ . . اسمح لي أن أقول بأن هذا غير صحيح ، فأنت مريض حتى النخاع ، وستسقط ميؤوسا منك فجأة ، وفي أية لحظة ، فلماذا تهدر دمك بنفسك ؟ . . ولماذا تهدر دم غيرك بفعلتك هذه ؟ . . أنا لا أقبل أن أقضي رخيصا مثل كلب يدهس في الطريق . . صحيح أننا فقراء ، ولكننا لسنا كلابا . . نحن الرصيد الاساسي للتقدم والمستقبل . ولعل فضيلة الفقر الوحيدة ، أنه يجعلنا أكثر قدرة على التحرك ، وأكثر حرية في الاختيار . . أرض الله واسعة ، وحملنا خفيف ، يسمح لنا بالتنقل مثل الهواء . . لا نملك شيئا ولا نعترف بشيء . . .

خطر لي وأنا أستمع الى يوسف أني ربما كنت ألقن درسا ، يتعاون الأب وأبنه في القائه . وقد هممت بالسؤال عن توقيف وجيه أكثر من مرة ، علني أقودهما الى حديث أكثر وضوحا وتحديدا ، الا أني أحجمت ، وقررت أن الأمر لا يعنيني ، وأنه ليس من الحكمة في شيء تدخلي في موضوع كهذا ، لم يرغبا في طرحه . ومع ذلك ، حاولت أن أتخيل سببا للتوقيف ، فوجدت أن الفرق لن يكون كبيرا ، سواء أكان السبب جنائيا ، أم سياسيا . . لا نملك شيئا ، ولا نعترف بشيء . . يوحدنا الشاي والفقر ، ولسنا كلابا تدهس على قارعة الطريق . ضمن هذا الفهم ، تتخذ القضية مسارا خاصا مختلفا ، خارج نطاق القوانين ، والأعراف ، والأنظمة المرعية . . ويقال أن الألماني ايخمان طلب منحه الجنسية الاسرائيلية قبيل اعدامه ، وعندما سأله الاسرائيليون بدهشة عن تفسير لطلبه الغريب ، قال أنه يريد أن يعدم كاسرائيلي لينقص اليهود واحدا ! . . واذا أردنا أن ندع هذا النازي جانبا ، رغم أن هرتزل نفسه لا يقل نازية عنه . نجد أن الناس الذي لا يملكون شيئا ، ولا يعترفون بشيء ، ويشعرون باستمرار انهم يعاملون معاملة الكلاب الضالة ، يمكن أن تصدر عنهم أقوالا أكثر اثارة وحدة ، وأفعالا أكثر جنونا وعنفا . . ان من لا يملك شيئا ، ولا يعترف بشيء ، يمكن أن يصنع أي شيء على الاطلاق . . وبينما كنت أفكر على هذا النحو ، سمعت أبا وجيه يقول كلاما مختلفا :

- ما قلته جميل يا يوسف ، ويتضمن لقطات هامة بالفعل ، لا أستطيع الا أن أتفق

معـك حولهـا . ولكني أخـالفـك بصـدد بعض النقـاط . . لا أريـد أن أستعرضها جميعا ، وسأكتفي بواحدة منها . . لاحظت في لهجتك استخفافا ، فلا تستهن بخصومك يا بني . . لا تستفزهم ، ولا تشعرهم باحتقارك اياهم وجها لوجه . . قد يكون كلامك صحيحا في أننا لا نملك شيئـا ولا نعـترف بشيء . . لكنـك تعـترف بالتقـدم ، وتـرى نفسـك رصيـدا للمستقبـل ، فاذا كنت كذلـك حقـا ، فلا تفـرط بهذا الـرصيـد . . لا تبدده دون طائل ، وحافظ عليه حتى تحين ساعته . . .

ابتسم ابتسامة عريضة ، وأردف وهو يربت بكفه على جيبه :

- . . والا سيضرب التقدم يده على جيبه ذات يوم ، فيجد نفسه مفلسا ، ويراوح في مكانه ، ان لم ينقلب الى تقهقر . .

ساءني كثيرا أن أقدر تقديرات خاطئة ومضحكة ، وحكمت فورا أني مجرد فأر يقرض اطنـانـا من الـورق المحـبّر ، ورحت من خلال الثورة الداخلية التي عصفت بي ، أقسـم أن هذا الـرجـل يحمـل اسـما مستعـارا ، ويتنكـر بزي الفقـراء ، ويختفي في احيائهم المظلمة ، متواريا عن الأنظار ! . . ولكني سرعان ما أحسست بالعار يكللني ، ووجدت أن شكوكي ، فيـما لو صحت ، فلن تزيـده الا كبرا ، ولن تزيـدني الا صغـرا . . ثم من أنـا لأحكم على أمثـال هؤلاء النـاس ؟ . . ماذا أعـرف عنهم ؟ . جئتهم متسللا ، وسأذهب الى غيرهم متسللا أيضـا . . لست من الفقـراء ولن أكـون من الاغنيـاء . . من أنـا ؟ . . لا لون ، ولا طعم ، ولا رائحـة ، ولا شكـل ، ولا هويـة ! . فمن أنـا ، ان لم أكن الشيطـان نفسه ؟ . . الشيطـان الـذي يستطيـع ان يتـواجد في كافة الأمكنة ، دون أن يكون موجودا في أي منها . ولكن ، لعلي كنت مخطئا أيضا ، حتى وأنا أقرع نفسي بهذا الشكل . .

لم يتـوقف الحـوار عنـد ذاك الحـد ، وانـما تشعب واتسع ، ووضع أمام عيني المتقدتين وقـائـع لم تخطـر لي ببـال . كذلـك ، لم تقتصـر السهـرة علينا وحدنا ، فقد انضم الينا رجال آخرون ، شربوا كميات كبيرة من الشاي .

خرجت تلك الليلة بعدد من الاصدقاء الذين تركوا في نفسي أبلغ الأثر ، وزرعوا في اعماقي غرسا سرعان ما زاد حياتي المضطربة اضطرابا . وعندما صافحت أبا وجيه مودعا ألح علي أن نلتقي ثانيـة ، فأكـدت أننـا سنفعـل . أما يوسف ، فقد قال أن مشروع زيارتي من قبله لا يزال قائـما ، فأعطيتـه مزيـدا من المعلومـات عن عنـواني ، ثم انطلقت عبر الأزقـة المظلمة ، دون أي أحساس بالوحشة .



الأيام التالية

١٤ ـ لحظات انعدام الوزن ؟

ذات صباح ، حدثتني سوزان هاتفيا ، وطلبت الي موافاتها في ميامي ، وعندما استفسرتها عن الوقت الذي تقترحه ، أجابت بنبرة غاضبة أن علي الحضور في الحال ، لأنها تتحدث من المكان نفسه . فهممت أن أرجوها تأجيل اللقاء الى يوم آخر ، لأني مرتبط بموعد مع صديق ، ولكني أحجمت وقلت لها أني سأكون عندها بعد دقائق .

لقد مرت أيام دون أن نلتقي ، وما كانت لهجتها تسمح بتقديم أي عذر . وكان احجامي عن الاعتذار انتصارا خاطفا لقلبي الذي بدأ يخوض معركة يائسة لا أمل له فيها ، فهي تنحسر تدريجيا عن نتيجة في غير صالحه . وكنت كثيرا ما أسمع عويله المكتوم ، الا أن بقية حواسي لم تكن تأبه لحالته وتنظر الى دموعه مثلما ينظر جمهور غاضب الى دموع أم تبكي ابنها الخائن ، وهو في طريقه الى حبل المشنقة . أما أخلاقي فقد بقيت متعاطفة مع قلبي ، ووقفت الى جانبه تسانده بقوة ؟ . .

كنت انتظر بفارغ الصبر وصول يوسف حماد في الساعة العاشرة والنصف ، حيث سيطلعني على بعض الأمور التي أصبح الاطلاع عليها يهمني كثيرا . وقدرت أني لن أتغيب أكثر من ساعة واحدة ، وبذلك أكون في استقباله قبل الموعد بقليل . وتحسبا لأي طارىء قد يعيقني ، رجوت نجوى أن تستقبله اذا ما حضر قبل أن أعود .

مضيت مسرعا انتزع انفاسي بصعوبة ، بينما جبيني يتفصد عرقا ، وآلام حادة تمزق جانبا من صدري ، وعندما صرت في مدخل ميامي خيل الى للحظة أني سأسقط بسبب دوار مفاجيء . وحين سحبت يدي من يد سوزان ، لاحظت أن أظافري طويلة ومتسخة ، وشعرت بالضيق ، وتزايد ضيقي حين لمحت السرور المكبوت في عينيها ، وعزوته الى توهمها أني لبيت نداءها على جناح السرعة . ثم باغتني فجأة وجود رجلين على المائدة نفسها ، فأضيف الحرج الى الضيق ، الى الآلام الحادة . ولكني أسرعت أرجوهما الجلوس قليلا ،

بعد أن رأيتهما يهمان بالانسحاب الى مائدتهما ، حيث ينتظرهما بعض الاصدقاء ، فنزلا عند رغبتي الملحة . وقدمتهما سوزان الي ، فقالت أنهما صديقان حميمان وأن أحدهما فنان كبير ، وأن الثاني . . لم أعد أذكر الصفة التي أعطته اياها . . موسيقار ، أوحلاق أوشاعر . . هو شيء من هذا القبيل على أية حال . ثم قدمتني اليهما ، فأحنيت رأسي بتواضع جم ، وتظاهرت بالتضاؤ ل والدهشة ، وبالبلاهة أيضا ؟ . . وعبر الألم والضيق والحرج ، بدأت تتسلل تلك الروح الشيطانية العابثة ، التي قليلا ما افلحت في ابعادها اثناء زياراتها النادرة . . .

كنت أرشح عرقا ، وأعاني من حالة اختناق مريعة . ورحت أبذل جهدا خارقا لاسيطر على لساني الحرون الذي أصبح أبكما ، ولأحتفظ برأسي ثابتا ، وأمنعه من التأرجح .

اختفت الابتسامة المهذبة من وجه الفنان ، وسألني وهو يتظاهر بالقلق ان كنت مريضا . فتصورت أنه يفعل ذلك أمام نفسه لا أمامي ، فغفرت له هذه الاساءة غير المقصودة ، وقلت بطيب وتسامح أنه عارض لا أهمية له . أما الرجل الآخر . . هل هو موسيقار ؟ . . ليكن موسيقار . . فقد أثارت نظراته العدائية استغرابي . . هل هو يكرهني ؟ . . ولماذا يكرهني ؟ . أنا لم ألتق به قبلا ، وأراهن أنه لم يحفظ اسمي ، فلماذا ينظر الي بهذه الطريقة التي تنضح استفزازا وحقدا ؟ . . ما سر هذا النفور المتبادل الذي نشعر به أحيانا ازاء أشخاص قد لا نلتقي بهم سوى مرة واحدة ، نفور غريب مفزع ، يجعلنا نتخيلهم صرعى ونتخيل أنفسنا نتلذذ برؤ ية أشلائهم ودمائهم ؟ . حاولت أن الاطفه فسألته عن الأشعار التي ينظمها . . هل هي موزونة ، أم منثورة ، أم عامية ؟ . . فأجابني : أظنه تحدث عن تسريحات الشعر الحديثة ، وعن أنواع الباروكات . . وربما تحدث عن موسيقى القرب . . الواقع أني لم أعد أذكر بالضبط ، والشيء الوحيد الذي رسخ في ذاكرتي ، هو سؤ اله أياي بغتة عن السبب الذي يجعلني ارمي قدمي أمامي وأنا أسير ، وقوله بان طريقتي في المشي تذكره بخطوات الابل ، وقد أدهشتني ملاحظته بالفعل ، فحاولت أن أستعيد الطريقة التي أسير بها ، ولكني فشلت ، وبعد أن تأملته مليا متظاهرا بالتسامح والمودة ، انفجرت ضاحكا ، وسألته بدوري ان كان يلقي بقدميه خلفه عندما يسير ؟ . . وخيل الي أنه قد ينهض في أية لحظة ، ويوسعني ضربا ! . . . .

وبعد ذلك سألني الفنان الكبير ان كنت أرتاد المسرح عادة ؟ . . فأحسست بالعرق

يجف باردا على جسدي ، وبطعم النعنع على لساني ، وحاولت عبثا أن أتذكر اسم مسرح واحد من مسارح البلد ، ومع ذلك قلت بمنتهى الشجاعة أني أرتاد كافة المسارح ، وأشاهد كل ما يعـرض عليهـا بقضـه وقضيضـه وأضفت بلا أدنى وجـل أني لم أشـاهـد بريخت ولا مسرحه ، الا أني أعتقد بأن الحركة المسرحية في بلادنا ليست قليلة على الاطلاق وشهدت لها بالتفـوق على كافـة مسارح آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ايضا ؟ . فرفعت سوزان حاجبها مدهـوشـة . . كنت احب كثـيرا هذه الحـركـة في وجهها . . ثم اظهرت قلقا لا مبر رله . . ولـماذا القلق يا حبيبتي ؟ . . ها هو الفنـان الكبـير ينطلق متحـدثـا عن بريخت ، وعن «دائرة الطباشير القوقازية» فانطلقت كذلك أناقشه وأجادله في الحق والباطل ، وفيما أعرف وفيما لا أعـرف الا أني كنت أجنـح أكثـر الى الخوض فيما لا أعرف ، كذلك ، كنت متأكدا أنه يفعل الشيء نفسـه تمامـا ؟ . وصححت طريقـة لفظي لاسم «بـريخت» بعد أن ردده أمامي مرات عديـدة مشكـلا بلغـة عربيـة سليمـة ، كأنـه يلفظ اسم «سويلم» وبعدها انتقلنا الى أعمال الفنان الكبير بالذات ، وكان يكفي بالنسبة لي أن يذكر اسم عمله المسرحي ، حتى اناقشه فيـه باسهـاب وحمـاس . عنـدئـذ راح يبـادلني نظرات خاصة كأنه يأتمنني على سر بيننا نحن الاثنين ، ولا يجوز لشخص ثالث أن يعرفه ؟ .

لم يكن أي منـا يعـرف شيئـاً عن الآخـر ، وأيضـا لم يكن أي منـا يفهم شيئاً من كلام الآخر ، ورغم ذلك كنا نعيش حالة نادرة من حالات الاستمتاع والانسجام . وقد حاولت أن اشرك الآخر ، الحلاق ربما ، لأتخلص من نظراته العدائية على الاقل ، فسألته عن رأيه بآخـر «سيمفـونيـة» قدمتهـا الفرقة الموسيقية التابعة لهيئة الاذاعة والتلفزيون ، فلم يستجب لمحـاولتي ، عنـدئـذ ناديت النـادل ، وطلبت ان يحضر لنا شيئا نشربه ، فطلب الجميع قهوة باستثنـاء الشـاعـر الـذي طلب كوبـا من عصير الجزر ، وهكذا وجدت اخيرا فرصة مؤ اتية لحديث مشـترك ، فتشبثت بها بكـل طاقتي ، وانطلقت اثني ثناء عاطرا على الجزر ، وأعدد فوائـده الصحيـة ، وخـاصـة ما يتعلق منهـا بتقـويـة البصر . فقادنا الحديث الى العدسات الطبيـة ، ثم انتقلنـا الى العـدسـات السينـمائيـة ، فعدد الموسيقار عشرات الأفلام السورية الناجحة ، التي حصلت على جوائز قيمة في المهرجانات العالمية . .

- في لايبزغ ؟
- نعم ، نعم .

فوافقتـه على أنهـا رفعت رأس بلادنا عاليا ، بلا ادنى شك . واذا به ينتقل للحديث

عن الرؤوس فالتسريحات والباروكات وخلت نظراته اخيرا من أي أثر للعداء ، هذا عظيم ، وصرت راضيا عن نفسي ، وبالاجمال أصبحت الجلسة جميلة وممتعة . الا أن سوزان كانت غاضبة ، وكانت ترنو الى صديقيها باحتقار ، وقد آلمني أنهما لاحظا تململها ، وقررا الانصراف . فودعتهما بحرارة ، متمنيا لاعمالهما مزيدا من الازدهار .

* * *

قالت سوزان بعد انصراف الرجلين :

- ألن تشرب قهوتك ؟ .

حاولت امساك فنجاني ، فوجدتني أرتعش مثل مصاب بالبرداء ، وقررت أنني مريض حقا ، فقلت وأنا أحاول أن أبدو طبيعيا :

- شربت كثيرا من القهوة صباح هذا اليوم .

قالت وهي تراقبني متفحصة :

- ألا تشرب شيئا آخر ؟ . . ما رأيك بعصير الليمون ؟ .

- كلا ، افضل أن أشرب قهوتي بعد قليل ، ولو كانت باردة .

فعادت تسألني بعد قليل من الصمت :

- سعد . . لماذا تحدثت اليهما بتلك الطريقة ؟ .

كدت أضحك وأقول لها أن هذه طريقتنا التي نتحدث بها في جمهورية اللجاة المتحدة ، التي تقع بين الجمهورية الأردنية والجمهورية السورية ، ومن ثم أسترسل في الهذر . . لم تكن الروح الشيطانية العابثة قد غادرتني بعد تماما ، ولكني تماسكت ، وقلت :

- كانا سعيدين ؟ . . كانت تلك هي الطريقة الوحيدة ليكونا سعيدين ، ولو لم أتحدث بها لكنت مضجرا لا تحتملني الارض .

- هل هذا كل شيء ؟

- نعم .

- حقا ؟

- بالفعل ، هذا كل شيء ، وماذا اذن ؟

- ألم تكن تريد أن تقول لي شيئا آخر من خلال تلك الطريقة ؟

- أبدا ، وماذا أقول لك ؟
- لا تحاول التورية والتهرب ، فأنا أفهمك أكثر مما تتصور .
- وما الذي أواريه ، وممَ أتهرب ؟
كانت تنظر في عيني بقوة وثقة ، ولم اكن من جهتي كذلك . ولكني أضفت :
- لا تنقصني الشجاعة لأقول لك مباشرة ما أرغب في قوله .
فقالت بشيء من التهكم والتحدي :
- عظيم . . اذن تفضل وقل لي بشجاعتك المعهودة ما ترغب في قوله .
- وماذا تريدين أن أقول لك ؟
- عجبا ؟ . . قل لي دون أية مواربة ، أنك لم تعد تحبني .
- لم أعد أحبك ؟ . .
- نعم .
- أنت مجنونة اذن .
- أنا أثق بمشاعري ، وأصدقها .
- وهل قالت مشاعرك الصادقة أني لم أعد أحبك ؟ . .
- « . . . . . . » .
- أتجرؤ ين على الكذب الى هذه الدرجة ؟ . .
- « . . . . . . » .
- أنـا متأكـد انها لم تقـل لك شيء مما تلفظت به . . أنت مجنـونـة فحسب .
فهتفت بصوت مضطرب :
- ولكني خائفة . . أشعر أنني سأفقدك . . هذا هو ما أشعر به في الحقيقة .
كانت منفعلة ، ووجهها ممتقـع اللون . ولمحت في عينيهـا طيف دموع ، فسرت الي عدوى الخـوف ، واشتـد وجيب قلبي . . قلبي البـائس ، المقـدام ، الـذي يخوض معـركة يعرف سلفا انها خاسرة ، والذي تراهن سوزان على نبله . وقد رأيتها في تلك اللحظة أقل جمالا من المعتاد ، الا أني وجدتها ألصق بقلبي من أي وقت مضى .
كنت أتأملهـا ومـوجـة طاغيـة من الحنـان تتـدفق في عروقي ، ورغبت في ضمها الى صدري رغبـة شديـدة قاومتهـا بمشقـة ، ثم تراخيت على مقعدي تعبا ، والألوان تتراقص وتمتزج أمام عيني ، حتى استحالت علي رؤ ية الخطوط العريضة التي تزين الستائر . وأصبح

ضجيج الناس ولغطهم من حولي دمدمة خرافية زادتني قنوطا ، مثل سفينة قذفت بها العاصفة بين الصخور التي أخفاها الضباب .

في تلك اللحظة ، مر على مقربة موكب جنائزي يلعلع مذياعه بصخب وفظاظة ، فأردتني الكآبة وجعلتني اترنح مثل رجل اغتيل بواسطة السم الزعاف . . يا للعادة الذميمة . . كلا . . لا تخطىء انها ليست مجرد عادة . . انها مظهر آخر من مظاهر الارهاب . . يتجرون بكل شيء ، بما في ذلك موتاهم . . والذين يتجرون بالموتى أكثر اجراما بما لا يقاس ، من الذين يتجرون بالمخدرات . . انها بالمحصلة ، عملية ارهاب صغيرة ، في خدمة عملية السطو الكبيرة . . ربما كنت مجنونا . . ولكني اقسم بشرفي أنها كما ذكرت . . عملية ارهاب صغيرة ، وتتحول مجموعة الصغائر التافهة في النهاية ، الى مجموعة من الكبائر الخطيرة ، التي تشكل دعائم النظام . . وهذه سوزان أمامي مطرقة ، صامتة ، مفكرة . . طعم بريء براءة الجبنة التي تتسبب في اصطياد فأر . . . وعندما رد الفلاح المعدم ، محفظة النقود العامرة الى صاحبها الاقطاعي ، ممنيا نفسه بالجائزة المعلنة . . ممنيا نفسه بمكافأة نظيفة . . صفعه الاقطاعي على وجهه بشدة . . كانت اللطمة من القوة بحيث اطاشت صوابه ، وكادت تلقيه ارضا . . «كلب سافل . . لن أعطيك المكافأة . . لماذا لم تسكت على المحفظة يا حيوان ؟ . . لماذا لم تأخذ هذه الثروة يا كلب» . . صحيح لماذا لم يأخذها ؟ . يريد أن يظهر كانسان ؟ . . يريد أن يدعي الشرف ، وأنه ليس لصا مثل الاقطاعي ؟ . . ولكن ، اذا لم يكن الفلاح لصا ، فكيف يستطيع الاقطاعي أن يسرقه بهدوء واطمئنان ، وبنفس متوازنة ليس فيها أثر للاضطراب والاختلال ؟ . . اذا لم يكن الفلاح وحشا . . ذئبا مفترسا . . فبماذا يبر ر الاقطاعي عنفه الوحشي ؟ . . كيف يبر ر الاغتصاب والتعذيب والقتل اذا لم تكن كلها مجرد عمليات قنص مشروعة ؟ . . مجرد رياضة ممتعة ، وسط غابة موحشة ؟ . . تلك هي الصغائر التي يتكون منها النظام برمته . . يريدون تذكيرنا باستمرار أننا حيوانات ، ووحوش مفترسة ، وأننا أموات ، وأن الدنيا فانية ، ومتاعها زائل . . الاقطاعي يصرخ أننا لصوص وذئاب ، والمذياع يلعلع أننا أموات . . وسوزان ترقبني صامتة مفكرة . . وأنا استعرض بيني وبين نفسي سلسلة لا نهاية لها من الصغائر القاتمة والزاهية ، وأتصور أن النفس البشرية ، والعلاقات الانسانية ، أكثر تعقيدا بما لا يقاس من التركيبات الكيماوية . وددت لو أطلع سوزان على الصغائر ذات الالوان الزاهية بالذات ، التي تحقق في النهاية نتائج قاتمة . . وددت لو أحدثها عن طيور النورس التي تلتهم

الاسماك المريضة فتحفظ الثروة السمكية ، وكيف أصبحت حماية النورس في حقيقتها حماية للسمك . . وددت لو أحدثها عن السيارات الفارهة الفخمة التي تتزاحم على أبواب مساجد شارع أبي رمانة كل يوم جمعة ، ويتدفق منها رجال بشراتهم بلون الفضة ، تتخللها شرايين زرقاء محمرة الجوانب ، فيغسلون بصلواتهم ذنوب الاسبوع المنصرم ، ويستعدون لاحتمال ذنوب الاسبوع المقبل بنفوس متوازنة ، فتجدهم يتلهفون لدخول المسجد مثلما يتلهف عمال المجاري والقمامة لدخول حمام السوق . وكان بودي لو أحدثها عن نفسي ، وأبسط أمامها ما يجول في خاطري ، فأطلعها على كل خلجاتي ، وعلى همومي الصغيرة وهمومي الكبيرة وأبين لها مخاوفي وخشيتي من أن اصبح واحدة من تلك الصغائر . ولكن ذلك كان مستحيلا ، ولو فعلته لكان في حقيقته وداعا لا لقاء بعده . . لو فعلته لكان علي أن أنسحب مهرولا على الفور ، مثل رجل قتل رب البيت الذي استضافه . وقد توفرت لي بعض اسباب الشروع في القتل ، ولكني لم أجرؤ . أنا لا أجرؤ بعد ، لأني أخشى الظلام والبرد ، وأخشى الطرق الموحشة المقفرة ، وافتراش الارض والنوم في العراء . . ما زلت في اعماقي اخشى المطاردة الرهيبة ، وخوض المستنقعات ، واللجوء الى الكهوف . وفرقعة السياط ، وأسلاك الكهرباء . ووحشية الجلادين ، ونذالة المحققين . وطالما أنا كذلك ، فكيف أقول وداعا ؟ . . لو قلتها دون أن أرحل فورا ، لما قبلوني خادما في أحد مساجدهم ! . . وثمة سبب آخر يمنعني من قولها . . سوزان تعرف أني أحبها وتراهن على قلبي . وتعرف أني أخاف فتراهن على خوفي . . ان عينيها تقولان لي : حسنا أنا لا أقيدك . . حاول أن تنهض . . أما اذا سقطت فستجد صدري يتلقاك ويحتضنك . ولكن ، أليس هذا الموقف من حقها ؟ . . نعم انه من حقها . ولو قدر لي أن أنتصر ، وتوغلت في القفار ، واكتنفتني الظلمة ، فستبقى ذكراها نورا في الليل ، وملاذا في الوحشة ، ومتعة في عالم سيفتقد المتعة وقتا طويلا .

* * *

قالت سوزان :

– صرت تتهرب من لقائي ، وحتى من مكالماتي الهاتفية . . وها نحن نجلس معا ، فلا تجد ما تحدثني به ، وتلوذ بالصمت .

قلت :

- بالعكس ، ما زالت أحب أمنية الى قلبي أن أبقى بجانبك ، وكل ما في الأمر أني مستغرق في بعض الأعمال التي لا أستطيع اهمالها أبدا . . هذا كل ما في الأمر .

- وما هي هذه الأعمال التي أصبحت تستغرق كل وقتك ؟ . ما الذي تغير في طبيعة عملك ، وشغلك الى هذا الحد ؟ . .

- بالاضافة الى الأعمال المتراكمة ، هناك الأوضاع العامة . . ألا تتابعين أخبار الجبهة ؟ . .

- أتابعها . .

- وما رأيك بها ؟

- حشود عسكرية ، وتهديدات متبادلة . . هل هناك شيء آخر ؟ . .

- عجبا ؟ . . ألم تلاحظي أن الحرب قد تنشب بين يوم وآخر ؟ . .

- كلا ، لم ألاحظ ذلك ، ولماذا تنشب الحرب ؟

- لأن الوضع تأزم كثيرا منذ الرابع عشر من هذا الشهر . . ألم تسمعي خبر اغلاق خليج العقبة ؟ . .

فرنت الي باسمة ، وقالت بهدوء :

- سمعت . . ولكنهم يقولون أن اغلاق العقبة عمل من صميم السيادة المصرية . . وأنا لا أصدق أن الحرب ستقع . . عبد الناصر لا يغلق العقبة اذا كان اغلاقها يؤدي الى الحرب . . انه عاقل وذكي . . أنا لا أهتم لكل هذا الضجيج ، فالمسؤولون العرب يجعجعون ، ويهولون الأمور للحصول على مكاسب صغيرة تافهة . . كلها أيام وتعود الأوضاع الى طبيعتها الأصلية . . ثم لنفترض أن الحرب ستنشب ، فما الذي يعنيك ، ويشغلك الى هذه الدرجة ؟ . . اذا انتصر عبد الناصر فسنصفق له كثيرا واذا انهزم ، فسنصفق له كثيرا أيضا . .

ضحكت باقتضاب ثم أردفت :

- لا أدري ، ولكني أتصور أنها ستكون حربا قذرة اذا ما وقعت . . يموت فيها آلاف الشباب دون مبرر .

رمقتني بطرف عينها ، وأضافت بسرعة :

- لا تغضب ، أردت أن أقول أنها ستكون حربا نظيفة جدا . . ما أسرع غضبك ؟ . . .

نظرت الى الساعة ، فوجدتها قد تجاوزت العاشرة والنصف بقليل ، فقلت :

- انني مرتبط بموعد ، ولا أستطيع أن أتخلف عنه .

- وهل ستذهب الآن ؟ . .

- انه صديق سيزورني الآن في البيت . .

- وهل ستبقى في البيت ؟

- على الأغلب .

- اذن أسرع . . مع السلامة .

قلت وأنا انهض :

- ألا تريدين أن أرافقك ؟ . .

فأشعلت لفافة ، وقالت وهي تنفس الدخان الى أعلى ، وتبتسم ابتسامة باهتة :

- كلا ، سأبقى هنا قليلا ، ثم أنصرف لوحدي .





الأيام التالية

١٥ ـ استنتاجات سوداء

هرعت الى البيت ، فوجدت يوسف ونجوى في حجرة الاستقبال . كانا يجلسان متجاورين ، وخيل الي أني أربكت بدخولي انسجامهما في الحديث ، وحين عبرت ليوسف عن أسفي بسبب اضطراري للخروج ، والتأخر عن الموعد ، رد أنه استمتع في فترة غيابي بالاطلاع على آراء نجوى للقيمة ، وفهم منها وقائع بالغة الاهمية ، كانت غائبة عن ذهنه . .

حاولت الاستقرار في مقعدي ، والاقبال على ضيفي بارتياح ، ولكن احساسا غامضا بالمباغتة شد أعصابي ، واستفزني ، وجعلني أتوقع مداهمة غير مستحبة ! . وقبل أن أقول شيئا ، رن جرس الباب ، فنسيت ما كنت أود قوله .

كان العم عبد الغني خارج البيت ، ولكني كنت متأكدا أن الطارق شخص آخر ، فمن أين أتى هذا اليقين ، وأنا لا أتوقع زيارة من أحد ؟ . . وكما يحدث لي في بعض الأحيان ، وربما للآخرين أيضا ، تواردت في ذهني تباعا أسماء وصور بعينها ، فلم هذه الأسماء والصور بالذات ؟ . وعندما أصبحت خلف الباب ، تريثت قليلا ، فكدت أسمع أنفاس الزائر في الجانب الآخر .

حدقت بعين واحدة من خلال المنظار ، فانتصب وجه البلاف يبتسم . . ها هو أحد الأشخاص الذين توقعتهم ، فمن يرافقه يا ترى ؟ ، وهل يعقل أن يكون أيضا أحد الذين وردوا في ذهني ؟ . . هل يعقل أن يكون غانم دهب الارض بالذات ؟ . . ان هذا يحدث لي كثيرا . . أكون في الطريق ، وفجأة أتوقع رؤية شخص بعينه في الحال ، فلا أكاد أجتاز منعطفا حتى أجدني أمامه وجها لوجه .

فكرت بالتصرف المناسب فيما لو صحت تنبوءاتي ، ولكن يدي كانت أسرع الى مزلاج الباب وعندما فتحت ، وجدتني بالفعل وجها لوجه أمام الرجلين ! . .

تقـدم غانم دهب الأرض تسبقـه يده وابتسامته ، وروائح العطر الذي تضمخ به بينما البلاف يقول لي :

- مفاجأة ، أليست مفاجأة ؟ . . انه اقتراحي . . اقترحت على غانم بك أن تكون الزيارة مباغتة . .

ابتسمت مجاملا وقلت :

- قمت بعمل طيب . .

- عمل استراتيجي ، لا عمل طيب . .

- حسنا ، استراتيجي . .

- وليس تكتيكي . .

- وما معنى ذلك ؟ . .

- معناه أنك تستطيع أن ترصد في ميزانيتك العامة نفقات المفاجآت التكتيكية ، أما الاستراتيجية فلا تمكنك من ذلك ، لأنها تنقض مثل القضاء والقدر .

- ثم ماذا يحدث ، أيها القضاء والقدر ؟

- أنسف حسـابـاتـك المسبقة ، وأدمر ميزانيتك المرسومة ، وأقلب موقفك رأسا على عقب . . ألم تسمع بالحروب الكبيرة الخاطفة أيها المارشال ؟ . . أنا أعبد مثل هذه الحروب . . .

كان يمكن أن يسـترسـل في هذره الى مالا نهايـة ، ولكن غانم دهب الأرض قاطعـه برفق موجها حديثه الي ، وهو يضغط على كتفي :

- لشد ما يقلقني ان تكون زيارتنا قد جاءت في وقت غير مناسب ، وأن تسبب لك ازعاجا . .

التفت الى البلاف ، وأردف :

- ولكن الأستــاذ عارف أصـر على أن تتم بهذا الشكـل ، ومـا كنت لأوافق لولا أني أعرف الصداقة التي تربط بينكما . .

وضع قبضته أمام فمه وتنحنح ، ثم تابع موجها حديثه الى البلاف :

- ومع ذلك ، كان من المستحسن يا أستاذ عارف أن تتصل هاتفيا .

- هاتفيـا ؟ . . تتصـل هاتفيـا ؟ . . ولكن هذا يتعـارض مع مبادئي ، فأنا أؤ من أن الـزيـارات المتفق عليهـا مسبقـا ، تكـون غالبـا عقيمـة ، وبلا نتيجة . . بعكس الزيارات

الخـاطفـة المبـاغتـة . . يبـدو أنك يا غانم بك لا تفهـم بلغة الجنود . . القائد العاقل لا يحدد موعد ومكان هجومه ، وهذه أبسط مبادىء العلم العسكري . .

قاطعته وأنا أغتصب ابتسامة ملائمة :

- أطلت وقوفنا وراء الباب . . تفضلوا . . الوقت مناسب ، وأنا مستعد دائما لكافة أنواع الزيارات .

ابتسم غانم دهب الأرض ، وقهقـه البـلاف الـذي كان يحاول التـمادي في تجاهـل مشاعري فيفضحه ارتباكه ، ويتجنب مواجهتي بنظره .

دعوتهما الى الحجرة ، وأنا أفكر أن أمورا كثيرة وقعت أثناء غيابي عن المكتب كما يبدو لي . وبعد أن تم التعارف ، جلس الرجلان متجاورين ، بعيدين عن نجوى ويوسف بعدا ملحـوظـا . أمـا أنـا ، فقـد اخـترت بعفـويـة تامـة مكان جلوسي ، واذا بي في الوسط بين الطرفين ، يفصلني عن كل منهما مقعدان . وعندما انتبهت الى ذلك اعتراني الخجل . وما كنت استطيـع استبـدال مكـاني ، فقـد شعـرت شعـورا غامضا أن مثل هذا التبديل سيخل بتـوازن ما ! . . أي توازن هذا؟! . . وجـدتني عاجـرا تمامـا عن تحديـد طبيعـة مشاعري ، وصرت بسبب موقعي ، أبدو أمام نفسي على الأقل بصور مختلفة . . تارة كأني حكم يفصل بين فريقـين . . قاض على منصـة . . وتـارة وكأني موضـوع خصـام وتسـابق بينهما ! . لقد سيطـرت علي فكـرت التـوازن ، والحكم والفـريقـين والخصام والتسابق ، فلم أستطع منها فكـاكـا . ومس هذا التصـور الغـريب كرامتي مسـا مؤلما ، الا أني في تلك اللحظات لم أكن أملك موقفا آخر .

* * *

كان غانم دهب الأرض يتحدث بتلك الطريقة المهذبة التي يمن بها على جلسائه . . تلك الطريقة المهذبة التي يفصلها عن الاحتقار خيط رفيع . وكانت نجوى تنصت بانتباه . وراح يوسف ينقل بصره بيني وبين الرجلين ، وكأنه يريد أن يعرف ما اذا كان أحد يعترض على وجـوده ! أمـا البـلاف ، فقـد كان يغـافلني ويختلس نظـرات خاطفـة ، يحاول بها أن يستشف ما يعتمل في صدري .

انتهت المجـامـلات المطـولـة التي لم أعـد أذكـر منها كلمة واحدة ، ثم سمعت دهب الأرض يخاطبني قائلا :

- منذ فترة طويلة ، وأنا أتحين فرصة مؤاتية للقيام بهذه الزيارة . .

كان يحرص على مخاطبة عدد من الاشخاص دفعة واحدة ، انما كل بدوره ، فينتقل من هذا الى ذاك الى الآخر ، فمثل هذه الطريقة تشعره بمكانته أكثر فأكثر ، وقد توجه الآن الى نجوى :

- . . في الحقيقة ، أنا أقوم بهذه الزيارة للسيدة نجوى بالدرجة الاولى ، وبناء على اتفاق سابق بيننا . .

لقد شدد على كلمات هذا المقطع الفج ، رغم ولعه بالكلمات الرقيقة المهذبة ولاحظت أنه يبحث خفية عن وقع ذلك في نفسي . .

عاد يخاطبني :

- ولكني لم أستطع مقابلتك في المكتب ، فأنت على ما يبدو كثير التغيب هذه الأيام . . هل أنت مشغول بكتابة موضوع جديد ؟ . .

حدق بي منتظرا جوابي ، وقد صلب على شفتيه ابتسامة مقيتة ، بينما كنت أستنتج ما يرمي اليه بسرعة ، وبعنف أيضا . ولم تكن استنتاجاتي السوداء تستند الى مجرد سوء الظن بكل ما يصدر عن هذا الرجل ، كلا ، فقد كانت نظراته توحي ايحاء واضحا بالألغام التي تضمنتها كلماته . وكان كما بدا لي ، يتعمد أن يوحي الي بما توصلت اليه من استنتاجات .

لقد فهمت من كلامه أنه يزور المكتب كثيرا في غيابي ، ومعنى ذلك . . معنى ذلك أراه جليا ، . . واضحا وضوح الشمس ، على وجه البلاف ، وفي حركات البلاف ، وفي نظرات البلاف المختلسة . .

التفسير «الرسمي» لتلك الزيارات ، هو السعي البريء لزيارة نجوى ، والاطمئنان عليها ، التزاما بالوعد الذي قطعه على نفسه . وباعتبارها تقيم في بيتي ، فان أصول اللياقة تجعله حريصا على زيارتها بواسطتي ، وتدفعه للسؤال عني في مركز عملي كل يوم . وأكاد أرى كيف كان غيابي يفرحه ، وكيف كان يروقه التذرع أمام البلاف بالسؤال عني ليبرر تردده على المكتب ، ثم كيف كان يتنازل ، ويقبل بتواضع جم انتظاري قليلا علني أحضر ، انما بعد أن يلح شريكي عليه بالجلوس ، وتبدأ عملية تزجية الوقت . .

التفسير الحقيقي الذي لم يكن يحرص على اخفائه ، والذي راح يتلذذ بتسريبه واشاعته عبر الجمل البسيطة ، هو أنه نجح حتى الآن في تسميم جو الصداقة الذي يجمعني

مع البلاف . . نجح في وضع أصابع المتفجرات في أساس عملنا المشترك . . وها هو أخيرا في بيتي ، يزف الي أنباء أنتصاراته مثل أي «سادي» خطر . . ها هويقتحم بيتي بناء على اقتراح من صديقي الحميم . . يقتحمه مرغما ومكرها نزولا عند الحاج شريكي العزيز . وما كان ليرتكب هذا الفعل ، لولا معرفته بصداقتنا من جهة ، والتزامه بالوعد الذي قطعه على نفسه أمام نجوى من جهة ثانية . .

التفت الى نجوى ملهوفا كأني أخشى أن لا أجدها في مكانها ، فاستقبلتني بهدوء وانتباه أشاعا في نفسي السكينة والطمأنينة . . أي نوع من المتفجرات ، جاء يحملها في جعبته ؟ . . وعدت أتأمل في سؤاله الأخير ، الذي طرحه مرفقا بابتسامة تقطر شبهة : هل أنت مشغول بكتابة موضوع جديد ؟ . . ترى هل قصد الاشارة الى سوزان ؟ . . تمنيت من أعماق قلبي أن أكون مخطئا في الاستنتاج .

عاد غانم دهب الأرض يسألني :

- هل هومشروع كتاب ؟ . . أم أنها مفاجأة تريد الاحتفاظ بها سرا الى أن تصبح جاهزة للطبع ؟ . . اذا كان الأمر كذلك ، فأنا لا ألومك ، لأن البلد يعج بلصوص الأفكار . .

قلت ببرود :

- أنا لا أهتم للصوص الأفكار ، فالحشرات تسهل تلقيح الأزهار بينما هي تسطو على الرحيق .

واشترك يوسف في الحديث لأول مرة ، فقال :

- تلك هي الحشرات البريئة المسكينة ، ولكن هناك حشرات فتاكة ، تنخر الساق ، وتقضي على الجذور ، فتحول الشجرة الى هيكل أجوف . . السطوعلى الأفكار ليس مجرد نقلها . . السطو الحقيقي والخطر هو تجويفها . .

فالتفت غانم دهب الأرض اليه كأنه يكتشف وجوده لأول مرة ، وسأله باحترام بالغ يكاد ينقلب الى ازدراء . .

- عفوا ؟ . . لا تؤاخذني على عدم انتباهي ، بماذا تفضلت ؟

أجاب يوسف :

- أردت أن أقول أني لا أقيم وزنا لعمليات السطو التي قد تتم لأغراض شخصية مادية . . الأفكار قيمة اجتماعية ، والسطوعليها هو استخدامها ضد صالح المجتمع ، عن طريق التشويه والاجهاض .

فقال غانم دهب الأرض بلهجة لا تخلو من تهكم :

- يؤسفني أني لم أفهم بعد . . أنا أفهم السطو فهما بسيطا مباشرا مثل عامة الناس ، ولو سئلت أن أعرف السطو ، فسأجيب على الفور : انه السطو . فماذا قصدت بحديثك ارجوك ؟ . .

لقد أخطأ دهب الأرض التقدير على ما يبدو ، ولم يقم ليوسف وزنا كبيرا ، وقد أجابه يوسف :

- قصدت أني لا أهتم كثيرا للصوص الذين يسرقون ما يسد رمقهم ولكني اهتم أشد الاهتمام للصوص الكبار الذين يضاعفون ثرواتهم على حساب مزيد من البؤس الاجتماعي .

قال غانم دهب الأرض وهو يجيل نظره فينا جميعا :

- ما زال الكلام غامضا بالنسبة لي على الأقل . . ومن هم اللصوص الكبار ؟ . . وكيف يضاعفون ثرواتهم بواسطة الأفكار ؟ . . .

التفت الي ضاحكا بخشونة ، وأردف :

- . . خاصة اذا علمنا أن الأفكار لا تطعم خبزا في بلادنا . .

فرد يوسف بهدوء وحزم :

- ومع ذلك فان كلامي واضح كل الوضوح . . الأفكار التي نعنيها بحديثنا ليست مجردة ، وانما هي أفكار مادية . . لنفترض أنك شخصيا أسقطت مضمونها المادي ، وفصلتها عن الواقع الاجتماعي ، فانك بذلك تحولها الى فقاعات . . انك بذلك تكون قد سلبت الشعب نور عينيه ، ولو الى حين فيتخبط في الظلام ، وعندئذ يخلو لك الجو تماما . . هل فهمت الآن ؟ . .

اربدت سحنة دهب الأرض لحظة من الوقت ، ولكنه سرعان ما استرد تظاهره بالهدوء والمرح ، وقال :

- كلا ، لم أفهم بعد . .

وأضاف بتهكم واضح . . ،

- يبدو أني بطيء الفهم ، خاصة ازاء الاكتشافات الجديدة . . ما الذي أستفيده عندما أطفىء نور عين الشعب ؟ . . وكيف استثمر شعبا اعمى ، غير قادر على الانتاج ؟ . . أنا لم أسمع حتى الآن بمثل هذا النوع من السرقة ، رغم بلوغي الخمسين من العمر تقريبا . .

ضحك باقتضاب ، وتابع موجها حديثه الى نجوى :

- انني أعترف بهذا السر رغم وجود السيدة نجوى بيننا .

لم تبتسم نجوى ، ولم تحرك ساكنا . وأطلق البلاف ضحكة صاخبة . أما أنا فقد قلت :

- أنت لا تجهل هذا النوع من السطو ، باعتبارك أكثرنا خبرة بمجمل شؤون الحياة . . . أنت تعرف جيدا ما هي الثورة الأكذوبة . . أنت تعرف جيدا ما هو الفجر الكاذب الذي يعلن عنه الديك الكاذب في أول الليل . . ولكنك تعرف ايضا أن الفلاحين يذبحون عادة هذا النوع من الديوك . .

ابتسمت للضيف الكبير ، وأنا أشعر أني قمت بواجبي ازاء نفسي ، وازاء يوسف ، ورد دهب الأرض على ابتسامتي بأخرى شاحبة ، وقال :

- اذا كان الأمر كذلك ، فان على القوى المعنية التي أشرتم اليها ، أن تكون أكثر انتباها . . أن لا تنخدع ، وأن لا تكون مغفلة .

قلت :

- هذا صحيح تماما .





الأيام التالية

١٦ ـ الجلسة تكتمل

رن جرس الباب من جديد . وعندما فتحت ، وجدت سوزان أمامي تعالج ضحكة مكتومة ! .

تساءلت وأنا أتناول يدها وأقودها الى الداخل ، ان كان حضورها مجرد مصادفة أم أني ضحيـة خطـة محكمـة ؟! . ولكني لم أستطع أن أعطي نفسي جوابا شافيا ، وبعد أن خلعت معطفها وعلقته على المشجب ، ألقت نظرة سريعة مستكشفة على ما حولها ، وقالت كأنها تخاطب شخصا آخر :

- زرت أقربائي الذين يسكنون في هذه المنطقة ، فقلت لنفسي : لم لا أزورك طالما أنك في البيت كما أخبرتني ؟ . . لم أجد أي سبب يمنعني .

قلت :

- بالفعل ، ليس هناك من سبب يمنعك على الاطلاق .

كانت ترتـدي ثوبـا قطنيـا بنفسجي اللون ، مرن الخيـوط ، أبـرز مفـاتنهـا ، ورسم لانحناءات جسدها الممتلىء ، وكان عنقها المشرئب رخاميا ناصع البياض . وقد أدركت أنها اختلقت حكـايـة أقـاربهـا دون أن تبالي بذلك أية مبالاة ، فلاحظت أن الكذب المكشوف ، الـذي تعمـدت فضحـه بحركاتها وبكلماتها ، قد زادها فتنة . وتخيلت للحظة وقع دخولها في نفس كل من الحضور ، فاعتراني اضطراب خفيف ، لاحظته على الفور ، فسألتني :

- عندك ضيوف ؟

أومأت برأسي ايجـابـا ، وأعطيتهـا فكرة سريعة عنهم ، فومضت عيناها عندما ذكرت اسم دهب الأرض ، وهمست :

- انه شخصية مهمة .

ولكنها سرعان ما حركت كتفيها ، وقالت وهي تبتسم ابتسامة ذات معنى :

- أنت تستقبل الناس بمختلف اشكالهم ، وهذا أمر طبيعي جدا .

كانت تساعدني في تبريـر وجودها . وعندما ولجنا باب الحجرة ، سمعنا الجدل يدور حول قضية فلسطين . وقد توقف الحديث عندما اطلت سوزان ، وخيل الي أن الجميع حبسوا انفاسهم ، وخلال برهة ساد صمت تام بالفعل .

قدمتها لهم ، وقدمتهم لها ، مهملا تماما أية اشارة الى طبيعة العلاقة التي تربطني بها ، فمثل هذا التوضيح لن يكون له أي معنى سوى احراج موقفي ، وافساح المجال للتساؤلات الخبيثة ، فأنا أستقبل جميع الناس بمختلف أشكالهم ، وألوانهم أيضا ، وهذا أمر طبيعي جدا . هكذا رسمت سوزان صورة الموقف قبل قليل ، وأنا أثق بطرق معالجتها لمثل هذه المواقف ، حتى ولو لم أكن أشعر بالاطمئنان .

قالت سوزان :

- غانم بك أجل من أن يعرف .

فأحنى الرجل رأسه ، واحتفظ به منحنيا أكثر من المعتاد ، امعانا في التهذيب .

وقال البلاف :

- اننا نعرف بعضنا . . التقينا مرة ، اذا كنت تذكرين ؟ .

فمنحته ابتسامة عريضة وهي تتأمله وتتظاهر بالتفكير ، ثم أجابت :

- نعم ، تذكرت تماما . . كان لقاء لطيفا .

فاحمرت صلعته ، وبرقت عيناه مثل كلب تعرف على سيده بعد غيبة طويلة ، ونجح غانم ذهب الأرض في جعل سوزان تحتل مقعده بينه وبين البلاف .

أما أنا ، فقد جلست هذه المرة في الطرف الآخر الى جانب نجوى ، فتنفست بعمق وشعرت انني تحللت من حمل ثقيل ، واني أصبحت أكثر قدرة على التحرك بما لا يقاس .

قال ذهب الأرض مكملا حديثا سابقا ، وموجها كلامه الى يوسف :

- . . أختلف معك ، وأرى في كلامك مغالطة تاريخية . .

قطع حديثه ، وخاطب سوزان :

- معذرة يا آنسة سوزان ، ولكنه حديث مهم ، وسترين ذلك بنفسك . . هل تسمحين ؟ . .

أومأت برأسها موافقة ، وهي تحاول الاندماج . فتابع مخاطبا يوسف :

- أراك وقعت في مغالطة تاريخية عندما قلت أن الحركة الصهيونية تبدأ بهرتزل . .

قاطعه يوسف :

- قلت أنها تبدأ من القرن الثامن عشر . .

- حسنا ، حسنا . . أنا أقول أنها تبدأ من عصر الفراعنة . .

فأشاح يوسف بوجهه ، وطوح بيده دليل الاستنكار والاستخفاف . واعتقدت أن تلك الحركة «الطفولية ، الرعناء ، المشاكسة» كفيلة باغضاب دهب الأرض الى درجة الانسحاب الفوري ، ومغادرة البيت . ولكنه تمالك نفسه ولاذ بالصمت .

تساءلت دون دهشة : «ترى ما الذي يرغمه على البقاء ، وهويرى بوضوح أن لا مكان له» !. كان الجو مشحونا ، وقد أسرعت أقوم بواجبي ، باعتباري مضيفهم ، فقلت :

- علينا أن نستمع الى الرأى القائل بأن الحركة الصهيونية تبدأ من عصر الفراعنة ، فان لهذا الرأي كثير من الأنصار الأبرياء . .

قال يوسف محتدا :

- ولكنك تعرف خطورة هذه الاسطورة التي تحاول أن تدخل في روع شعبنا أنه يواجه مخططا عمره آلاف السنين ، وأنه لا يملك ازاءه سوى رفع الأيدي والتسليم . .

قلت :

- هذا محال ، فهم لا يطرحون مخططهم في مقبرة ، فللشعوب تاريخها الأكثر واقعية ومنطقية وليس مهما في المحصلة أن يكون تاريخهم أسطورة أوحقيقة ، فان لنا تاريخنا الطويل أيضا .

فاسترخت أعصاب دهب الأرض ، وقال بعد أن أشعل لفافة :

- هذا كلام معقول . . كل الكتب القديمة تتحدث عن أورشليم ، وعن أرض الميعاد . . وسواء أكانت هذه الكتب ملفقة أم غير ملفقة ، فان قدم تدوينها قد حولها الى مخطط قديم . . ثم هناك النفوذ الصهيوني الكبير في المؤسسات الحكومية العليا لعديد من البلدان الهامة ، وخاصة الولايات المتحدة . . بماذا تفسر هذا النفوذ ؟ . . هل هومصادفة محضة ؟ . . أليس واضحا أنه محصلة جهود أجيال عديدة ؟ . .

قال يوسف :

- اليهود عبر العصور عاشوا في الأوساط المالية ، أوعلى مقربة منه . . أما توضيح السبب ، فهو من اختصاص علماء الأجناس والديانات القديمة . . ما يهمني تأكيده هو أن

«مهنتهم المالية» جعلتهم شريكا الى هذا الحد أو ذاك في ادارة النظام العالمي الراهن ، لأن هذا النظام ولد من اندماج القطاع المصرفي بالقطاع الصناعي ، ولذلك ترى ان الحركة الصهيونية ظهرت مع ظهور النظام المذكور ، وبرزت في القرن الماضي ، وليس قبله . . الأسطول السادس الذي يسيطر على البحر المتوسط لم يؤسسه الملك داوود . . وليفي أشكول الذي يهدد باحتلال دمشق في هذه الأيام ، ليس أكثر من موظف صغير مأمور عند ملوك النفط ، وهو يستطيع أن يكون يهوديا ، أو برهميا ، أو أي شيء يريد ، ولكنه يبقى اولا وأخيرا أجيرا عند أولئك الملوك سواء أكانوا مسيحيين أم مسلمين . ولو أصبح الشيخ شخبوط امبراطورا للنظام العالمي ، فستكون اسرائيل في خدمته . . .

قال غانم دهب الأرض :

- ولكنك تعلم ، ويجب أن تعترف ، أن اليهود هم الذين يقررون من سيكون رئيسا للولايات المتحدة . . واذن فهم الذين ينصبون الامبراطور .

أجاب يوسف :

- أبدا ، الرئيس الاميركي ليس هو الامبراطور ، وانما هو أحد موظفي الامبراطور الذي هو النظام . . النظام هو الذي يعين الرئيس الاميركي المؤهل لخدمته . . أما حكاية ، النفوذ اليهودي في الانتخابات فهي تمثيلية ، ولو حدث وتعارضت ارادة اليهود مع ارادة النظام ، لذبحوا عن بكرة أبيهم . .

استمر يوسف في شرح وجهة نظره بعمق، وبالمام يثير الاعجاب ، فأوضح كيف أن الرئيس الاميركي ليس أكثر من صنيعة ، وأداة طيعة تحركها «ميكانيكية» النظام ، وقال أن هرتزل نفسه ، رحب بسفك دماء اليهود في روسيا القيصرية على مذبح سيده النظام ، وروى كيف طحنت العجلات الباردة الصماء الرئيس جون كينيدي ، عندما شذ قليلا عن مكانه المحدد في «ماكينة» النظام ، وكان أروع ما ورد في حديثه هو تعرية الاخلاق الشخصية للرئيس الاميركي . . هذه الاخلاق التي يراهن عليها بعض العرب في صراعهم مع الصهيونية ، فقد قال أن الرئيس الاميركي لا يستطيع ان يفعل شيئا من وحي أخلاقه ، وأنه اذا كان «خلوقا» بالمفهوم المتعارف عليه ، واذا ما حاول ان يعمل على أساس «مبادئه الشخصية» يصبح شخصية مزدوجة ، غير صالحة للخدمة ، ويعرض نفسه للدمار والقتل . .

- الرئيس الاميركي يجب أن يكون أداة صماء ، والرئيس جونسون أكثر من توفرت به هذه الصفة .

هكذا أنهى حديثه . وقد رددت بيني وبين نفسي أن الحديث كان قيما للغاية ، وقررت أن أضيف شيئا لمجرد اشعارهم باتفاقي وتضامني معه ، فقلت :

- انما على الرئيس الاميركي أن يظهر كرجل حر ، يمتلك قسطا من الارادة الشخصية ، وأن يلعب دور الشخصية المزدوجة ، التي توازن بين السياسة العامة ، والأخلاق الشخصية ، وبهذه الطريقة يخدم مصلحة نظامه بشكل أفضل . وأنا أرى أن جونسون لا يتوفر فيه هذا الشرط تماما ، فهو يبدو للعين المجردة ، أقرب الى الانسان الآلي .

فقال يوسف وهو يهز رأسه موافقا :

- مهمة اختيار الرئيس الاميركي ، ليست سهلة في الحقيقة . انها عملية انتقاء بالغة التعقيد والدقة ، تنفذها الى حد كبير «ميكانيكية» النظام . .

قال غانم دهب الأرض وهو يقاوم احساسا طفيفا بالهزيمة ، بدأ يظهر على قسمات وجهه :

- ها أنتم في النتيجة ، تصلون الى نفس المحظور الذي أنبني بسببه السيد يوسف . . أنتم أيضا تطرحون مشكلة لا حل لها ، وتدخلون في روعنا أننا أمام قوة جهنمية هائلة لا تقهر . . ألا يقود تحليلكم في النهاية ، الى رفع الأيدي والتسليم ؟ . . ان احتمال نشوب الحرب قائم الآن بقوة ، فهل نعلن الحرب على اسرائيل والولايات المتحدة معا ؟ . . أم على الولايات المتحدة قبل اسرائيل ، حسبما يقتضي تحليلكم ؟ . .

أجال بصره في الحضور ، وقد استرد كامل حيويته ، وثقته بنفسه . وقال يوسف :

- أولا ، لسنا نحن من يعلن الحرب ، فنحن في وضع دفاعي . . . .

فقاطعه دهب الأرض بحدة :

- اغلاق العقبة يعني اعلان الحرب . . ولدينا أقوى قوة ضاربة في الشرق الأوسط ، حسب تصريحات المشير عامر ، وهذا يعني أننا في وضع هجومي ، لا دفاعي . .

- دعك من تصريحات المشير عامر . . تصريحات المسؤولين العرب ، لا تعكس دائما واقع الحال . . عبد الناصر أكثرهم دقة ، وقد أكد مؤخرا أنه لم يعلن الحرب ، وان اغلاق العقبة اجراء مصري مشروع . . بل انني أجزم أنه لا يريد الحرب ، لألف سبب وسبب !

صاح دهب الأرض بغضب :

- اذن ماذا يريد بالله عليك ؟ . . قل لي ماذا يريد ؟ . . كل الناس يعرفون ان اغلاق العقبة يعني اعلان الحرب . . العدو على الأقل ، وهو معني بالأمر ، أكد أن مصر أعلنت

الحـرب عنـدمـا أغلقت الخليج ، وإذن ، ما هي الأسباب التي تجعله يقدم على هذه الخطوة البالغة الخطورة ، وهو لا يريد الحرب ؟ . .

أطـرق يوسف قليـلا ، ثم نظـر الي دون أن يجيب . كنت أدرك ما يجول في خاطـره ، وأعـرف أنـه لا يستطيـع الاجـابـة على هذا السؤال المحـدد ، لألف سبب وسبب أيضا . وكانت عيناه تدعواني للحديث . وقد قلت على الفور ، من باب انقاذ الموقف :

- بالفعل ، لسنا نحن من يعلن الحرب . ومن الممكن أن يدخل اغلاق المضائق في العقبة ضمن خطة دفاعية ، فليس شرطا على الاطلاق أن يكون هذا الاجراء مقدمة لعمل هجـومي . . ولكني أعـترف أن صورة المـوقف الـراهن تعطي انطباعا مغايرا ، وأنها عسيرة على الفهم . .

* * *



١٧ - نهاية الرحلة الثامنة ؟

لفت سوزان الجميع بنظرة سريعة ، ثم توقفت عندي وهي تقول :

- يا جماعة ، طالما أن الصورة عسيرة على الفهم ، فأنا أقترح الانتظار ريثما تصبح مفهومة . أنا أشعر رغما عني ، ان هذا الموضوع لا يعنيني . . لا تفهموا من كلامي أنني أقل منكم وطنية . . كل ما في الأمر ، هو أني أشعر بصدق ، بالغربة والحياد ، وعدم مسؤوليتي عما حدث وعما سيحدث . . ليس الذنب ذنبي ، فلست في أولها ، ولن أكون في آخرها . . قد أكون مخطئة ، وقد يكون لكلماتي وقع غير محبب ، الا أنني لست مذنبة . . أنا مقتنعة أني لست مذنبة . .

كانت تتحدث بينما عيناها تخاطباني بكلام آخر ، فكنت استمع الى لغتين ، ولهجتين ، وموضوعين مختلفين في آن واحد ، أحدهما موجه الي ، ويخصني وحدي ، والآخر موجه الى الجميع . .

وبينما الكلمات اياها تجري على لسانها ، كانت عيناها تهمسان لي بأعذب كلمات الحب ، فيتسلل الخدر الى جسمي رويدا رويدا ، وأضعف ، وأذوي مثل عصفور محروم ، وحيد في قفص ، وصاحبته تزقزق على شجرة قريبة بين رف من العصافير .

شارفت على السقوط فريسة لسحر نداءاتها الصامتة ، التي شلت مقدرتي على متابعة كل ما عداها ، ووجدتني أقرأ في عينيها تلك الكلمات المثيرة التي رددتها على مسامعي في الفترة الأخيرة ، والتي كانت تحولني الى ثور هائج محمر العينين ، يكاد يقتله الشبق : «لم تعد ترغب بي . . ضعف اقبالك علي !» . . ورحت افكر أن عمر الامبراطورية الرهيبة طويل وكبير . . وعمري قصير وحقير . . أنا الانسان الضعيف الفاني ، الذي يحب الطعام على مائدة معاوية ، والصلاة وراء علي ! . وكاد ينقلب كل ما حولي وهما باطلا ما عدا جسد سوزان ، وأحسست احساسا خفيفا ، ولثانية واحدة ، بالنفور من يوسف . ثم توقف مؤقتا

كل احساس سوى رغبتي العارمة بالانفراد بسوزان . وفكرت باستهتار ومجون : ما الذي يمنعني من الوقوف ، واعلان انتهاء الجلسة ؟ . . لعنة الله على هذه الجلسة ، وعلى كل اسم ورد فيها . . وماذا سيحدث لو نفذت الفكرة ؟ . . لا شيء يستحق الذكر ! . . سينصرف الجميع ، وهذا ما أرغبه . . فلتأخذ الشياطين الجميع . . وأي ضير في ذلك ؟ . . وستبقى سوزان تضحك بعذوبة ، فأهتصر شفتيها الممتلئتين الدافئتين ، ثم اثبت لها أن رغبتي بها تتزايد ، وأقدم لها من البراهين ما يجعل تأوهاتها . . . ؟ أنا الانسان البائس الأعزل ، الذي لا يستطيع ان يبرهن عن رجولته الا في هذا المضمار . . مثل تلك الثيران القوية ، التي تنضح فحولة ، والتي ليس لها من مهمة في الحياة سوى عملية اللقاح ، ومن ثم الاتجاه الى المسلخ !

وقادني تفكيري الماجن المستهتر الى بلدان بلغت ذروة الحضارة ، فخضع الحب فيها لبرامج صارمة . . ولكن أجساد النساء لا تطفىء رغباتها مشاعل الحضارة . . هناك تبرز قيمة التخلف ، وتتجلى مهمته الاستثنائية الفريدة . . هناك يستطيع رهط من الآسيويين - الافريقيين اقامة امبراطورية عالمية يتزعمها الفحول ، فتحتكر أسواق الجنس ، ولا ينازعهم فيها أحد من الأباطرة . . لا روكفلر ، ولا روتشيلد . . أما اذا لم ننفذ هذا المشروع ، فسنبقى . .

- تكملة عدد . . أنا مجرد تكملة عدد .

كان ذلك لسان سوزان يتحدث الى الجميع ، أما عيناها فكانتا معي ، تناديانني وتواعدانني وتغزلان قصصا ، وتعرضان صورا ، لا يستطيع حتى الانسان الآسيوي - الأفريقي سردها وعرضها . . سيمنعه الحياء حتما ، رغم أنها الوثائق الوحيدة التي تثبت رجولته . . ولكن البلاف لا يعرف الحياء ، وها هو يقهقه مثل قواد أنجز لتوه صفقة دسمة . . كان يتحدث ولم أكن أفهم كلامه ، ثم سمعته يقول :

- عدد . . نعم والله . . أنا أشعر مثل شعورك يا آنسة سوزان ، ولي رأي مشابه لرأيك . . أنا أقول دائما ، أن الانسان في بلادنا مثل دودة تزحف بين قدمي عملاق هائل يراقبها وهو مسترخ على مقعده . . .

كان يتوقع أن يجذب رأيه انتباهها ، ولكن عيناها كانتا معي وحدي ، لا تبارحانني ولو بسبب ارتعاش الجفون . . دودة ، أم حمار ، أم ثور ؟ . . أنت وحدك دودة يا علقة . . أما أنا . . صنفني بين ذوات الأربع على الأقل ، فمثل هذا التصنيف أقرب الى فهم رجل

مفلس مثلي ، ولكنه يستطيع أن يجري مقارنة موفقة بينه وبين حصان مثلا . . أما الزواحف . . ما أدراني كيف تعيش الزواحف؟ . . وكيف يضاجع بعضها بعضا ؟ . . وحتى لو شاهدتها تفعل ، فلن أفهم شيئا ، ولن تحفزني فعلتها على عقد أية مقارنة ناجحة . .

كان البلاف يقول :

- أضعتم وقتا طويلا في حديث لا أدري مدى فائدته . . علينا أن ننتظر ، لأننا لا نملك غير الانتظار ، فكل شيء يعد لنا مسبقا . . يجب أن نتحلى بالصبر ، ويجب أن نعيش حتى نرى بأعيننا ماذا أعد لنا . .

وكان لا يزال يتوقع أن تعيره سوزان اهتمامها ، وأن تلتفت اليه ، ولكن عينيها مشدودتان الى عيني بحبل لا ينفصم ، ولا تؤثر فيه السيوف القواطع . . نعيش حتى نرى ماذا أعد لنا . . أيها الدودة . . لو قلت أنك ثور لبشرتك بالمسلخ . . ولكنك دودة حقيرة تعافها النفس ، ولا تكتشفها العين ، ولا تتعمد دوسها الأقدام ، فبماذا أتنبأ لك ؟ . . وماذا تريد أن ترى اذا عشت . . أقسم بشرفي أنك عاجز عن رؤية أي شيء مهما عشت . . ستسمع المذياع . . تتابع روايات لا تستطيع اطلاقا أن تقطع ان كانت صحيحة أم مختلقة . . لن ترى شيئا بعينيك . . تسمع وتقرأ فقط . . روايات على نمط «تغريبة بني هلال» . . ستسمع عن شهداء لا أهل لهم ، تنعيهم البيانات والصحف الرسمية . . واذا مر نعش بقربك ، والناس من حوله يوحدون ويكبرون ، ويمجدون ، فسترتاب بمحتويات النعش ، وتشك ان كان بداخله جثمان حقا ، أم أنه محشو بالمخدرات ! . . هذا ما أقوله لك وأنت حر في أن تصدق ، أو لا تصدق . .

وعدت أسمع صوت البلاف :

- غانم بك مشغول ، وقد جاء ليقابل السيدة نجوى خلال ربع ساعة ، ويقدم لها اقتراحا . .

كان هذه المرة يتطلع الى نجوى . . غانم بك لم يأت ليقابل نجوى ، يا أيها الحشرة الزاحفة . . غانم بك جاء ليستأجرني بغلا يشده الى عربة . . غانم بك يفهمني أكثر منك ، ولذلك لم تفتر عزيمته ، واستمر يلاحقني ، فقد أعجب بمواصفاتي ، وهو من هواة جمع البغال الجيدة ، لا تثنيه وحشيتها ، ولا يرده عنادها ، ولا تخيفه رفساتها . . هوايته ومتعته في الحياة ، أن يضمها الى حظيرته ، فيعلفها ، ويروضها ، ويحسن نوعها . .

ولكنك بهيمة عمياء منبطحة ، لا تفهم ولا ترى . .

كان البلاف يسأل :

- هل تريد أن تطلع السيدة نجوى على اقتراحك يا غانم بك ؟

- انه ليس اقتراحا في الحقيقة ، أردت فقط أن أسأل السيدة نجوى ان كانت تفكر بالسفر الى لبنان للعلاج . . اذا كانت تفكر بذلك ، فسيسعدني أن أعرض خدماتي التي أستطيع تقديمها .

تجاهلني وراح ينتظر الجواب من نجوى ، وهويعلم أنها لن تعطيه جوابا ، لأنها تعرف أنه يقصدني أنا ، ولا يقصد أحدا سواي . . تريد أن تخدعني ، وأن تجتذبني بحزمة من العشب ؟ . . ولكني لا أمضغ هذا النوع من العشب يا غانم بك . . هذا العشب لا يؤكل يا غانم بك . . وأنت بالذات لست متأكدا من صلاحيته ، ولذلك جئت بالبلاف معك ، حصافة منك واحتياطا . وأنا أراهن أن البلاف سيدلي بدلوه لاحكام الفخ . .

وبالفعل ، أكمل البلاف قائلا :

- وفي حال الموافقة ، أعني في حال توفر الرغبة ! . .

لقد أصبح يفرق بين الموافقة والرغبة ، وبين الاقتراح والأمنية . . لقد تطور صاحبي كثيرا خلال أيام قليلة . .

- . . فاني أقترح أن نسافر معا في سيارة غانم بك . . انه اقتراحي شخصيا ، وقد وافق عليه غانم بك بسرور ، ومشروع السفر هذا ، يشمل الأستاذ سعد بالطبع ، وأعطي نفسي الحق في دعوة كل من يرغب أيضا . .

كان منتفخ الأوداج . . يعتقد أنه غدا ندا لغانم دهب الأرض ، وينسى أنه زاحفة قميئة لا ظل لها . . ويعطي نفسه الحق في دعوة من يرغب . . طبعا . . الصياد المحترف لا يوفر دابة ، ويستخدم الطريدة الحية طعما لاجتذاب بني جنسها . . طبعا . . أيها الطعم الميت المقرف . . هيا ، تحدث الي مباشرة . . ستفعل رغما عنك . . أنا وسيدك نعرف ذلك حق المعرفة . . صحيح أنني أشبه ذوات الأربع في بعض النواحي . . بل وفي نواحي كثيرة . . ولكني لست بغلا الى هذه الدرجة . . أنا أفهم اللعبة الصامتة من ألفها الى يائها . . هيا ، التفت نحوي ، وتحدث الي . .

وقد توجه الي بالفعل قائلا :

- ان لدينا بعض الأعمال الهامة يا شريكي ، وأرى أنك يجب أن تذهب معنا . . ان

هذا ضروري ، وان كنت لا تفقه شيئا في المسائل التجارية .

وانبرت سوزان تقول وهي ترمقني :

- اذا كانت السيدة نجوى ستسافر معكم ، فأرجو قبول اشتراكي في هذه الرحلة . . لى أقارب في بيروت ، وسيطيب لي أن أقدمهم للسيدة نجوى .

كانت ترمقني بجرأة لم تخف على مجمل الحضور . . انها تتعرى وتعريني أمام الأنظار المحدقة المبهورة . . يا لنجوى الطيبة . . الجميع يحومون حولها مثل طيور جارحة جائعة ، تستعد للانقضاض على جثمان ساخن ألقي لتوه في العراء .

قلت :

- علينا أن نفكر في الأمر . . هناك استشارة الطبيب ، ورأي العم عبد الغني . . متى سيكون السفر ؟

أجاب البلاف بسرعة لجوجة :

- السفر ، بعد يومين .

قلت :

- سنعطيكم جوابنا غدا .

نهض غانم دهب الأرض وهو يقول :

- حسنا ، سنعرف غدا جوابكم . . أما الآن فأستأذن ، ويؤسفني أني مضطر للذهاب .

صافح نجوى ، وصافح يوسف ، فقد تعمد توديع سوزان في النهاية ، ثم قال مخاطبا يوسف :

- تشرفت بمعرفتك . . هل تريد أن أوصلك بسيارتي ؟

قال يوسف دون أن تفصح ملامحه عن أية مشاعر :

- شكرا لك .

اتجه دهب الأرض الى سوزان ، واحتفظ بكفها في يده ، وهو يقول :

- اذن سنسعد برفقتك اذا سارت الأمور على ما يرام . . هل تقبلين الآن أن أوصلك في طريقي الى حيث تريدين ؟

التفتت الي مبتسمة وكأنها تقول : «يمكنك أن تمنعني ، أما اذا لم تفعل فسأذهب» . . اذهبي اذا شئت . . ولا تذهبي اذا شئت ! . . قد نلتقي اليوم ، أو غدا أو بعد غد . .

وقد لا نلتقي أبدا ، فمن يدري ان كنت سأجد قاربي أولا أجده ؟ . . ولكني موقن أن رحلة السندباد الثامنة شارفت على نهايتها ، وأنه لن يعدم وسيلة تلقيه في غياهب المجهول ، عله يصل الى المعلوم . . سيتشبث بلوح خشب طاف . . سيلوح بكوفيته الممزقة للسفن العابرة الغـامضـة ، وقـد يقع في أيدي القرصان ، فيتلقفه غنيمة باردة جاءت من تلقاء ذاتها ممتطية الأمـواج ، ويبيعـه بثمن بخس في سوق من اسـواق النخـاسـة ، ثم يشتري بثمنه زقا مليئا بخمـر دمـوى اللون . . كل هذا ، أوبعضـه قد يحدث اليـوم ، أوغدا ، أوبعـد غد . . فاذهبي أولا تذهبي . . أمـا أنـا ، فلا أستطيـع أن أقـول أو أفعـل شيئـا ، قبـل أن أحسم معركتي داخل هذه الزوبعة العنيفة . .

كانت سوزان تقول لغانم دهب الأرض :

- ألا يزعجك ذلك ؟ . . ألا يؤخرك عن أعمالك ؟

أجاب وهو يبتسم ابتسامة عريضة ، ويبسط ذراعيه :

أبدا ، أبدا . . على العكس تماما .

حدثت نفسي بحنق ولؤم : «اذهبي معـه . . انـه عنـين .. أراهنـك أنـه عنين فقد خصيتيه في أدغال كوريا» ! .

اتجهوا ثلاثتهم نحو الباب . وقالت سوزان وهي تضغط على يدي أنها ستتصل بي ، وغمزت بعينها . وقال دهب الأرض وهو ينفث دخان لفافته بعيدا عن وجهي ، أنه يتمنى لو نسافر معا ، وعبر عن ثقته في أننا سنتعارف ، ونفهم بعضنا بشكل أفضل . ثم غمز بعينه أيضا .

أما البلاف ، فقد شد على يدي وكأنه يودعني الى الأبد . . كأنه يريد أن يؤكد عنوة واعتباطا حقيقة لم يعد لها وجود . وحاول أن يخاطبني بتلك الطلاقة المعهودة ، وأن يستعمل الكلمات التي اعتادها بلا تحفظ ولا تكلف ، الا أنه عجز عن النطق بحرف واحد .

كان ممتقعا ، وكنت أحس بلا حقد ، نوعا من الشماتة .

وقد قال أخيرا وهو لا يزال يشد على يدي ، كأني ضيف دبلوماسي يودعه في المطار :

- سعـد . . أريـد أن نسـافـر معـا . . ان هذه الـرحلة المشتركة ، مهمة بالنسبة لنا كثيرا . . انها فرصة لا تعوض ولا تقدر بثمن . . هل تفهمني ؟ .

- أفهمك جيدا .

فوجم لحظة ، ثم عاد يقول :

- أتمنى من كل قلبي أن تبلغني موافقتك . . انك لا تتصور مدى سعادتي اذا وافقت .

كان الشك حول موافقتي واضحا في عينيه . فقلت :

- سنرى غدا .

- غدا ؟ . . سعد . . قل لي . . هل كل شيء على ما يرام ؟

انه يستبق الأحداث ، ويتعجل الأمور كثيرا . . غانم بك أصيل وعريق ، ولا يخطيء مثل هذه الأخطاء الصبيانية . .

قلت وأنا أحاول بصعوبة ، الاحتفاظ بابتسامة مغتصبة :

- لا تكن أبله . . الحق بأصدقائك فهم ينادونك ببوق السيارة .

فاحتقن وجهه ، وأطرق قليلا ، ثم رفع رأسه وحاول أن يقول شيئا ، لكنه عدل ، وانفلت خارجا بسرعة .

بعد أن أغلقت الباب ، تمهلت قليلا . فقد كنت أعاني غصة في حلقي ، وانقباضا في صدري ، وأشعر أن أشياء كثيرة تبدلت جذريا خلال ساعات قليلة . اعترتني الكآبة ، وعالجت لعابي محاولا ابتلاعه دون جدوى ، وفجأة ، سمعت صوت يوسف وصوت نجوى في الداخل . وسرعان ما تبخرت كآبتي ، وتوجهت نحوهما بلهفة صادقة .





الأيام التالية

١٨ ـ مراهنات محسوبة

- سوزان تحبك أكثر مما تتصور ، وهي مستعدة للأقدام على أية خطوة كي تحتفظ بك .

كنت أتبادل الحديث مع نجوى ، بينما العم عبد الغني يتوضأ استعدادا لصلاة العشاء . وقد أجبتها :

- أنا أفهم الموضوع على نحو آخر .

فقالت :

- كل شيء يتوقف عليك ، أما هي ، فستفعل المستحيل .

- تفعل المستحيل ؟

- نعم انها مندفعة وراء قلبها بلا هوادة .

قلت وأنا أحس ألما طفيفا في صدري :

- لا يمكن ، فكل شيء سينتهي في اليوم التالي ، وسيصبح كل منا عبئا على الآخر .

- هذا رأيك وحدك .

- أنا متأكد أن علاقتنا لا يمكن أن تدوم .

تأملتني مليا ، فخيل الي أنها تؤنبني بصمت . ثم قالت :

- أنا أثق بأخلاقك ، وسوزان أيضا تثق بأخلاقك ، وكل شيء يتوقف عليك بالذات .

أطرقت برأسي متقهقرا ، وفتشت عن شيء ، أي شيء أمسكه بيدي . . عن قشة أتشبث بها . وخطر لي أنهما تقابلتا من وراء ظهري . . هل يعقل أن أكون رديئا الى هذه الدرجة ، ومنحطا الى هذا الدرك ؟ . . وأن أتهم بالتغرير والمخاتلة ؟ . . أأكون مذنبا حقا

دون أن أدري ؟ . . وكيف يتـوقف كل شيء علي ، وأكـون مسؤولا وحـدي ؟ . . أليست علاقتنـا متكـافئـة ، أقـامها كل منا بمحض اختياره ، وبملء ارادته ، وبكامل وعيه ، وهو يدرك تمامـا تفـاصيـل ظروف الآخـر ؟ . . اذن ، كيف أكـون مسؤولا وحـدي ؟ . . اما أني فهمت نجوى خطأ ، واما أنها تهذي مثل امرأة حمقاء ، متعصبة لبنات جنسها . فأنا لست شريرا ، من أولئك الذين ينصبون شباكهم ، ويمتصون دماء ضحاياهم ، ثم يلقون بقاياها على قارعة الطريق . أنا لست غامضا ، ولا محتالا ، ولم أعد بشيء لا تصريحا ولا تلميحا ، فقد كنت دائما واضحا كل الوضوح ، وكانت سوزان تقرأ أفكاري على وجهي كأنها تقرأ في كتـاب . . وكـانت سوزان وما زالت تراهن على قلبي ، وتراهن على خوفي . . ولكن ، ما معنى أن تراهن على خوفي ؟ . . أليس معناه أني لم أحسم أمري بعد ، وأني لا أدري على أي حال سأستقـر بعـد ؟ . . فأنـا لم أجـد طريقي . . واذا وجدته ، ولم أجرؤ على ركوبه ، فأيـن سأمـضـي ، ومـن سيطـفـيء نارلوعـتي ، ويمســح سواد شقــائي ، ويخفف حجم عذابي ؟ . . من غير سوزان ؟ . . ومـاذا سيتبقى لي ؟ . . سامحيني يا نجـوى . . أنـا مخلوق بائس ، كثـير الأوهـام ، الا أني طيب حي الضمير ، وأنت أكثر من يعرف ذلك . . وكيف سأحسم أمـري عبر هذا الضبـاب الكثيف ، وسـوزان جزء من هذا الضباب ؟ . . كيف ، وسوزان علتي ودوائي ، ويأسي وأملي ؟! .

كنت على وشك أن أقول شيئا حين دخل العم عبد الغني وهو يجفف ذراعيه ووجهه . وقد قال وكأنه يكمل حديثا سابقا :

– على الرغم من اعتذاركم عن السفر ، فاني أقدر حمية غانم بك ، ولطفه ومنبته الطيب ! .

كنا قد تشاورنا قبلا ، وقررنا الاعتذار عن السفر . ولم يقتنع العم عبد الغني الا بعدم رغبة ابنته ، فرغبتها بالنسبة اليه قرار قاطع لا يحتاج الى تعليل .

أما من جهتي ، فقد كنت اتصور ما سيترتب على الاعتذار من نتائج قريبة وبعيدة ، أبرزها أنه سيكون المسمار قبل الأخير في نعش عملي المشترك مع البلاف . كنت حانقا بعض الشيء ، الا أنني لم أكن أشعـر بالقلق وأنـا أفتش بعـين خيـالي عن مصير ي الغـامض المرتقب ، فقد كانت روح التحدي تحفزني ، والحنق يلهب ظهري بالسياط ، فلا يفسح لي مجالا للتفكير ، ويكرهني بعنف وقوة على ارتقاء مرتفع منيع لا تقود اليه دروب .

* * *

وفيما بعد ، سألتني سوزان وهي تتأبط ذراعي :

- لماذا لم تطلب الي البقاء ؟

قلت :

- ولكني لم أطلب اليك الذهاب .

فأفلتت ذراعي ، وقالت وهي تقرب وجهها من وجهي ، كأنها تستجوبني :

- قل لي بصراحة . . هل كنت ترغب في بقائي ، أم في انصرافي ؟ .

مر بجانبنا وجه مألوف حيانا . فرددت التحية ثم أجبتها :

- هل نسيت كيف أعلنت عن رغبتك في السفر ؟

- وأنت ؟ . . ألم تكن راغبا ؟ .

- لم أكن قد حسمت أمري بعد . . أنت تعرفين أن الموضوع لا يخصني وحدي ، وأنه شائك بعض الشيء .

فابتسمت ابتسامة معاتبة ، وقالت :

- ولكنك تعلم حق العلم أني رغبت بالسفر لأكون بجانبك ، وأنني لا يمكن أن أذهب بدونك ، ولا يعنيني أحد سواك .

صمتت قليلا ، ثم سألتني متخابثة وهي تشد على ذراعي :

- هل غضبت لأني خرجت مع غانم دهب الأرض ؟ . .

أشحت بوجهي دون أن أجيب ، فتابعت :

- لا تخف عني حقيقة مشاعرك ، فأنا أجدها في تعابير وجهك بسهولة .

قلت دون أن أنظر اليها :

- طالما أنك تعرفين ، فلم سؤالك اذن ؟ .

تنهدت بارتياح ، ثم هتفت بمرح :

- لأننا لا بد وأن نتحدث . . لا بد وأن نقول شيئا . . لا يعقل أن يكتفي كل منا بقراءة وجه الآخر . . الانسان يتحدث الى نفسه بصوت مسموع أحيانا ، ويمتحن ذاته بالتجربة في كثير من الأحيان .

حيانا رجل آخر ، فتابعته بنظرها قليلا ، ثم التصقت بي أكثر ، وتمتمت وكأنها تناجي نفسها :

- كم أحب أن أسير وأنا متأبطة ذراعك . . .

سرحت لحظة ، ثم أردفت :

- ولكن أخبرني . . الآن وقد تبخر مشروع السفر . . ألا تحب بيروت ؟

- كيف لا أحبها ؟ . . بيروت صديقة قديمة ، أقمت في ربوعها زمنا لا ينسى . .

كانت سوزان تنصت . وكنت أقارن في تلك اللحظة بين حبي لها ، وحبي لبيروت . . وبين هذا الزمن ، وذلك الزمن . . وأشلاء الرجال تصهر ، وتدفن في المجاري . . والنساء تساق الى اقبية التعذيب لارهاب الموقوفين وارغامهم على الاعتراف . . وصدر بيروت يتلقف كل من أصبح عاجزا عن الوقوف . .

قلت :

- ألم تتأملي بيروت من الجبل أثناء الليل ؟ . . بيدر من الجواهر متوهج بأروع الألوان . . .

كانت سوزان تستمع ونحن نسير الهوينا . وكنت بدوري استمع الى هتافات وهمية صاخبة ، وأقف مبهور الأنفاس ، ورصاص رجال الفرقة ١٦ يلعلع . . وقوافل الشهداء . . وبرج حمود ، وعين الرمانة ، والمزرعة . . والشاحنات الداكنة تمتلىء بالشباب . . ومع ذلك ، فالطمأنينة متوفرة بنسبة كافية ، اذا قسناها بزمن مرعب خلا من أي أثر للطمأنينة . .

- كيف لا أحبها ؟ . . يطربني كلما زرتها أن أقطعها طولا وعرضا ، سيرا على الاقدام . . ثم أنطلق أتفقد كل الأماكن والزوايا الغالية . .

- ولكني سمعتك تتحدث عنها بغير هذه اللهجة .

- أية لهجة تعنين ؟

- على كل حال ، ما يهمني هو أننا نستطيع قضاء وقت طيب لو زرناها معا ، وأخذتني الى أماكنك وزواياك الغالية .

لفظت الكلمات الثلاث الأخيرة وهي تضغط على كفي . وكنت اقول لنفسي أنه لا يوجد فيتنامي واحد ، في الشمال أو في الجنوب الا ويحب سايغون . وأنها تفكر بوقت طيب لا أعرفه ، وبأماكن وزوايا لم أدخلها . . وددت لو أفهمها ذلك . . لو أشرح لها كيف كنا نقضي الوقت ، وماذا كنا نفعل ، وأية رحلات كنا نقوم بها الى دير القمر والى نبع الباروك ،

ومن الـذين كانـوا يشـتركـون بتلك الـرحـلات . . أوصـافهم ، وأقطـارهم . . المغـاربـة والمشارقة . . أبناء وادي النيل ، وأبناء الجزيرة العربية . . وأية أناشيد كنا ننشد ، وعلى أية حدود كنا نعترف . ولكني لم أقل شيئا من كل هذا . . اكتفيت بالصمت .

* * *

كان الطقس قد غدا حارا . وتـذكـرت أننـا في آخـر يوم من أيار ، ولاحظت أن المارة يتحـركـون بأسـرع من المعتـاد ، وأن السيـارات تطلق العنـان لأبواقها دون مبرر ، وتنطلق بسرعة جهنمية .

وسمعت رجلا يقول لصديقه وهما يحثان الخطى :

- أتظن حقا أننا سنزوير يافا هذا الصيف ؟

وكـان الجـواب قهقهـة مجلجلة تمنيت لو أرى وجـه صاحبهـا . . لو أعـرف معنـاهـا بالضبط . . ولكن الزحام غيب الرجلين .

حاولت أن اتبعهـا بنظـري ، ولكن الـدنيـا غامت أمام عيني ، فاضطربت الصور ، وتداخلت الأصوات ، وكدت أغيب عن الوعي .





الأيام التالية

١٩ ـ السقوط الايجابي !

حط غراب قبيح على غصن شجرة هرمة عملاقة ، لا تحمل ثمرا ولا تلقي ظلا ، ونعق بقوة وهو يحرك رأسه الغامق في كافة الاتجاهات . فانتابتني قشعريرة انتصب لهولها شعر رأسي ، واصطكت أسناني وركبتاي ، وحاولت أن أغلق سمعي بكفي ، ولكن النعيق استمر يدوي ، ويصدع دماغي :

قفزت هلعا ، ورحت أركض هنا وهناك باحثا عن مخبأ . . وجدتني عاريا تماما ، ووجوه شيطانية جاحظة العيون ، بارزة الأنياب ، تقهقه من حولي ، وتحاول أن تنشب أظافرها في عنقي ، فعقد الذعر لساني ، وحاولت أن أجد ثيابي ، ولكن الظلام الدامس خيم فجأة . وسمعت أصواتا بعيدة تخبر بوجل عن كسوف الشمس ، واستحالت الرؤية تماما .

صرخت بأعلى صوتي : أريد ثيابي . . أعطوني ثيابي . ولكن نعيق الغراب غطى على صوتي ، واستحال خوفي الى يأس قاتل ، فلجأت الى حوض مليء بماء بارد كالثلج ، وغطست متواريا وأنا أصرخ أعطوني ثيابي . .

وقال رجل له عينين لامعتين كالزجاج :

- سأعود . الحمى . . غدا . . . الحمى !

وطوى بين يديه سوطا أسود ، له رأس ثعبان ، ثم اختفى .

وخاطبني رجل آخر :

- قل رب يسر ، وجرب حظك ! .

وكانت أصابعه الطويلة الرفيعة تخلط ورق اللعب وترتبه ببراعة مدهشة .

قلت :

- لم أقامر طوال حياتي .

فمط شفته السفلى استنكارا وسخرية ، وقال كأنه ينطق بحكمة من حكم النبي سليمان :

- على الانســان أن يتخلى عن اتـزانـه ، وأن يترك نفسـه على سجيتهـا بين وقت وآخر . . قل رب يسر ! .

ومـد يده الي بالـورق ، فتراجـعـت الى مسنـد المقعـد ، وكـررت أني لا أرغب بالمقامرة . فحدجني بنظرة شريرة غاضبة . وسألني .

- اذن بماذا ترغب ؟ . . قل رب يسر ، وحدثنا بماذا ترغب .

وأيد آخرون طلبه ، وراحوا يرددون تباعا بقوة : بماذا ترغب . . بماذا ترغب . . بماذا ترغب .

صرخت وأنا أحمي وجهي بكفي :

- اذن ، في أية لحظة تفكرون بالوطن ؟

فحـاصـروني بنظـرات تنضـح بغضـا ، وقال الرجل وهويضع الورق على الطاولة ، ويحمل فخذ دجاجة مشوية :

- الوطن مثل هذه اللقمة . . قل رب يسر ، وتذوق نكهة الوطن !

قلت متوسلا ، والدموع تكاد تطفر من عيني :

- هل تنوي أكل الوطن ؟

احمـرت عينـاه ، فازدرد لحم الدجاجة بوحشية ، ثم نهض واقفا ، وشد قامته ، ورفع رأسه الى أعلى ، وقال مزمجرا :

- الحياة كأس خمر ، و . . . امرأة ، فقل رب يسر ! .

ردد الرجال الآخرون تباعا بقسوة : رب يسر . . رب يسر . . رب يسر .

وصـدحت على مقـربـة موسيقى صاخبـة ، وتسللت امرأة مكتنزة الجسم عبر دخان أزرق ، وراحت ترقص بهمجيـة ، دون أن تأبـه لتنـافـر حركـاتهـا مع الايقاع ، ثم انقلبت الموسيقى فجأة الى نعيق غراب .

صحت وأنا أرتجف من البرد :

- أسكتوه . . أرموه بحجر . . أقتلوه .

فأجابتني عرافة متلفعة بالسواد من قمة رأسها الى أخمص قدميها :

- لا يمكن . . انه قدرك . . رأيته في الحلم !

هممت أن ألثم يدها فسحبتها بجفاء . قلت متوسلا :

- أسكتيه أرجوك . . ارحميني واضربيه بحجر عله يطير . . أخرجيني من الماء . . الرحمة . . أكاد أختنق . . أريد ثيابي .

فردت بلهجة مرعبة :

- لا حيلة في يدي ، انه الحلم !

حاولت الهرب وأنا أصرخ :

- وكيف أؤمن بأحلامك ، بعد أن قرأت فرويد ؟

قهقهت بصخب مجنون ، وراحت تشتم فرويد واليهود ، ثم تمزق معطفها القاتم الطويل عن جناحين كبيرين أسودين ، انطلقت تصفق بهما وترقص ، وغابت في الدخان الأزرق قليلا ، ثم عادت الي وقد تحولت الى رجل هادىء الملامح ، باسم الوجه ، تقدم مني وفي يده خنجر متألق النصل ، وقال محاولا اقناعي بالتي هي أحسن :

- رأيت في المنام أني أذبحك !

تقهقرت أمامه الى الزاوية ، وقد انسدت أمامي سبل الفرار ، فتجمدت في مكاني مشلولا .

انقض علي ، وطعنني في وركي وهو يبتسم ، وسمعته يقول :

- سأعود . . الحمى . . غدا . . الحمى !

عندما فتحت عيني ، شاهدت الطبيب يعد حقنة ، والعم عبد الغني الى جواره ، ونجوى تقف غير بعيد عنهما .

كان رأسي فارغا ، وأطرافي مخدرة لا أكاد أحس بها . ونور المصباح ينغرس في عيني مثل رأس رمح . وسمعت الطبيب يقول :

- انه الآن بخير ، وسيصحو بعد قليل .

ورأيته يتوجه الي ويربت على كتفي وهو يتحدث ، دون أن أفهم من كلامه شيئا ، ثم يحمل حقيبته وينصرف .

وحين أفقت ثانية ، شعرت بجوع شديد ، وبرغبة قوية في النهوض ، وكانت نجوى الى جانبي تعد ملعقة دواء دون أن تنظر الي ، فاتكأت على ساعدي الواهنين ، وجلست في السرير .

قالت نجوى وهي تسحب الملعقة من فمي :

ـ مضى عليك يوم وليلة ! .

فسألتها عن اليوم الذي نحن فيه ، بعد أن حاولت عبثا جمع شتات ذهني ، فأجابتني أننا في اليوم الأول من حزيران .

ـ وهل سأل عني أحد ؟

– زارك يوسف البارحة ، وقال انه سيعود للاطمئنان عليك . . هناك أيضا رسالة من بيروت . .

– هل هي من البلاف ؟ . . أعطنيها أرجوك . .

فقالت وهي تناولني الرسالة :

– يستحسن أن تتجنب الأنفعال . . نصح الطبيب بذلك ، وقال أن اعصابك متوترة للغاية . .

فضضت الرسالة وأنا أقول في سري : فلأذهب الى جهنم ، اذا كانت اعصابي ستخونني في هذه الأيام .

كان البلاف يتحدث بطريقته «التلغرافية» المعتادة ، التي أتقن حل رموزها . وكنت أمر على السطور دون فضول ، مثل رجل يقرأ في صحف الصباح نص حكم صدر بحقه وجاهيا يوم أمس . . حسنا يا بلاف . . هات ما عندك . . لقد وقعت الواقعة ، وهذا هو اليوم الذي يفر فيه المرء من أبيه . . انني أراك وأنت تنحدر الى القاع ، وأستطيع تصور مشاعرك وأنت تتدحرج منعدم الاحساس . . لحالة انعدام الاحساس أوهامها الساحرة المسكرة . . اسألني أنا ، فقد جربتها في حدود ضيقة ، ولكني ربطت وسطي بحبل . . أقفز ، وسرعان ما يمسكني الحبل ، فأتسلقه . . لم أفرط بنفسي وأسلمها للمنحدر . . أما أنت ، فيبدو أنك قطعت الحبل ، أو أنك لم تفكر به أصلا . . فكيف تشعر الآن يا بلاف ؟ . . أستطيع أن أخمن حالتك ، ولكني أحب أن أسمعها منك . . أن تبرق الي بأخبارك وأنت تهوي . . فهات حدثنا . .

– «ولما كنت صديقك المخلص المحب ، الذي لا يستطيع أن ينساك لحظة واحدة ، فقد قررت أن من واجبي اعلامك على الفور بالتوفيق الذي حالفني في هذه الرحلة . . » . .

صرت أضحك وأنا أتأمل في كلماته ، وأتذكر حكاية الكلب الضال ، الجائع الهزيل ، الذي رفض عرضا سخيا وشهيا من صاحبه السمين ، وفر كأن الوباء يطارده عندما لاحظ في عنق صاحبه اثر القيد . . قد لا أكون أكثر من كلب ضال . . قد لا أكون

«مـوفقـا» . . ولكني ما زلت حرا يا بلاف ، ولن أبيـع حريتي بأي ثمن ، أمـا أنت فقد بعت . . كأنـما تنـازلت عن معـدتـك ورئتيـك ، فكيف ينفعك الطعام وينعشك الهواء بعد اليـوم ؟ . . تخليت عن قلبـك ، ورضيت أن يزرعـوا مكانه قلب كائن ميت ، فكيف تكون مخلصا ومحبا بعد اليوم ؟ . . قد لا أكون أكثر من كلب جائع هزيل ، ولكني لن أؤ جر دماغي لقـاء اللقمـة ، فدمـاغي سيعمـل دائـما لحسـابي ، وسأعرف كيف أنتزع لقمتي ، وأحتفظ بحريتي . . كلاهما معا ، أو الموت . . .

- «أتدري يا سعد ؟ . . صرت مقتنعا أن الحرب ، فيما لو نشبت ، لن تكون أكثر من مسـرحيـة «دراماتيكية» منتجها غريب ، ومخرجها غريب ، وأبطالها غرباء أيضا . أما سكان المنطقة - المسرح ، فيتوزعون فيها بين متفرج مغفل ، وكومبارس تافه . وأنا شخصيا أفضل لعب دور المتفـرج المغفـل ، اذا كان لا بد من اختيـار أحـد الـدورين ، فالجلوس في الصالة أفضـل من الـوقـوف بين «الكـواليس» ولا أظنـك تجرؤ أن تنكر علي ذلك . . ولكني أسارع فأؤ كد لك أني سأكون متفرجا ايجابيا . . » . .

قد تكـون الصـورة كما ذكـرت يا بلاف . ولكني شخصيا سأقاوم . واذا أدخلوني الى الصـالـة عنـوة ، فسأضطـرهم لربطي بالمقعد ، وربما الى تثبيتي بالمسامير . أما اذا أرادوني «كـومبـارس» فان على شرطتهم أن تسـوقني الى الكـواليس مكبـلا بالحديد ، وأن يلازموني لارغـامي على تمثيـل الـدور التـافـه الـذي رسموه لي . وحينئذ ستفسد لعبتهم ، وسيصبح الكـومبـارس العنيد خطرا على المسرحية برمتها . أما أنت . فلك أن تجلس في الصالة بكل أدب ، وأن تصفق وتصفـر كي تكـون متفـرجـا ايجابيا ، فليس من حقي أن أنكر عليك أي شيء يا بلاف . . وبأي حق أتصدى لك أو لسواك ، وأنا لست سوى انسان محموم الجسم والفكـر ، ومحـدود الرؤ ية والمقدرة . أنا لست مسؤ ولا عن أحد ، ولكني مسؤ ول عن نفسي بعجـزهـا وضعفهـا وبؤ سهـا ، وسأحـاول حمايتهـا من الصقيع الذي يحاول جعلها تمثالا . وعندما أحصل على الحرارة اللازمة ، فسأشعل المسرح بمن فيه . .

- « . . . ولكنك يا عزيزي عنيد بلا مبر ر ، وكم تمنيت لو كنت معي هنا ، لتسمع بنفسـك تقـديرات المراقبين الذين يتحدثون برتابة الأجهزة الالكتر ونية ، فلا يأتون على ذكر المنطقـة وسكـانهـا إلا في سياق الحديث . . انهم فقط يرمزون للقوى الأجنبية بأسماء محلية . وهكـذا ، لا يبقى أمـام رجـل مثلك ، ولد قبل أوانه ، الا أحد طريقين . . اما الانتحار ، واما التكيف . ومـاذا نستطيـع ان نفعل سوى تقديم ما يمكننا تقديمه لتمهيد الطريق أمام

الأجيـال القـادمـة ؟ . . لم يحالف الحـظ جيلنـا ، وعلينا أن نعمل ما في وسعنا من أجل حظ ونجاح الجيل القادم . . »

وكيف نستطيـع أن نقـدم مثل هذه الخدمة للاجيال القادمة يا بلاف ؟ . . كيف ؟ . . الـذي يريـد أن يمهـد الطـريق يجب أن يسـير عليه . . أن يسبر الألغام ، ويستطلع المواقع المجهـولـة . . ولـو كنت تفعـل ذلـك ، لما تحدث المراقبون برتابة الأجهزة الالكترونية ، ولما تجاهلوا المنطقة وسكانها ، ولما حددت لي أحد طريقين : الانتحار ، أو التكيف . . التمهيد لأبنائنا ليس كلاما يا بلاف . . .

- « . . . كم يؤلمني أن أخـذت معـرفتـك بالسيـد غانم دهب الأرض ذلـك المنحى المؤسف ، فالـرجـل يقـدرك رغم كل شيء ، ويرغب صادقا أن تربطكما معا حبال المودة . وأؤكد لك أننا نستطيع بمساعدته ، وخلال فترة قصيرة جدا ، تأسيس دار كبرى . . . »

عدت أضحك وأنا أقرأ هذه السطور ، فهذا هو بيت القصيد . . غانم بك يريد أن يشـد بغلين الى العـربـة ، وقـد حصـل على أحـدهما ، ووضـع اللجـام في شدقـه وها هو يستخـدمـه لاغـراء الآخر واصطياده ، ولكن مغرياته لا تزيدني الا عنادا ونفورا ، فالنير أدق تعبيرا من كل الكلمات ، وأشد تأثيرا من كافة الاغراءات . .

* * *

دخلت نجوى ، فصرت أراقبها وقد هالني شحوبها وهزالها . ألقيت بالرسالة جانبا ، ومـددت يدي أتنـاول صحن الحسـاء . وقـد لاحظت القلق الـذي اعـتراني ، فقالت وهي تتهالك على المقعد بهدوء :

- ستحضر سوزان بعد قليل . . قضت نهار البارحة بجانبك وقتا طويلا . .

لم تكن تريـد أن تطلعني على اقـامـة سوزان بجـانبي بقـدر ما كانت تريـد أن تنفي مسؤوليتي عن اعيائها الشديد . وقد واصلت بالفعل توضيح المسألة كما خمنت تماما ، فقالت أنهـا لم تبـذل جهـدا يستحق الـذكـر ، لأنهـا بكل بساطة ، لا تقوى على ذلك بسبب تردي حالتهـا الصحيـة . وكنت قد لاحظت في الاونـة الأخـيرة أن صحتهـا تسـير من سيء الى أسوأ . أما في تلك اللحظة ، فقد رأيتها تجتاز المنطقة القاحلة بين الحياة والموت . .

وبعـد قليـل ، وصلت سوزان . كانت نضـرة متألقة رغم مظاهر القلق التي ارتسمت

على وجهها . وقد اغتبطت منذ سمعت صوتها ، وتمددت في الفراش ، وسحبت الغطاء حتى ذقني ، وأنا أحس تلك المتعة الطفولية التي توفرها عناية الأهل في فترة النقاهة .

عندما دخلت سوزان حجرتي تظاهرت بالنوم ، فقرصت وجنتي ، وقالت بعطف :

- كفاك دلالا ، وكفانا رعبا . . افتح عينيك وتحدث معي . . هل أنت نائم حقا ؟ . .

قلت وأنا لا أزال مغمض العينين :

- نعم ، أنا نائم ، لم أسمعك ، ولا أستطيع محادثتك .

- آه ، أنا آسفة ، اذن سأتركك وأذهب .

فنهضت على الفور. كانت مشرقة الأسارير . وقد لمست جبيني بيدها ، وقالت :

- كيف ترى نفسك الآن ؟ . .

- أرى نفسي أحبك . .

فأسدلت رموشها ، وقالت بتلك النبرة المسحوقة بالضعف الأنثوي :

- انتبه الى أعصابك ، فالانفعال مخالف لتعليمات الطبيب .

- وهل قال لكم طبيبكم أن الحب يتلف الأعصاب ؟

- قال كلاما بهذا المعنى .

- اذن فقد وضعتم روحي بين يدي محتال جاهل ، ولا شك أني تخلصت منه بأعجوبة .

- لا تظلمه ، فقد نصحني كثيرا بالعناية بك .

- اذن فهو الذي خلصني وليست الأعجوبة . . أنا أعتذر له غيابيا .

* * *

عاودني الاعياء ، فخلدت الى السكينة ، وعيناي تتابعانها بصمت وهي تتحرك داخل الحجرة . كانت بهية أنيقة ، كأنها ستغادر توا الى حفل أرستوقراطي . وكانت طوال فترة الصمت التي امتدت قليلا تلاحظ أني أراقبها . وبعد ذلك سألتني متغافلة :

- هل تريد شيئا ؟ . . أن تأكل ، أو تشرب ؟

فأهملت سؤالها ، وقلت بلهجة مشبعة بالمرض :

- انك تكثرين من المساحيق . . ما حاجتك اليها ؟

باغتتها الملاحظة . أما أنا ، فقد صعدت نظري الى رأسها ، وعدت أسألها بفتور :

- ولماذا ترفعين شعرك ، بارتفاع تاج نفرتيتي وأكثر ؟ . . هل أضفت اليه شعرا مستعارا ؟

فبرزت المباغتة أكثر فأكثر على وجهها ، وسألتني بشيء من الذهول :

- أتظن ذلك ؟

رحت أتأمل ملاحظاتي باستغراب . وكانت سوزان قد حلت شعرها الطويل الفاحم ، وتركته ينساب على ظهرها وكتفيها ، ثم سألتني باستياء مصطنع :

- هل تريد أن تتأكد ؟

ومدت يدها الي بخصلة من شعرها ، فلم أحر جوابا ، وفقدت فجأة كل رغبة في الحوار ، أما سوزان ، فقد أردفت وعلى شفتيها ظل ابتسامة :

- ملاحظاتك جديرة بالتأمل ، فأنت تنتبه الى زينتي لاول مرة . . هل عندك ملاحظات أخرى ؟

قلت دون أن يطرأ على لهجتي الفاترة أي تعديل حار :

- أردت أن أقول أنك لست بحاجة لمساعدة الحلاق . .

- أكمل ، وماذا أيضا ؟

- وأنك جميلة بدون مساحيق . . المساحيق تخفي جمالك .

- هذا اطراء عظيم لا استحقه .

- انه الحقيقة .

- ألا يكون هذياناً مرضيا ؟ . . كنت تهذي كثيرا يوم أمس .

- لا تخافي ، فأنا بكامل وعيي .

فقالت وعيناها تشعان حنانا :

- انه رأيك وحدك . . أنت وحدك تراني هكذا .

كانت مغتبطة ووديعة ، وراحت ترمقني بامتنان هرة أليفة تجلس مطمئنة بجانب مدفأة . وبعد دقيقة صمت ، قالت بلهجة تتراوح بين الجد والمداعبة :

- أتدري ؟ . . صرت أحلم كثيرا بأن أعد لك طعامك ، وأنتظر عودتك بفارغ الصبر . .

- وهل تجيدين الطبخ حقا ؟
- ما عليك الا أن تجرب .
- واذا لم أعد في الوقت المحدد للطعام ؟
- أنتظرك حتى المساء متشاغلة بأعمال الابرة ، وبالاستماع الى الموسيقى . .
- وقد لا أحضر في المساء أيضا . . قد أتغيب أيام بلياليها ، فماذا تفعلين ؟
- لن تغيب دون سبب تعلمني به مسبقا ، الا اذا كنت تريد أن تقتلني خوفا .

أصبح حديثها جادا ليس فيه أي أثر للمداعبة ، ونطقت بالكلمات الأخيرة ، وكأنها تعيش فعلا حالة غيابي الطويل المقلق . وتصورت أن فكرة محددة تلح على ذهنها في تلك اللحظة ، فجعلني هذا التصور أعاني احساسا طفيفا بالضيق والتبرم ، وقد لاحظتني على الفور ، فهمست وهي ترفع رأسها وتبتسم بكبرياء :

- انه مجرد حلم جميل ، ولكني أعرف كيف أنتظر حتى يتحول الى حقيقة .





الأيام التالية

٢٠ ـ مصائب مركبة

ماتت نجوى في اليوم الثالث من حزيران . دون مقدمات ، وبلا أية حبكة منطقية ، ومثل فصل ساذج في مسرحية فاشلة . لقد حدثت الوفاة بغتة ، انها بطريقة هادئة ومثيرة في آن واحد .

صحيح انها ازدادت شحوباً وهزالا في الايام الاخيرة . غير أن للموت علائمه ، ولم تظهر عليها اية علامة تنذر بالفراق ، بل على العكس ، كانت نظراتها تشع حياة وحنانا ودفئاً . وكنت انهل من عذوبتها بنهم ، فيسري الدفء في أطرافي الباردة ، وتنتعش روحي المريضة ، ويصخب في جسمي المحموم الواهن هدير العافية .

جاء الطبيب يعودني ، فطلب منه العم عبد الغني فحصها ، ووافقت نجوى مسايرة لأبيها لا أكثر ولا أقل . ولكن الطبيب خرج مقطبا بعد معاينتها ، وطلب نقلها الى المستشفى في الحال .

لم يساورني أي قلق ، واعتقدت أنه يهول الأمر ، وأنه لم يكتشف في حالتها الا ما نعرفه جميعا . وقد أردت مرافقتها ، ولكنها منعتني بالطبع ، باعتباري ما زلت طريح الفراش ، وذهبت كأنها لتتابع اللعبة مع العجوز ، ثم تعود بعد دقائق قليلة .

مكثت هادئا أنتظر عودتها حتى المساء ، ولم يدر بخلدي أنها ذهبت الى الأبد ، وعندما بلغت النبأ هاتفيا ، خيل الى كأن في الأمر دعابة ما ، وانطبع هذا التخيل في ذاكرتي كالوشم .

ان لكل حادث وقعه الخاص ، والطريقة التي يحدث بها تحدد لون الفاجعة ، وحجمها وعمقها . وعندما عاد العم عبد الغني ليأخذ حوائجه وحوائج ابنته ، لم أكن بحاجة لتأكيد النبأ . ووجدت حالته البائسة أشد وقعا في نفسي من موت نجوى . فقد كنت أنظر الى موتها كأنه حدث منذ وقت بعيد ، أو كأنه لم يحدث بعد .

غمغم العجوز وهو يكفكف دموعه بمنديله الكبير الباهت اللون :

- أترى يا ولدي ؟ . . عدت يتيما من جديد . . كتب علي أن أعيش آخر أيامي مقطوعا من شجرة .

لم أجد أية كلمة أواسيه بها ، فقد خنقتني العبرة ، وتلاشت من رأسي كل الكلمات . ومن حسن حظي أنه لم يكن راغبا في الحديث . وبعد انصرافه قضيت ليلة بالغة الكآبة . ولم تبارح صورته المحزنة خيالي أبدا . كانت الهاجس الذي أقض مضجعي يومئذ ، فقد رأيت أن الأحياء هم الذين يستحقون الشفقة والرثاء .

* * *

وفي اليوم الخامس من حزيران ، نشبت الحرب . ولم أقو على مغادرة البيت ، فجلست أتابع الأحداث بالمذياع .

استمعت في الساعة الثانية عشرة ظهرا لبلاغ عسكري تركني نهبا للأفكار السوداء . . كان البلاغ طويلا ، وقد راح يتحدث عن عمليات العدو العسكرية الشاملة في مجمل الجبهة الغربية ، دون أن يذكر نتائج تلك العمليات الكبيرة ، ودون أن يشير أية اشارة الى دور قواتنا بالمقابل :

«في الساعة التاسعة من صباح اليوم بدأ العدو الاسرائيلي هجوما بريا وجويا واسع النطاق على الجمهورية العربية المتحدة . . في هذا اليوم قامت الطائرات الاسرائيلية بغارات على عدد من المطارات العسكرية في منطقة سيناء ومنطقة القناة وعلى احدى القواعد الجوية بالقرب من القاهرة . . في البر شنت القوات الاسرائيلية هجمات متعددة على كل الجهات . . هناك الآن هجمات على طول الجبهة والحدود الغربية . . هجوم جوي على شرم الشيخ . . اسرائيل بدأت بعدوان شامل في كل الميادين . . الحقيقة واضحة . . الجمهورية العربية المتحدة وهي تقف اليوم لرد العدوان ودحره تفيد انها تقوم بالواجب . . »

كررت في ذهني كلمات البيان الرصين المتواضع ، فوجدته غامضا وخطيرا . . ماذا حدث يا ترى ؟ . . اما أن تكون وراء هذا البيان عقلية قيادية عظيمة تمهد لعملية ايجابية مذهلة . . واما أن يكون كل شيء قد انتهى ، وخسرنا الحرب . . هذا الكلام يصلح مقدمة للنصر . . ويصلح خاتمة للهزيمة .

ولكني كنت أميـل للاستنتـاج الأول ، بحكم الأوهـام الشـرقيـة التي تقيم متكتمة في أعمق أعـماقي ، ولأني أؤمن بالمعجـزات ايـمانا غامضاً ، وان كنت أسخر منها علنا ، وأجيد تفنيدها ببراعة !

اسـترسلت في التقـاط البيـانات العسكرية العربية من هنا وهناك . فاستوقفني العدد الضخم من الطائرات التي يملكها العدو . وبعد ان أحصيت ما أسقطناه منها ، وجدت أن هذه الأعداد الكبيرة جدا من طائرات العدو المحترقة ، تقود الى احدى نتيجتين : فاما أن يكـون السـلاح الجوي التابع لحلف الأطلسي قد دخل المعركة الى جانب اسرائيل . . واما أننا نحصي طائراتنا المحترقة ، ونضيفها الى خسائر العدو ، نتيجة خطأ سببته زحمة الأحداث .

ولأنني أؤمن أن اسـرائيـل قاعـدة للامبريالية ، فقد كنت أميل الى الاستنتاج الأول غير أنني قدرت على الفـور أن السـلاح الجـوي التـابـع لحلف وارسـو ، لا بد وأن يكون قد تدخل الى جانب العرب ، لابقاء المعركة متكافئة ، وفي حجمها الطبيعي نسبيا .

اسـترجعت في مخيلتي صور أرتـال الدبابات ، التي تمركزت في شمال سيناء قبل أيام ، وتصورتها تهدر مندفعة في عمق الأرض المحتلة . ثم حاولت، وقد غمرتني موجة طاغية من الحـماسـة ، أن أحـدد نقطـة التقـاء الـدبـابـات الشقيقات ، القادمات من الشمال والشرق والجنـوب . بعـد أن دققت في خارطـة فلسطـين قليـلا ، رسمت بالقلم دائـرة حول مدينـة الناصرة . . يا الهي . . أيعقل أن يكون تقديري صحيحا ؟

عدت أسترجع تركيب الدبابة العربية المصنوعة في الاتحاد السوفييتي . . كم هي متينة وجميلة ورشيقة أيضا . . ارتفاعها المنخفض . . هيكلها السميك المنيع . . مرونتها . . كم هي عمليـة وفعـالـة ، ورائعـة . وتخيلت نفسي على متنهـا أتقـدم ضمن الأرتال الزاحفة ، فشعـرت نحـوهـا بحنين لا يوصف ، وبحب يبلغ درجة العشق . هذه المشاعر التي يفهمها العسكريون جيدا .

ولكن سرعـان ما غرقت في الأسى حتى أذني ، وتـذكـرت أني لست سوى انسان غير مسؤول ، محموم الجسم والفكر .

* * *

في أي يوم نحن ؟ . . لا أحد يدري . . أنا على الأقل لا أدري ، فقد تساوى الليل والنهار ، وفقد الزمن قيمته ومعناه ، وخيم ظلام الأحداث على ظلام الليل .

ازدادت روحي المريضة قتامة ومرضا . وكنت أرى أشباحا لا يحصى عددها تهيم في شوارع دمشق مهرولة في كافة الاتجاهات ، وفكرت أن قلة قليلة منهم تعرف مهمتها ، وان كانت لا تعرف هدفها . أما الأكثرية الساحقة ، فتراكض بلا مهمة ولا هدف ! . ولكنك لو استوقفت أحد هؤلاء الراكضين الضائعين ، وسألته : الى أين ؟ فسيجيبك حتما ، وبمنتهى الحزم والاستنكار : انها الحرب . . ألا ترى أنها الحرب ؟! .

وأنا الى حد كبير واحد من هؤلاء الضائعين . . الحرب قائمة على قدم وساق ، ويجب أن أساهم بها . . بالنزول الى الشوارع . . بالركض في كافة الاتجاهات . . بالصراخ والانفعال . . بأضعف الايمان . . وهل يعقل أن أبقى قابعا في البيت ، بينما الحرب قائمة ؟! .

- في أي يوم نحن يا يوسف ؟

- التاسع من حزيران .

قلت وأنا أتلمس طريقي في الظلام مستندا الى ذراعه :

- توقف القتال في الجبهات الأخرى .

- واتجه العدو المعربد بكل نشوته ولؤمه الى دمشق .

- انتبه يا يوسف . . أترى هذا الظلام الدامس ؟

فقال يوسف :

- أصبحت استقالة عبد الناصر شغل العالم الشاغل ، من أقصاه الى أقصاه . . كل الاذاعات . . كل المسؤولين . . كل المواطنين . . كل شيء يتحدث عن استقالته فقط .

- يوسف . . أنظر . . ماذا هناك ؟ . . هل هورجل ، أم هي شجرة ؟ . انها شجرة . . يا لشدة الظلام يا يوسف .

- والعدو يستعد للانقضاض على دمشق وافتراسها ، بعد أن افترس شقيقاتها . .

- أنظر يا يوسف الى الخفافيش . . تزداد متعة الخفافيش كلما ازداد الظلام .

صاح بنبرة غاضبة :

- ولا أحد يأبه لدمشق . . ولكن لن تسقط الجبهة السورية . . انها حصينة مثل خط ماجينو .

وحدثت نفسي بصوت مسموع :

- نجوى الآن في القبر يكتنفها مثل هذا الظلام .

فقال يوسف بقلق واضح :

- ولكن خط ماجينو سقط أمام القوات النازية . . اجتاحوا فرنسا واحتلوا باريس ، خلال تسعة أيام فقط .

- الحقيقة يا يوسف أني لم أشاهد طوال حياتي مثل هذا الظلام الدامس .

عاد يوسف يصرخ بحدة :

- ولكن لماذا استقال اليوم ؟ أما كان بالامكان تأجيل هذه الاستقالة ريثما ينجلي الموقف في الجبهة السورية ؟!

- في القبر ، أو في بطن أمه ، يعيش الانسان في مثل هذا الظلام .

اعترض يوسف طريقي ، فأوقفني وهو يقول :

- أتريد حقيقة مشاعري ؟ أنا متشائم . . أشعر أني وحيد ، وأن العالم كله منصرف عنا . . تركونا نواجه مصيرنا . . أداروا جميعهم ظهورهم لنا ! .

- اما أن يكون ميتا ، واما أن يكون في طريقه الى الحياة والنور .

فسألني ونحن نتابع السير :

- من هو ؟

- الذي يعيش في مثل هذا الظلام يا يوسف .

* * *

«بلاغ رقم ٦٦ . . قتال عنيف منذ الصباح الباكر في منطقة القنيطرة ضمن شروط غير متكافئة . . حيث طيران العدو يغطي سماء المعركة بامكانيات لا تملكها الا دولة كبرى . كما أن عدد الدبابات المهاجمة كان كبيرا . . ولكن جنودنا استبسلوا في القتال . . الا أن العدو استولى على مدينة القنيطرة . . رغم صمود جنودنا البواسل . . هذا وما يزال جيشكم أيها المواطنون يخوض معركة قاسية للدفاع عن كل شبر من أرض الوطن . . كما أن أنساق الجيش التي لم تشترك في القتال قد أخذت مراكزها . . واستعدت لخوض حرب لا رحمة فيها ولا هوادة . . والنصر لنا ولشعبنا العربي البطل» .

قال يوسف بحنق شديد :

- عندي لك أخبار مقبضة .

قلت وأنا أضحك بتهكم :

- لم يعد في الصدر متسع لمزيد من الانقباض . . هات ما عندك من اخبار .

- صاحبك ! . .

- صاحبي ؟ . . من هو صاحبي هذا ؟ . . لم اعد أذكر أن لي أصحاباً .

- البلاف ! . .

- وما حكاية البلاف ؟ . . هل مات ؟ . . أنا أعرف أن أمثاله لا يموتون .

- انه منصرف بكليته لشراء العقارات . . بيوت ، ومحلات تجارية . . أنت تعلم أن أسعار العقارات هبطت هبوطا خياليا ، وقد اغتنمها فرصة .

قلت وأنا أضحك بعصبية :

- ليس هذا غريبا ، فقد كتب لي منذ مدة عن التوفيق الذي حالفه .

- أظنني أعرف مثلك، الشخص الذي يقف وراءه ويموله .

قلت ساخرا :

- هذا رجل يقوم بعمل ما على أية حال . . طوال عمره وهو يعرف من أين تؤكل الكتف ، وكيف يفرق بين القضايا العامة والخبز اليومي .

«بلاغ رقم ٦٧ . . ما زالت قواتنا حتى الآن تقاتل داخل مدينة القنيطرة وعلى مشارفها جنبا الى جنب مع قوات الجيش الشعبي بكل ضراوة وصمود . . بحيث لم تمكن العدو من السيطرة الكاملة على مدينة القنيطرة . . وقد دمرت أعداد كبيرة من دبابات العدو بالقنابل المحرقة . . اننا نوجه تحيات ابناء شعبنا العربي الى الأبطال الصامدين هناك . . الى الأبطال الذين يزودون عن شرف العروبة ومقدساتها . ».

قال يوسف بأسى :

- الناس لا يصدقون . . ما زالوا يتطلعون خارج الحدود ، وينتظرون معجزة ! .

قلت :

- اذن اسمع . . أقسم بشرفي أني مثلهم لم أصدق . . وما زلت أنتظر المعجزة ، بكل ما في باطني من ايمان شرقي لا يعترف بالأرقام . . ما زلت أعتقد أن هناك سرا مفرحا على الطريق .

فأمسك بيدي وسألني قلقا :

- هل أنت بخير ؟ . . انك ترتعش ، فهل أنت بخير ؟ .

قلت بوهن :

- من الأفضل أن أتمدد في فراشي . . لا . . لست منهكا الى هذه الدرجة . . أستطيع أن أعتمد على نفسي في النهوض .

ولكنني استندت الى ذراع يوسف ، بعد أن عجزت عن النهوض بمفردي .

* * *

«ان أحداً لا يستطيع . . ولا يقدر أن يتصور مشاعري في هذه الظروف . . ازاء الموقف المذهل الذي اتخذته جماهير شعبنا . . وشعوب الأمة العربية العظيمة كلها . . باصرارها على رفض قراري بالتنحي منذ أعلنته . وحتى الآن لا أعرف كيف أفي بذلك . . وكيف أعبر عن عرفاني . . أيها الأخوة المواطنون في كل مكان . . يديكم معي . . ولنبدأ مهمتنا العادلة . . وليمنحنا الله جميعا تأييده وهداه» .

- اذن فقد ذهبت القنيطرة .

فقال يوسف وهو يدثرني بغطاء سميك :

- استرح أرجوك . . يا لحسن الحظ . . وصلت الآنسة سوزان في الوقت المناسب .

تمتمت وأنا غارق في تأملاتي المشوشة :

- عاد عبد الناصر عن استقالته . . ماتت نجوى منذ سبعة أيام . .

قال يوسف :

- انها تعد لك الدواء . . لحظة واحدة فقط .

- . . والبلاف يتاجر بالعقارات . . عميل تجاري عند دهب الأرض . .

قالت سوزان :

- افتح فمك .

- . . العدو على بعد ٤٠ كيلومترا من دمشق . .

- عظيم ، والآن أشرب قليلا من الماء .

- هل خفف موت نجوى مصابي بالوطن ؟! .

- والآن عليك أن تخلد الى السكينة .

- . . أم خفف مصاب الوطن علي موت نجوى ؟ . .

- سأستدعي الطبيب .

- . . ليمنحنــا الله جميعــا تأييـده وهـداه . . يديكم في يدي . . يديكم معي . . يوسف . . أيها الأخوة المواطنون . . نجوى . .



٢١ ـ أحاسيس غامضة

انتهيت من قراءة مقال الدكتور نبيل صادق ، فطويت الصحيفة ووضعتها جانبا وأنا أحدث نفسي أنه قد أصبحت لغانم دهب الأرض منظمته السياسية المسلحة ، وأنه سيكون كعادته سباقا في مضمار رعاية حركة المقاومة ، مثلما كان سباقا دائما في كافة المجالات الوطنية الأخرى ! .

ولكي أكون منصفا أقول أن المقال لم يكن جيدا فحسب ، وانما كان رائعا . فهو يتجاوز الشعارات العريضة ، ليعبر بدقة عن تطلعات الأمة المهزومة ، ويتمثل باستيعاب مثير خلجاتها وتوجهاتها القريبة والبعيدة .

ولكن نزوعي الطيب والقوي الى الانصاف ، لا ينفي صفاتي الرديئة الأخرى . فأنا انسان ريـاب ، كثير الظنون والأوهام . واذا كانت ظنوني تصيب في بعض الأحيان الا أنها كثيرا ما تخطىء ، وتحيل حياتي الى جحيم لا يطاق .

لقد أثار مقال الدكتور صادق اعجابي الشديد ، وأعترف أنني أؤيد بلا تحفظ كل كلمة وردت فيه . لكن المسألة بالنسبة لرجل مريض مثلي ليست على هذا القدر من البساطة . فقد أثار المقال مخاوفي وارتيابي أيضا . . لماذا ؟ . . لأني أعرف أن غانم دهب الأرض يقف وراءه ، وهذا وحده كفيل بدب الذعر في نفسي . ولكن صفة الانصاف التي أتحلى بها تجعلني لا أكتفي بهذا السبب ، ولا يهدأ لي بال حتى أقع على تفسير منطقي لما أقرأ . . وهكذا مضيت أفتش عن التفسير بلا هوادة . . الموجة القوية الكاسحة . . والتي نراها جميعا مقبلة ، هي موجة المقاومة المسلحة . . هذه حقيقة لا جدال فيها ، ولا ينفع معها الانكار والتجاهل ، أما معاداتها فعمل جنوني حقيقي يكلف صاحبه غاليا ، ان لم يكلفه وجوده برمته . . اذن ما العمل ؟ . . فيردد غانم دهب الأرض مثل الصدى : ما العمل ؟ . أجهزة الرصد الاجتماعي ، والاستطلاع النفسي تقول أن الموجة القادمة قوية

وكاسحة وعامة ، لا ينفع معها العداء ، ولا يوقفها التصدي الأرعن . . فما العمل ؟ . . فيردد دهب الأرض مثل الصدى سؤ ال الأجهزة الجهنمية : حقا ما العمل ؟ . الموجة قادمة لا ريب فيها . . . نراها في الأفق . . كيف يواجهون الأمواج في المرفأ ! . . عظيم ، وما معنى هذا ؟ . . فيتلقى غانم دهب الأرض جوابا قاسيا : يا غبي ، ألا تدرك معنى هذا ؟! . . جهز نفسك . . ستكون احدى كاسرات الأمواج ! . . وكيف أفعل ؟ . . كيف تفعل ؟ . . طالما أن قدوم الموجة حتمي لا دافع له ، ولا مفر منه ، فان عليك استقبالها ، وتبنيها ، واكرامها ، ودعمها . . هل فهمت ؟ . . ليس تماما ؟ . . الموجة المندفعة ، المجنونة ، العمياء ، يمكن التلاعب بعقلها بشيء من الحكمة . . بل ويمكن قيادتها . . هل فهمت الآن ؟ . . فيهتف غانم دهب الأرض : نعم ، فهمت جيدا . . عاشت المقاومة . . عاشت المقاومة . . كلنا فدائيون . . كلنا فدائيون بلا استثناء ! . ثم يتحول الى صهره الدكتور نبيل صادق ، ويملي عليه تعليماته بالتفصيل ! .

* * *

كنت ألهث وراء أفكاري السوداء المريضة ، حين قرع الباب ، ففتحته ، ودخلت سوزان . كانت شاحبة ، ولاحظت أنها تتظاهر بالمرح . ولفت نظري بشكل خاص عدم اهتمامها بزينتها ، واهمالها لهندامها .

قلت وأنا أجلس بجانبها :

- رحل آخر سرب من أسراب السنونو على ما يبدو .

فقالت وعلى شفتيها ابتسامة حزينة :

- نعم ، الشتاء على الابواب .

ثم تأملتني قليلا ، وقالت بانشراح ظاهري :

- صحتك جيدة والحمد لله . . من يصدق أنك أشرفت على الموت قبل بضعة أشهر ؟ .

قلت وأنا أرفع يديها ، وأقبل أناملها :

- سأترك البيت غدا ، وأرحل .

فغمغمت :

- أعرف . . لماذا تكرر شيئا أعرفه ؟ .

وأوشكت على البكـاء ، فضممتهـا ، ورحت أربت على ظهـرهـا مهـدئـا ، الا أن دمـوعهـا تفجـرت بسخـاء لا عهـد لي به . ولم أجـد ما أفعله سوى شدهـا الى صدري أكثر فأكثر . فصرخت بصوت مكتوم :

- لماذا تضمني بهذه الطريقة الغريبة ؟ . . أشعر كأنك تودعني الى الأبد ؟

فأشحت بوجهي ، وقلت وأنا أحاول تمالك نفسي :

- سوزان . . هل تعتقدين أني أسأت اليك ؟ . . أنا أشعر بالذنب شعورا غامضا ، فهل أذنبت بحقك ؟

قالت بمرارة :

- نعم .

- سوزان ؟!

- وتكررها مرة ثانية ؟ . . لم أعد سوسن اذن ؟

- سوسن .

- كلا ، تريد أن تستعيد حتى الاسم الذي أعطيتني اياه .

- ولكن ، اسمعيني . .

- لا أريد أن أسمع شيئا . . يا لقسوة قلبك .

اعتذرت اعتذارا أسوأ من الذنب ، فقد زل لساني وقلت :

- حسبتك ترغبين باسترداد اسمك . .

- اطمئن كلامك صحيح ، أنا أرغب في ذلك .

- . . الحقيقة ، انه ذلك الاحساس الغامض بالذنب ، يجعلني أحيانا لا أعرف ما أقول . . هل سببت لك آلاما كثيرة ؟

ورحت أمسح بيدي على رأسها مواسيا ، فانخرطت في البكاء من جديد ، وقالت :

- أنت في غايـة القسـوة . . أنت تعذبني الآن بهذه الكلمات . . أخبرني . . هل هو الوداع الأخير ؟

انفطر قلبي من التأثر والألم ، ولكني سيطرت على انفعالاتي ، فقد صممت نهائيا أن أحررها وأحرر نفسي ، مهما كلفها ذلك وكلفني من ألم . قلت :

- أجمل أيام عمري قضيتها برفقتك . . أشعر أني مدين لك بالكثير . .

- لست مدينا لي بشيء . . ما قلته يخالف مبادئك .

- حسنـا ، سأبقى أحبـك ما حييت ، ولكني لست الـرجل الذي يسعدك . . أرجو أنك تفهمينني ؟ . .

- أفهمـك يا شهـريار . . الفرحة طير جميل . . متوحش خرافي . . يحط دون سابق انذار ، وبلا دعوة . .

- أحسنت يا شهرزاد . . ويلوذ بالفرار بغتة ، دون أن ندرك السبب الذي افزعه .

- واذا استطعنا أن نمسك به . .

- ينتحر في الحال . .

- ويتحول الى رماد . .

صمتت لحظة ، ثم قالت :

- كلماتك هذه لا تزال مكتوبة معي .

- أعرف ، وقد سمعتها منك عدة مرات فحفظتها . . ما رأيك بها .

- انها جميلة ، ولكنها ليست صحيحة . . أنت أناني . . قررت منذ البداية أن تجعلها صحيحة .

قلت وأنا أضمها من جديد :

- أنا لا أبخل بشيء في سبيل سعادتك . . أنت تعرفين ذلك . . وتعرفين أن رغبتي بسعـادتـك هي عقـدة المـوقف . . والآن . . أريـدك أن تبتسمي . . وأريد أن أسمع عنك أخبارا مفرحة . وحلوة مثلك . .



٢٢ ـ محاولة كبيرة للنهوض

كان الهـواء باردا ومشبعـا بالـرطـوبـة ، والسـماء ملبـدة بغيوم كثيفة داكنة ، حجبت الكواكب وجعلت الليل أكثر وحشة وبهيمية . ولم أكن اری بوضوح سطح الأرض التي أسير عليها ، الا أني كنت أحس لليونتها وقعا عذبا في نفسي .

أمامنا غربا ، على الكتف الآخر من وادي اليرموك ، كانت تشع انوار باهتة من قرية «كفـرلـا» المحتلة . وفي الجنـوب الغـربي ، كانت قريـة «جبين» المحتلة تتلألأ بأنوار بيضاء جعلتهـا قطعـة من نهار مشمس . أمـا القـرى التي تقع ضمن خط الصديق الأمامي ، فقد غيبهـا الظـلام تمامـا . وكنـا نعلم أن القرى المضاءة في الأرض المحتلة خالية من السكان ، وأنهـا لم تعـد أكثـر من مخافـر أمـامية للحراسة بعد أن هجرها الفلاحون العرب . أما القرى الاخـرى فقـد كانت آهلة بالسكـان الـذين يتطلعـون الى أراضيهم المغتصبـة عبر الـوادي السحيق . وفي اقصى الجنوب الغربي ، كان ممكنا ، وبمساعد الظلمة الشديدة ، ملاحظة أنوار القرى الأردنية وهي تشع بحذر وترقب .

سمعنا الدليل يهمس بحدة :

- لا أحد يتحرك ! .

فتجمـدنـا في أمـاكننا ، وحبسنا أنفاسنا . . لقد كنا على مقربة من خط وقف اطلاق النـار . . دققت في ساعتي مستعينـا بأرقـامهـا المضيئة ، فوجدتها قد جاوزت الثانية بقليل . وبعد لحظة صمت بالغة الثقل ، سمعنا الدليل يهتف بنا من جديد ، وبنبرة أكثر حدة :

- انتشار !

وسـرعـان ما توائبنـا في كافة الاتجاهات مثل شظايا قنبلة عديمة الصوت ، وكمن كل واحد في المكان الذي وجده ملائما .

على مقربة مني تمدد رفيق على ظهره وخاطبني هامسا :

- ربما تطول هذا الحكاية . . أيقظني عندما تنتهي أرجوك .

وقد خيل الي أنه غط فعلا في نوم عميق ! . أما أنا فقد اتكأت على مرفقي ، ورحت أفكر أني ربما قطعت حتى الآن شوطا هاما على طريق الخلاص . . الخلاص الشخصي ، عبر الخلاص الجماعي . . فلا خلاص شخصي ، بدون خلاص جماعي . . والنهر عندما ينخفض منسوب مياهه ، ويتوقف عن الجريان ، تطفو فوق مياهه الضحلة أنواع القاذورات وجيف الحيوانات المنتنة . . ثم يفور النبع ، وتتدفق المياه فتتلاشى كافة الشوائب والروائح الكريهة في مثل لمح البصر . . المعركة نهر متدفق لا مكان فيه للشوائب ولا مجال فيه للأوهام .

لاحظت بعد وقت ليس بقصير ، أن حدة الظلام قد انكسرت قليلا ، وأصبح بامكاني رؤية أشباح من مجموعتنا تقوم بعملية التنصت بواسطة الأرض .

اقترب أحدهم مني ، وجلس القرفصاء ، ووضع سلاحه على ركبتيه ، واتكأ عليه ، وبعد أن دقق في كافة الاتجاهات ، قال بصوت منخفض :

- يخشى الدليل أننا نسير في اتجاه غير صحيح .

فوافقته هامسا :

- يبدو أن الأمر كذلك .

عاد النداء يدعونا لمتابعة السير ، فحملنا أمتعتنا وعتادنا ، وسرنا رتلا أحاديا .

وحوالي الساعة الرابعة صباحا ، وضعنا أحمالنا خلف تلة صغيرة في أول المنحدر مباشرة . فوزعت المهمات على الفور بين الحراسة والكمين ، والنوم أيضا ، فالنوم في مثل تلك الأحوال نوع من المهمات الضرورية . أما البقية ، فقد انصرفوا بحيوية وصمت الى نصب مدافع الهاون في الحفر الملائمة .

* * *

قال شاب في مقتبل العمر ، وهو يحكم تغطية رأسه بكوفيته :

- اشتدت البرودة مع اقتراب الصباح .

وراح يفرك كفيه ببعضهما ، ثم أردف وهو يتطلع باتجاه الوادي :

- ألا ترون أن رفاقنا تأخروا ؟

أجاب رجل كث الشاربين ، دون أن يرفع نظره عن الأرض :

-لا تكن لجوجـا . . ستسمـع القصف خلال نصف السـاعـة القـادمـة . . انهم الآن يتر بصون بالعدو وجها لوجه .

فعاد الشاب يقول :

- الانتظار هنا أكثر صعوبة من الاشتباك مواجهة مع العدو ، ومع ذلك ، فالاشتباك أكثر أهمية .

قال الرجل ذو الشاربين بلهجة تنم عن شيء من التأنيب :

- بعد قليل ستر ى أن دورك هنا لا يقل أهمية عن الاشتباك مواجهة . . ستكون حياة رفاقك المقاتلين وقفا على حسن تسديدك ، ومقدرتك في تغطية انسحابهم . .

أجاب الشاب وهو يردد نظره بين محدثه وبين الوادي :

- ومع ذلك ، فان أيا كان يستطيع أن يقوم بمهمتنا هذه ، فليس فيها خطر حقيقي .

فرد الرجل بنفاذ صبر :

- أنت الآن تراها هكذا . . في هذا المكان تراها ليست خطيرة . .

صمت لحظة ، وتطلع خلفه باتجاه خطوط القوات النظامية الصديقة ، ثم أردف :

- لو حضـرت معـركـة «السموع» لكان لك رأي آخر . . مهمة تغطية الانسحاب في بعض المناطق ، أشد خطرا بكثير من الصدام مع العدو وجها لوجه . . وأذكر أننا في أكثر من مرة كنا نقوم بتغطية انسحاب رفاقنا ، ونقاتل لحماية ظهورنا في الوقت نفسه . . .

فقاطعه الشاب بأدب :

- كان ذلك قبل حرب حزيران طبعا . .

قال الرجل الذي يحمل كل ملامح المقاتل القديم :

- نعم ، كان ذلك قبل الحرب ، وعلى غير هذه الأرض . .

عاد يتطلع خلفه من جديد ، وأضاف :

- هنا ستخف القوات النظامية لنجدتنا اذا احتجنا الى مساعدتها .

فومضت عينا الشاب وهو يقول :

- اذن ، فكلامي صحيح . . مهمتنا أيسر من مهمة رفاقنا .

رد الرجل وهو يتطلع عبر الوادي :

- موقعـة واحـدة لا تشكـل مقيـاسـا . . أنت اليـوم هنا ، على هذا الشكل . . أما غدا ، فلا تدري أين تكون ، وكيف . .

* * *

في تلك اللحظة ، دوت عدة انفجارات ضخمة ، تلاها على الفور صوت اطلاق الرشاشات الثقيلة ، وأضاء الجانب الآخر من الوادي بشكل خاص ، بأنوار القنابل المشعة ، التي راحت تنفجر تباعا في الجو ، وتحيل آخر الليل الى ظهيرة مشرقة .

قال الرجل الكث الشاربين مخاطبا الشاب بمودة :

- هيا الآن الى مدفعك ، فستبدأ بعد قليل عملية الانسحاب .

قفز الشاب الى مدفعه بجزل ، وقال بعد أن استقر خلفه :

- ستشتعل الجبهة بأكملها ، من «بيت تيما» في أقصى الشمال ، الى «عابدين» في أقصى الجنوب .

فقال الرجل برزانة :

- يستحسن أن تصرف كل اهتمامك الى منطقتك فحسب . .

تابع بعد قليل ، وهو يراقب الوادي :

- أطلق رفاقنا ثلاثة قنابل مضادة للدبابات . . هل سمعتم أصواتها ؟ .

ودون أن ينتظر جوابا من أحد ، أردف :

- أرجو أن تكون قد أصابت أهدافها .

قال الشاب :

- أرجو أن يعود رفاقنا سالمين . .

ألقى نظرة على الكتف الأخر للوادي ، وهتف :

- أنظروا . . الاسرائيليون ينحدرون الى الوادي ركضا . . ولكني لا أرى أثرا لرفاقنا . . أنظروا هناك . . سيارة مصفحة قادمة من تلك الجهة . . ودبابتان من تلك الجهة . .

قال الرجل :

- فلنلقم مدافعنا . . لا بد أن رفاقنا في قعر الوادي الآن . .

بدأت مدفعيتنا بقذف قنابلها الى الكتف المحتل من الوادي ، ولم تصب أيا من آليات العدو وجنوده الذين كانوا في تلك اللحظة أمامنا نشاهدهم بالعين المجردة ، لكنها أربكتهم وأوقفت اندفاعهم نحو الوادي ، وقد كان ارتباكهم واضحا تماما . وسقطت احدى قنابلنا في مدرسة قرية «كفر لما» المحتلة ، فدمرت قسما كبيرا منها . فصاح أحد المقاتلين وهو يوالي قذف قنابله :

- شددوا الرمي . . أصبنا المدرسة التي يستعملها العدو مقرا لجنوده . .
أما أنا ، فقد شعرت بالأسى - وقد أكون مخطئا - وأنا أتصور الأطفال الفقراء الذين بنينا هذه المدرسة من أجلهم .

في ضحى ذلـك اليـوم ، وصل أول عنصر من المجموعة المقاتلة . وقد رأيناه من بعيد وهو يتسلق قمة المنحدر عبر الأخاديد ، قادما نحونا . فلما انضم الينا ، انهالت عليه الاسئلة من الجميع ، فقال وهو يتهالك الى جانب أحد المدافع مبهور الأنفاس :

- نجحت العمليـة . . دمـرنا سيارة مصفحة للعدو . . جرح أحد رفاقنا ، فحملناه معنا . . سيصل الجميع سالمين بعد قليل . .

أشرقت أسارير الجميع ، بينما سأل أحدهم :

- هل اصابته خطيرة ؟

- كلا اجازة اسبوع رائعة في أسوأ الحالات .

فضحك الجميع بمرح ، بينما المقاتل المسؤول عن الاسعاف يعبث في حقيبته الكبيرة .

* * *

على بعد مئات الأمتار خلف الموقع الذي تمركزنا به ، نصب أحد القرويين النازحين خيمتـه ، وأقـام فيهـا مع اسرته وحيواناته التي لا يتجاوز عددها أصابع اليدين . وقد بدأت هذه الخيمـة تشـد اليهـا أنظـار الرجال منذ بزغت أولى خيوط الصباح . . لقد كان كل منهم بحاجة الى كوب من الشاي الساخن .

اقترب الشاب مني ، وقال بحذر ومودة :

- أنا أعرف يوسف حماد . . اننا من حي واحد ، وقد أخبرني أننا سنقاتل معك قريبا .

رحبت به ، ودعوته للجلوس ، فلبى دعوتي بسرور ، ثم سألني :

- هل أعجبتك العملية ؟

- أعجبتني . . هل اشتركت في كثير من العمليات ؟

- هذه هي العملية السادسة ، ولكني أريد أن ادخل مع المقاتلين .

- ستدخل بالتأكيد . . من أي بلد أنت ؟

أجاب وهو ينظر باتجاه المدرسة المدمرة :

- اسمي مرسل . . مرسل أبو نواف . . يمكنك أن تدعوني أبا نواف . . أنا من قرية صغيرة في محافظة القنيطرة ، قريبة من قرية «مجدل شمس» . وقد نزحنا الى دمشق ونقيم الآن في حي الزهور .

- وما أخبار حيّ الزهور؟

- أصبح كبيرا جدا . . أكبر من دمشق بما لا يقاس . . أكبر منها مساحة ، وأكثر منها عددا . . ألم تذهب اليه منذ وقت قريب ؟

- كلا ، ذهبت اليه منذ مدة طويلة . .

- اذن ، أنا أدعوك لزيارة بيتنا الجديد في حي الزهور . . انه ليس جميلا مثل بيتنا في القرية ، ولكنه أفضل من الخيمة على أية حال . . هل ستزورنا ؟ . . سيأخذك يوسف الينا . .

- وما أخبار يوسف ؟

- يوسف وشقيقه وجيه ، دخلا معا اليوم الى الأرض المحتلة . . وجيه شجاع شجاعة مذهلة . . انه يصر على اصطياد اسرائيلي حي ، فيسبب ارباكا شديدا لرفاقه . . يتركهم أثناء العملية ، ويطارد الاسرائيليين ليمسك بأحدهم . . ويوسف شجاع أيضا . . .

توقف لحظة عن الحديث ، ثم أضاف :

- ولكني شخصيا ، لا أحبذ دخول الأخوين معا الى الارض المحتلة ، في عملية واحدة .

فسألته :

- ومن أية منطقة دخلا اليوم ؟

- من المنطقة الشمالية . . العمليات هناك ، غالبا ما تكون خطرة ، بسبب طبيعة الارض . .

بعد قليل ، سألني وعلى شفتيه ابتسامة خجول :

- ما رأيك لو ذهبت الى تلك الخيمة ، وحصلت على بعض الشاي ؟ . . سأدفع لهم ثمنه .

- جميع رفاقنا يرغبون في الشاي ايضا ، وأخشى أن نضايق هؤلاء الناس بطلب قد يكون متعذرا بالنسبة لهم .

- سندفع لهم ثمنا مضاعفا ، وليس في الأمر أية مضايقة . . هل أذهب ؟ . قلت ؟

- لا أدري . . إسأل قائد المجموعة ، فأنا الآن مجرد ضيف .

قصد قائد المجموعة ، ثم عاد بعد فترة ليقول لي :

- هذا القروي لا يقبل أن يبيعنا شيئا . . قصدوه فردهم ، وقال أنه ليس بائعا وأن من يريد طعاما أوشرابا ، يتوجب عليه دخول الخيمة كضيف لا كمشتر . . تفضل . . وافق قائد المجموعة على قبول دعوة الرجل العنيد .

دخلنا الى الخيمة ، فسمعنا قائد المجموعة يقول للفلاح النازح :

- أنت مخطىء . . أصول الضيافة تطبق في البادية حيث يندر مرور الغرباء .

فلم يحر القروي جوابا ، ووضع كمية من الخبز أمامنا وانصرف . وهمس قائد المجموعة :

- فليأكل كل واحدلقمة واحدة مسايرة لهذا الرجل العنيد ، أما الشاي ، فاشربوه بلا تحفظ .

عاد القروي وهو يحمل صحنا فيه كرات من اللبن المجفف مغمورة بالزيت ، فوضعه أمامنا ، ثم انصرف لاحضار الشاي .

قال أحد المقاتلين وهو يضحك :

- لا بد أن هذا الرجل يبيع الكوفيات الأردنية المهربة . . ما رأيكم لو اشترى كل منا واحدة ، وبذلك ندفع له ثمن الشاي دون أن نجرح كرامته ؟

فوافق عدد منهم على الاقتراح وهم يضحكون . وجاء القروي بالشاي ، فشرب الجميع بلذة واستمتاع ، وتبادلوا معه حديثا وديا ، ثم اشتروا منه بالفعل عددا من الكوفيات الجيدة .

* * *

جاء من ابلغنا أن سيارة قد وصلت ، وأنه قد حان وقت العودة فنهضنا جميعا ، وغادرنا الخيمة .

كان قد حضـر في السيـارة منـدوب عن القيـادة . وقـد سألـوه عن سير العمليـات في المناطق الأخرى ، فأجاب أنها جيدة وناجحة في أغلب المناطق . ولكنه أردف بعد أن أشعل لفافة ، وعب منها نفسا عميقا :

- ما عدا المنطقة الشمالية! . .

أطرق صامتا ، فسأله أحدهم :

- وماذا حدث في المنطقة الشمالية ؟

أجاب وهو يرفع رأسه الى أعلى :

- خسرنا ثلاثة من خيرة رفاقنا . .

ساد الصمت والوجوم فترة طويلة ، ثم عاد أحدهم يسأله :

- وكيف حدث ذلك ؟

فانطلق يشرح بهدوء ، وقد تحلق الجميع من حوله :

- كان كل شيء يسير على ما يرام . . دخلت المجموعة ، ووصلت المنطقة المحددة لها ، وكمنت على جانب طريق سحيتا - مسعدة . وقد مرت الآليات الاسرائيلية في الموعد المحـدد حسب معلومـات الاستطـلاع ، فتحرك عناصر الهندسة ، وزرعوا الألغام في طريق عودتهـا وفق الخطـة ، ثم عادواوانضمـوا الى رفـاقهم في الكمـين ، في انتظـار عودة الآليات المتـوقعـة خلال نصف ساعة . . جهزوا اسلحتهم المضادة للدبابات ، ووزعوا كافة المهمات على أكمـل وجـه . . كان مصـدر الخطـر الـوحيـد عليهم ثلاثة منعات اسمنتية على مرتفع قريب ، وكان الاستطلاع قد قال أن في واحدة منها فقط رشاش ثقيل . . ففي أية منعة وضع الرشاش يا ترى ؟ . . هذا السؤ ال كان الثغرة الوحيدة في مجمل العملية ، وقد اختاروا أخيرا منعـة لا على التعيـين ، وثبتـوا المـدفـع باتجاهها . وعندما بدأت المعركة ، واطلق الرشاش المعـادي حممـه ، فوجئـوا ان اختيـارهم كان صحيحـا وأنهم صوبوا عليه بالذات مصادفة ، وهكـذا لم يكلفهم اخـراسـه سوى قذيفـة واحـدة . . سأعـودالى سياق العملية ، فالمشكلة ليست هنـا . . عادت الآليـات المعـاديـة كما هومقدر لها ، وضمن الوقت المحتمل . ولكنها قبـل أن تصـل الى الالغـام المـزروعـة بمسـافـة قصـيرة ، توقفت ، ونزل منها عناصر سبر الألغام ، فتقدموها ببطء ، وهم يضربون الارض بقضبانهم . . توقفوا قبل الالغام المزروعة بقليـل . . لعلهم اكتشفـوهـا لانها لم تموه جيدا . . على أية حال ، هب رفاقنا على الفور ، وقصفـوا الآليـات فأحـرقـوا واحـدة ، وانهالوا على جنود العدو المذعورين بنيران اسلحتهم

الخفيفـة . . حتى الآن كل شيء على ما يرام . . ولكن فجأة ، تدفق رجـال الكـوماندوس الاســرائيليــون من مرتفــع قريب . . هؤلاء الجنــود لم يدخلوا في الحســابـات ، ولم يأت الاستطـلاع على ذكـرهم . . وكـان على رفاقنا أن ينسحبوا بسرعة قبل أن يصل الى أرض المعركة مزيد من نجدات العدو الآلية . . لكنهم كانوا ينسحبون عبر اشتباك قوي مع رجال الكوماندوس . . ورغم ذلك عبروا الى الخط الاخضر ، الواحد تلو الآخر . . في المؤخرة ، أصيب الرفيق فائز . . صرخ مستنجدا ، فعاد اليه الرفيق وجيه على الفور . . وكان الرفيق يوسف قد وصـل الخـط الاخضـر ، وأصبـح خارج ارض المعـركـة ، لكنه عاد ايضا لنجدة رفيقيـه . . لعلكم تعـرفـون أن وجيه شقيقه . . استشهدوا ثلاثتهم ، ويؤسفني أن ابلغكم هذا النبأ . .

خيم على الجميع صمت ثقيل . . صار وجه مرسل أبو نواف بلون الشمع . . وغير بعيـد عنـا ، كانت بقـرة شقـراء ضئيلة الحجم ، تقضم العشب . . والى جانب الخيمـة ، ظهرت امرأة متلفعة بالسواد ، تغسل بعض الثياب بهدوء . . وعلى الكتف الآخر من وادي اليرموك ، وقف جندي اسرائيلي الى جانب سيارة مصفحة .

افتقدت قلبي ، فلم أجد له أثرا . . انه لا ينبض . . لكأنني بلا قلب . . من يا ترى قال كلاما بهذا المعنى ؟ . . من يا ترى ؟ .

صحت فجأة بصوت عال ، مخاطبا مندوب القيادة :

- يا رفيق . . لقد قبلت المهمة التي اقترحتم أن توكل إلي .

جلس الرفيق مرسل الى جانبي ، وقال بصوت خنقه الحزن :

- أصبح ذهابك الى حينا محتما . . . .

- سوف أذهب .

- من أجل الجنازة .

ابتسمت بمرارة وقلت :

- كلا ، ليس من أجل الجنازة فحسب . . أعتقد أن حي الزهور يتسع لساكن جديد .



الفهرس

الصفحة

الأيام التالية

رواية

هذه الرواية

﴿ من اللحظات الأولى التي تنساب فيها مع أحداث رواية « الأيام التالية » يشدُّك نصر شمالي بعنف الواثق المُتَمَكِّن ليضعك في قلب مشروع رواية على مستوى عالمي متفوق . لحظات من التفتح الحادّ ، ولمحات من الفرح تشدّك لهذا العمل الرائع . . تتحسّس بداية رواية حديثة بكل ما تحمل الحداثة من مفاهيم . سرد مركّز . وخيال شعري ، وتصوّر عميق ، وتحطيم لقوانين الزمان والجاذبية . وإذا أنت على مسرح تعجُّ الأحداث فيه وتتلاحق بشكل يحكمه التصور الشعري المجنح بغض النظر عن مدى إقامته في عالم الواقع ﴾

صحيفة القبس الكويتية

العدد ١٨٣ - ٢١/٩/١٩٧٢

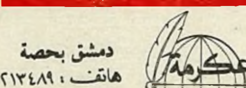
﴿ كثيرون منا هم الذين سيجدون ملامحهم وتقاطيع وجوههم ، بين السطور . . . وهم يقرأون « الأيام التالية » لنصر شمالي . ﴾

صحيفة البعث السورية

العدد ٢٨٥٥ - ٢٨/٦/١٩٧٢



نصر شمالي



عكرمة
دمشق بحصة
هاتف : ٢١٣٤٨٩

